

أَمَّالَة

للمعبدتين

نعمت ذهني و عزيزة الابرارشي

ملتزم الطبع والنشر

دار الكتاب العربي بمصر

١٩٥١

[REDACTED]

[REDACTED]

للشباب

إلى الشباب من الجنسين

وإلى الأزواج والزوجات

نقدم تلك القصة الواقعية لعل فيها عظة وذكري .

المؤلفان

كلمة الناشر

هذه قصة مصرية انتزعت وقائعها من صميم المجتمع الذى نحيا فيه .
وقد رأيت أن فى نشرها تدعيماً لأخلاق هذا الجيل الذى
كثرت أمامه المزالق وأغراه ما فى الحضارة الحديثة من تهور
وانطلاق . . .

وإنه ليؤسفنا أن تكثر الروايات الخليعة فى أيدي القراء ،
وأن تترك آثارها السيئة فى نفوسهم وأعمالهم فراغاً ومجونا .
فلتكن هذه القصة اتجاهاً جديداً فى الأدب الروائى يرفع
مستواه ويقود الرجال والنساء إلى الفضيلة والعفاف .

محمد حمى النيلوى

فى ذلك الحى المهادىء بالقاهرة ؛ وعلى إحدى ضفى النيل الجمىل ،
 حىث يهب نسىمه الوادع ، وتتمتع العىن بمنظره الساحر ، تجدد قصر (زىنات
 هانم) رابضاً فى أحضان تلك الجزىرة الجمىلة ، شامخاً بعظمة بىانه ،
 وجمال منظره بىن قصورها الشاهقة التى تكسنفها « البساتىن المزهرة »
 وتظلل شوارعها الأشجار المورقة وىشملها الهدوء .

والحق أنه كان قصرأ عظم البىان ، بديع التصمىم ، تحىط به حدىقة
 كبرى منسقة على أحدث طراز . وتطل شرفات طبقتىه الواسعة على الحدىقة
 من جهة ، وعلى النيل من الجهة الأخرى .

وكان ىمتاز عما حواه بكثرة ضوئه وضوضائه . لما كان ىقام فیه من
 حفلات اللهو والطرب .

فالقصر كان غالباً أشبه بناد أو مسهر . سىارات فخمة تقل إلىه وفود
 الأصديقاء والصدىقات ، لىقضوا معظم اللىل مع سكانه بىن حلقات الرقص
 والسمر . وخدم كثىرون ىحملون إلیهم أكواب الخمر ومختلف الشراب ،
 وحجرات عدىدة مفروشة بأنفر السجاد وأحدث الأثاث . وىمكنك بعد
 ذلك أن تقدر ما كان علیه أعمحابه من عىشة الترف والنعمى — وقد كان
 معروفا بقصر « زىنات هانم » .

كانت « زىنات هانم » سىدة « عصرىة » فى مقبىل العبر ، على كثر
 من الجمال والثقافة ، إلا أنها كانت محبة لحياة اللهو والخلاعة ، منقادة
 « لهوى نفسها » ورغباتها .

ويقال إن الذي شجّعها على المضي في هذا ، هو تهاون زوجها
« شاكر باشا » وإهماله في ردها أو على الأقل سلامة نيتة وتسامحه ؛
فقد كان من أصل تركي ، كبير السن ، طيب القلب .

والباشا — وإن كان مؤمناً ومحافظاً على فرائض الدين — إلا أنه كان
ضعيف الإرادة ، قليل النصح ، وهو بعد مغلوب على أمره أمام عناد
زوجته وسيطرتها ، فترك لها حرية التصرف في شئون بيته وأولاده ،
فنشأتهم على حب اللهو وملاذ الحياة .

وكان « زينات هانم » ابناً وابنتان تشبهانها في صفاتها وأعمالها ،
غير أن « إصلاح » صغرى الفتاتين كانت تمتاز بجمال فائق وقوام بديع .
وتعتبر زينات هانم في طبيعة المشتغلات (بالنهضة النسائية) إذ كانت
رئيسة الجمعية (السيدات العصريات) وغيرها من الجمعيات التي تهدف إلى
مساواة المرأة بالرجل في الأعمال .

وفوق ذلك كانت شديدة الحرص على الظهور في المجتمع ، فكانت
تكثّر من إقامة الحفلات باسم الخير داخل القصر وخارجه .
ولم يكن حرص (زينات هانم) على الظهور في تلك الحفلات مقصوراً
عليها فحسب ، بل كان يهتمها كذلك أن تكون ابتهاجاً قبله أنظار المدعوين
إليها ومحط إعجاب الموجودين بها .

من أجل ذلك كانت تذهب معها إلى محال التجميل والتزين كلما
أقامت حفلة من هذه الحفلات .

ولهذا ما كادت تضحى شمس اليوم الذي ستقيم فيه أولى حفلاتها الخاصة
بتأسيس ملجأ للفقراء حتى كن على أهبة الخروج من القصر .

كانت الساعة العاشرة صباحاً عندما استقلت « زينات هانم » وفتاتها « سوزان وإصلاح » سيارتهن الفخمة التي كانت تنتظرهن أمام باب القصر وما كادت « السيارة » تنطلق بهن حتى أخذت تقطع طريقها وسط « رياض الزمالك » مخترقة « جسور النيل » إلى أن وقفت بهن أمام محل « حلاق » شهير للسيدات .

وفي تلك اللحظة أقبلت « سيدة » ترتدي « ثوباً أنيقاً » وبصحبتها « فتاة » لا تقل عنها أناقة هي ابنتها « يسرية » ولاحت من « زينات هانم » التفاتة نحو السيدة ، فما إن رأتها تدخل هذا المحل نفسه حتى صاحت في سرور :

— عنايات هانم ؟ يا لها من مقابلة سارة .

وتصافح الجميع في سرور بهذا اللقاء . وما لبثت « عنايات هانم » أن بدأت الحديث مع « زينات هانم » قائلة :

— شكراً لك يا عزيزتي على دعوتك . فقد وصلني خطابك أمس ، وإني لسعيدة بأننا سنقضى الليلة في « حفلتك الخيرية » .

قالت هذا ودخلن « المحل » ثم جلسن متجاورات يتشاورن في اختيار أجمل « تصفيات الشعور » اللاتي تتناسب ومسابقة « جمال الرؤوس » المزمع إقامتها مساء اليوم ، في « أوبرج الأهرام » ضمن حفلة « زينات هانم » الخيرية .

وفي خلال ذلك التشاور تسالت إصلاح في هدوء إلى مدير المحل وطلبت منه آنسة للقيام بتزيين رأسها وتجميله ، ثم عادت إلى مجلسها معهن .

وبعد استهجان واستحسان ؛ واستنكار وإعجاب جاء الحلاقون فاتخذت كل منهن مقعداً أمام « حلاق » منهم
وقبل أن يجلسن أقبلت الأنسة تلبية لطلب إصلاح ، فعلت الدهشة
وجوه الجميع وبالأخص يسرية .

كانت يسرية ، صديقة الفتاتين ، وكانت تمت بصلة القرابة إلى « زينات هانم » وكانت بحكم هذا تتردد كثيراً على تلك « الأسرة »
لكن حدث منذ أكثر من عام أن التحقت « بكلية الآداب »
واشتغلت بعلومها . ومن ذلك الحين انقطعت زيارتها عنهن إلى أن كانت
دعوة « زينات هانم » وكان هذا اللقاء

ومن الغريب أن « يسرية » قبل انقطاعها عن زيارتهن كانت تحضر
مراراً مع « إصلاح » إلى نفس هذا « الحلاق » لتزيين رأسيهما . ومع
ذلك ما كانت تشاهد « إصلاح » تمتنع عن الجلوس إلى « الحلاق »
أو تطلب آنسة أو تفكر في مثل ذلك .

لهذا ما كادت ترى ما بدا من « إصلاح » اليوم حتى استولى عليها
الدهش ، وتملكها العجب وراحت تسائل نفسها :

— ماذا جرى لإصلاح ؟ وما هذا التغير الذي طرأ عليها ؟ لقد كانت
مثلاً للفتاة المستهترّة ، ولم تكن يوماً من المحافظة على التقاليد أو العادات
الموروثة . فما سبب ذلك التطور ؟

وهكذا ظلت تسائل نفسها في صمت وحيرة

وفيما كان الحلاقون يعدون أدوات التجميل كان الجميع في عجب
يسرية ودهشتها

ومضت لحظة خاطفة أقبلت « زينات هانم » بعدها نحو إصلاح
وقالت هامسة في ضيق:

— لماذا استدعيت الآنسة ؟ — أنسيت أن الرجال هم أجدر وأمهر
من النساء في فن « تصفيف الشعر » وتزيين الرأس ؟
فأجابت إصلاح بصوت مسموع :

— ما زلت أعلم ذلك يا أماء . ولكنى عرفت من « أستاذى » فى
بعض دروسه أن جلوس المرأة إلى رجل ليزين رأسها حرام ويغضب الله
فزادت دهشة يسرية فى حين انفجرت سوزان ساخرة . ثم اتجهت
إلى أختها وقالت :

— أستاذك ؟ .. حقاً لقد غير الشيخ كثيراً من طباعك العصرية
وآرائك الحديثة ، ولشد ما أخشى عليك الاتصاف بالرجعية إذا
ما تماديت فى ذلك .

فنظرت إليها إصلاح ، ولم تزد على أن قالت :
إذا كانت الرجعية فى نظرك معناها الرجوع إلى أوامر الله ورسوله
فما أسعدنى بتلك الرجعية .

كان هذا الحوار بينهما على مسمع من « عنايات هانم » التى جعلت
تنظر إلى إصلاح فى صمت مالم يلبث أن استحال إلى عجب أخرجها عن صمتها
فراحت تتساءل :

— عجباً ! ! من يكون هذا الشيخ ؟
وكانت إصلاح تقف بالقرب منها فأسرعت قائلة :

— إنه عالم « جليل » كبير « السن » جاء به « والدى » بعد أن إتممت

تولسى في مدرسة « المير دى ديبه » ليرشدنى وإخوتى إلى . . .
فقاطعتها عنايات هانم قائلة في استنكار :

— عالم ؟ . . . مالك يا ابنتى وكلام العلماء والشيوخ وآرائهم ؛ إن لهم
طريقة في الحياة لا توافق طبيعة نشأتك — التفق حولك ثم انظرى . .
هل تجدين أحداً في هذا العصر يسمع لقولهم أو يعمل بوعظهم ؟ . —
لا . لا . يافتاتى . لا .

إن من يستمع إليهم يعيش في وحشة ويحرم بهجة الدنيا . ومن حقق
التمتع بها وأنت في ريعان الشباب ورغد العيش .
فأحست الفتاة بخطأ هذا الرأى وتمتعت في نفسها :

— يا لله .. ما أشد جهل الناس بصالحهم — إذا مرضت « أجسامهم »
بادروا إلى علاجها عند الأطباء حفظاً لحياتهم « الفانية » ، أما من يشفون
أرواحهم وهى مصدر حياتهم « الدائمة » فهم عنهم غافلون وبهم مستهزئون .
ثم تطلعت إلى عنايات هانم وقالت :

— عفواً يا سيدتى . . ما أحوجنا إلى وعظ العلماء في هذا العصر .
أليس العلماء ورثة الأنبياء وللأرواح أطباء ؟ — فلم لا نستمع إلى العاملين
منهم المخلصين ؟ — ومن غيرهم يشفى « قلوبنا » من الآثام ؟ ويرشدنا إلى
معرفة معانى القرآن وفرائض الإسلام ؟ — ثم ألسنت مكلفة باتباع أوامر الدين
وأنا فى سن الشباب ؟ وأليس نعيم العيش يتطلب شكر الله وطاعته ؟

ثم استدارت وأخذت مكانها من الآنسة التى أقبلت تلبية لطلبها
وما كادت تفعل ذلك حتى ظهر على والدتها الغضب والتأفف ثم قالت
في شبه عتاب :

— ما كنت أنتظر منك هذا يا « إصلاح » بعد اعتراض « عنايات هانم » وما كان ينبغي لك أن تستمرى في نزعاتك الشاذة ، بعد هذا النصح والإرشاد .

فصمت إصلاح وانقطع الحديث .

ومضت فترة طويلة شغل الجميع فيها عن الفتاة بزيتتهن وتصفيف شعورهن .

وظلت هذم حالمين حتى فرغ الحلاقون من تزيينهن فخرجن .

ثم دعت « زينات هانم » يسرية ووالدتها لتوصلهما إلى منزلهما .
فركب الجميع السيارة .

وفي السيارة جلست « يسرية » بجوار « سوزان » صامتة تسبح بخواطرها ، وكانت جائعة للطريق وجهها ولاهية عما حولها . ولاحظت ذلك « سوزان » فلم تشأ أن تتركها على تلك الحال والتفتت إليها قائلة :

— (يسرية) ترى لماذا أنت صامتة ؟ وفيم كنت تفكرين ؟

فتنهت (يسرية) والتفتت جهة إصلاح . ثم أجابت :

— لم أكن أفكر في شيء بعيد (ياسوزى) ولكنى كنت أعجب من تقلبات هذه الحياة وعدم استقرارها على حال .

ففهمت (سوزان) مارمى إليه ، ولكنها تجاهلته وقالت متسائلة :

— وكيف ؟

— أصرح لك (ياسوزى) أننى لم أزل مشغولة بالحالة التى رأيت عليها (إصلاح) اليوم ؟ فمن يصدق أن (إصلاح) التى نشأت على حب اللهو والسخرية من أهل الدين تصبح هكذا ؟

ترى ما الذى بدلها وغير من آرائها ؟

فأجابت (سوزان) فى شيء من السخرية :

صدقينى يا (يسرية) أننى أيضاً فى حيرة من أمرها ، ولا أعرف لذلك سبباً ، ولا أظن إلا أنه قد اعتراها نوع من الجنون

فلم تقتنع (يسرية) بذلك واستمر الحديث بينهما حول هذا التغير وكان على مسمع من الوالدين ، فما لبثت « عنايات هانم » أن قالت « لزينات هانم » :

— الحق يا صديقتي أنني لم أزل في عجب من أمر « إصلاح » بعد الذي رأيته وسمعت منه اليوم

قالت « زينات هانم » في أسى :

— لقد أصبحت لا أطيق سماع شيء عن أعمالها الجديدة الشاذة .
ولا أدري من أين جاءت بها إلا أن يكون ذلك الشيخ العتيق
فأنجحت إليها « سوزان » وقالت :

— لا أظن ذلك يا أماء . فقد سمعت منها بعض خرافات قبل وجود الشيخ
ببضعة أيام ، وهي السبب في وجوده ، وتنبه والدنا إلى وجوب استماعنا
إلى دروسه ومضايقتنا بحضوره كل أسبوع
وما انتهت « سوزان » من أقوالها حتى عادت « يسرية » إلى
الحديث قائلة :

— إننا في الواقع لا يمكننا أن نقف على السبب الحقيقي لهذا التحول
الدهش إلا من (إصلاح) نفسها . ثم اتجهت إلى إصلاح متسائلة :

— هل لنا أن نعرف منك السبب الأول في هذا التحول ؟
وصمتت وشمل الجميع شوق واهتمام

جرت أحاديثهن السابقة وإصلاح صامتة تنظر إليهن ، وأفكارها كلها
منحصرة في دهشتن وما يجب أن تقوله لتخفف من سخريتهن وعجبهن

فما أن طرقت سمعها سؤال (يسرية) حتى اتجهت إليهن وصاحت قائلة :

— يا أختي — ماذا يدهشكن من أمرى ؟ وماذا فيه من غرابة ؟

إن الدوام على حال ليس من صفات المخلوقات ؛ ولا من طبيعة الإنسان ؛

فهو متنازع بين تغلب (سلطان العقل) وتغلب (إغواء الهوى)

من أجل ذلك نرى أحياناً إنساناً طائعاً لربه مؤمناً ، ثم إذا بنا نراه قد تغلب (هواه) على (عقله) فانقلب شيطاناً عسيفاً لربه .

وأحياناً نسمع عن إنسان كان منغمساً فى شهواته ولذاته ، ثم ما تلبث أن نسمع أنه قد استقام حاله ، وتغلب عقله على هواه .
كذلك كان شأنى .

فقد كنت إلى ما قبل العام الماضى إحدى ضحايا تغلب الهوى على العقل .
أهيم على وجهى فى ملاذ الحياة ومغاسدها . وكنت على الحال التى تعرفها عنى .
واستمرت هذه حالى إلى أن استيقظ عقلى فأرشد (قلبي) وملك زمام
نفسى وتغلب على « هوائى » .

كان ذلك فى العام الماضى بعد رجوعنا أنا ووالدى وإخوتى من
الاصطياف فى الأقطار الأوروبية التى تنقلنا فى معظم بلدانها وملاهيها .
دخلت ليلة على والدى فى حجرته لأقص عليه ما شاهدته فى رحلتنا الجميلة
وما رأيته فى تلك البلدان البعيدة ، فوجدته جالساً فى مصلاه ، وفى يده
مسيحه ، وأمامه كتاب الله الكريم فحيته بتحية المساء . فبادلنى التحية برفع
يده ولم يقطع قراءته ، فلم أشأ أنا أيضاً أن أقطع عليه عبادته ، وخرجت
من عنده متأثرة بمظهره الجليل .

ومع أننى لم أكن قبل هذا الوقت أقدر أعمال والدى الدينية ولا ألتفت
إليها ، ولا أعرف شيئاً عن شرائع الدين وكنت أسخر ممن يعمل بها كما تعلم
إلا أننى فى تلك اللحظة أحسست بأن عقلى قد تنبه وشعرت به يحفزنى
إلى النظر فى أعمال ما كنت أفكر فيها من قبل إذبدأ منذ الليلة يدعونى
لألتفت إلى لون آخر من ألوان الحياة غير الذى تعودت أن أراه .

دعاني أولاً لأتأمل في أعمال والدي المخالفة لما أعمله طول حياتي . .
ثم دعاني لأستمع إلى ما يلقى به بعض المصلحين في المذيع من الحكم الدينية
والعظات القرآنية فتنهت إلى ذلك . وتاقت نفسي إلى معرفة هذا النوع
الجديد . ولأول مرة استمعت « لصوت العقل » ورغبت في أن أسلك
الطريق الذي يسلكه والدي برغبة صادقة وعزم أكيد . ثم أمسيت
معظم ليلتي أفكر في تلبية هذا النداء ، وأصبحت أنظر إلى أعمال والدي ،
وأستمع إلى العظات كما دعاني « عقلي » . . . فما لبثت كثيراً حتى تفتحت
عين قلبي للإيمان . وانهرت بنوره . ورأت جمال الحق . وقبح الباطل .
عند ذلك عازمت على أن أنال من كنز هذا الدين ما أستطيع الحصول عليه
للتحلي به نفسي ويستنير منه قلبي .

وما انتهت من سرد قصتها حتى ظهرت على وجوههن ألوان شتى
وخلجات مختلفة . فقد وجعت والدتها وصمتت (عنايات هانم) على حين
اقتنعت (يسرية) واستراح بالها ، أما (سوزان) فقد بدت السخرية من
نظراتها وضحكاتهما ، ولاحظت ذلك (إصلاح) فقالت لأختها الساخرة :

— لا تسخرى مني (ياسوزي) فأنا أعلم أن كلامي لا يروقك ، وقد
كنت مثلك أسعى للاستمتاع بزخرف هذه الحياة الفانية حتى تحققت
من وجود حياة ثانية خير منها وأبقى فأثرتها ورغبت في متاعها .

وكانت (يسرية) تنظر إليها في صمت ، فما انتهت حتى صاحت
في إكبار :

— لله أنت يا إصلاح . وإني لأعتقد بأن لهذه الرغبة دخلا
في هدايتك وتحولك .

ذاعت عينا إصباح يريق الموافقة وقالت :

— هذا حق . لأنني عند ما أكثر الحياة الباقية شرح الله صدرى
لدينه وتكشفت لي كنوزها ، والله (يهدي إليه من ينيب)

وما صنت حتى نادت (يسرية) متسائلة في اهتمام :

— وهل حصلت على كثير من هذه الكنوز ؟

فصنت إصلاح ثم قالت في شبه أسف :

— في الواقع لم أحصل على شيء ، يذكر إلى الآن غير أنني شعرت
بغنى شديد واحتقار زائد لتلك الحياة المظلمة التي كنت أحيها يقابله
حب عميق وشغف للسير في طريق النور الذي اهتديت إليه بعد أن
ندمت على ما كنت أفعل من قبل — ولهذا استأذنت والدي في إحضار
« أستاذ » كي اكتسب منه كثيراً من المعلومات الدينية ، وشرائع الإسلام
التي أجهلها . إذ كنت كساح مبتدىء بين الأمواج ، يغوص تارة
ويطفو أخرى ، ولا بد له من مدرب يأخذ بيده .

ولم أزل حتى الآن في احتياج إلى استذكار واستطلاع ، فالقلوب
تصدأ مثل النحاس ، وجلالؤها ذكر الله ونور العلم ، ولم أزل حتى الآن
أجاهد في معرفة ما يرضى ربي وما يغضبه ، وأرجو الله أن يظل عقلي
دائماً مسيطراً على هواي .

وكانت السيارة قد وصلت إلى منزل عنايات هانم فاقطع الحديث
ونزلت مع ابنتها وواصلت السيارة سيرها إلى القصر

دخلت (زينات هانم) وقتاتها القصر — ولما كانت ترغب في الخروج بسرعة للإشراف على الحفلة قبل المدعوين فقد ذهبن تَوّاً إلى (حجرة الطعام) .

وعلى مائدة الغداء اجتمعت الأم وأولادها كالمعتاد . إلا أن «سامى» الابن الأكبر كان قد تأخر عن الحضور . فانشغلت والدته وقلق إخوته عليه . وانقضت مدة دون أن يحضر فزاد انشغالهم ثم شرعوا يأكلون في صمت وقلق .

وقبل أن ينتهوا أقبل «سامى» والبشر يلوح على وجهه والسرور يشع من عينيه .

فعلت الدهشة وجوه إخوته وراحوا يسألونه عن السبب في شوق ولحفة وكأنا أراد أن يزيد في تشوقهم فجلس بجوار أخيه حسين وبدأ في الأكل . . ثم طلب أن يتبأ كل منهم بسبب لسروره عند ذلك راح الجميع يفكرون . وطفق كل منهم يقترح سبباً . «وسامى» يضحك ولا يوافق عليه .

وأخيراً وقد ظهر عجزهم قالت الوالدة وكانت أعلم بطبع ولدها :

— إذا صح ظنى يكون «سامى» قد كسب مبلغاً من الميسر .

فصفق سامى طرباً وقال في لهجة مضحكة :

— هو ذاك يا والدتى . فقد لعبت اليوم الميسر مع أحد أصحاب صديقى

«توفيق» ويدعى «محسن المستكاوى» وكسبت منه مبلغ مائتى جنيه دون أن أخسر شيئاً .

وكان (زينات هانم) قريب يحمل اسم هذا الشاب فلم تسكده تسمع اسمه حتى صمتت وكانما أثنىها أمره — على حين انفجر الإخوة ضاحكين من حركاته .

ثم تقدمت « سوزان » إلى أخيها مهتة وقالت مداعبة :

— وأظنه حنق عليك بعد ذلك يا « سامى » ؟

— كلا لم يحنق ولم يغضب بل هنأنى على حظى السعيد .

فقلت « سوزان » فى إكبار :

— ياله من شاب سخى !

— وغنى أيضاً لايهمه المال وقد ينفق على أصدقائه أكثر من عشرة

جنيهات على مأدعة شراب فى جلسة واحدة . هذا ما أخبرنى به صديق عنه .

ثم أخذ يوازن بينه وبين رجل آخر فقال :

— إن هذا الشاب على عكس رجل كان يلعب الميسر مع آخر بجوارنا

ويظهر أنه كان فقيراً أو خسر كثيراً لأننا رأينا رفع الكرسي على

زميله هكذا .

وأمسك « سامى » مقعد المائدة الخالى بجانبه ورفع به حركة مضحكة

وهو يقهقه من فرط سروره .

فضحك إخوته . حتى خادم المائدة الذى كان يوزع الحلوى وقتذاك لم

يتمالك نفسه من الضحك .

تم هذا التمثيل وتلك الضحكات فى الوقت الذى كانت فيه « زينات هانم »

شاردة مشغولة بأمر محسن المستكاوى . وأكبر الظن أنها كانت تفكر

— كيف يتسنى لها أن تعرف حقيقة هذا الشاب بنفسها قبل أن يعلم أولادها

لأنها لم تشترك معهم في الضحك ولم تجربهم بما يشغلها من أمر (محسن) .
ولاحظ هذا الشرود أولادها دون أن يعرفوا السبب .
فقالت « سوزى » فى مكر :

— يبدو أن والدتى لم تكن معنا بفسكرها وإلا لضحكت من « سامى »
وهو يمثل الرجل الفقير الذى خسر تقوده فى الميسر .

فتنبت « زينات هانم » وأسرعت قائلة فى مواراة :
— حسبكم أن تضحكوا أتم من الرجل الفقير . أما أنا فلا أبالى
إلا بذلك الشاب الغنى السخى .

وما لبثت أن اتجهت إلى « سامى » وقالت :

— « سامى » . . أصغ إلى :

— ماذا يا والدتى ؟

فقالت وقد أخفت الدافع الحقيقى :

سأقيم حفلة خيرية فى الأسبوع المقبل بنادى جماعة (السيدات العصريات)
لتنمية مشروع الملجأ . ويهمنى أن يحضر هذا الشاب الغنى الذى لا يعرف
للمال قيمة فعلى أمثاله يقوم بنجاح مشروعنا .

لهذا أرى ضرورة وجود من يدعى « محسن المستكاوى » فى هذه الحفلة .
فأجاب سامى مسروراً :

— لك ذلك يا أماء .

وتم الاتفاق وفرح الأبناء ووافقوا فى سرور .

غير أن « إصلاح » لم يلاحظ عليها شئ من الاهتمام أو الموافقة على ذلك
الحفل بدليل مظهر على محياها الصامت الجميل .

وكانت قد التحقت عضواً بجماعة (المسلمات المجاهدات) منذ شهر

فراحت تطلب من والدتها في رجاء أن تأذن لها بعدم الذهاب إلى حفلة اليوم والحفلة القادمة معتدرة بانشغالها بأعمال هذه الجمعية .

فلم تكذ الوالدة تسمع ذلك من إصلاح حتى تذكرت ما كانت قد رآته وسمعتة منها عند الحلاق . وعندئذ عاودها الضيق وهبت في نفسها ثورة حقد صامتة — لا شك أن هذه الجمعية من أهم بواعث تغير إصلاح وتحولها — فلماذا لا أحول بينها وبين الذهاب إليها ؟

وفي لمحة آمرة حتمت عليها الذهاب معهم في كل حفل تقيمه .
وكان قد انتهى الغداء فأسرعت تستعد للخروج إلى الحفلة .

انقضت فترة بعد خروج (زينات هانم) دخل بعدها (حسين وإصلاح) كل منهما إلى حجرته ليسترخ ويستجم بالنوم .

أما (سوزان وسامى) فقد خرجا إلى شرفة القصر المطلة على النيل وجلسا يقطعان الوقت بلعبة (الكونكان) المحببة ليهما حتى غابت الشمس واصطبغت السماء بحمرة الشفق فتركا اللعب وأسرعت سوزان إلى حجرة الزينة وما لبثت أن استعدت للذهاب إلى الحفلة .

أما (إصلاح) فإنها لم تكذ تستيقظ حتى تذكرت صلاة المغرب فأسرعت إلى الحمام الملاصق لحجرتها .

وما انتهت من الوضوء حتى أدت صلاة المغرب في خشوع واطمئنان .

وعندما أخذت تستعد للحفلة اتجهت إلى صواب ملابس السهرة ولكنها ما كادت تفتحه حتى وقفت حائرة لا تدري ماذا ترتدى — فهذا ثوب مكشوف الصدر ، وهذا أنيق ولكنه عاري الظهر ، وذاك لا أكمام له .

وأخيراً اختارت من بينها ثوباً يعتبراً كثرها احتشاماً وأقلها خلاعة .
ثم وضعت فوق كتفها ملحفة من الحرير الموشى لتخفي ظهرها العارى
وأخفت ذراعيها ويديها بقفازين طويلين يصلان إلى ما بعد المرققين .
وما إن فرغت حتى راحت تسائل نفسها :

— أهذا الاحتشام يرضى ربي ؟ وهذه الرأس الحاسرة أيباح
ظهورها ؟ وتلك الحفلة هل يجوز الذهاب إليها ؟ وذلك (الأوبرج)
ماحكم الشرع في ارتياده ؟

وهكذا ظل يتتابع في ذهنها سؤال بعد سؤال شأن من تودع حياة
الضلال لتستقبل حياة النور والهداية حتى استقلت السيارة مع إخوتها
إلى الأوبرج .

إذا كنت في (الجزيرة) وسرت في الشارع الموصل إلى (الأهرام) فإنك ترى بعد بضع محطات من الترام في الجهة اليمنى بناءً مكوناً من طابقين . داخل فناء واسع يطلق عليه (أوبرج الأهرام) .

وهذا هو المسهر الذي اختارته (زينات هانم) لإقامة حفلتها الخيرية . كان (الأوبرج) في تلك الليلة آية في الزينة والإبداع فقد ازدان مدخله الخارجي والداخلي بأنواع المصابيح الكهربائية المختلفة الألوان والأحجام . وأضيئت مصابيح أشجاره خلعت على فائه زينة وجمالاً ، وافتنت (زينات هانم) فأدخلت زيادة على ما يعمل في حفلاتها نوعاً من التجديد فكانت مسابقة « جمال الرؤوس » وكانت تذاًكر نصيب تسحب على سيارة تبرع بها أحد المشجعين .

وكانت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية . والحسان بملابس السهرة غاديات رائحات في أجمل زينة وأتم أناقة .

وكان الشيوخ والشبان يحلل السهرة الإفريقية يتنقلون مع زوجاتهم وصديقاتهم من مجالس الميسر إلى حلقات الرقص . وكان الكل ينعمون بالأغاني المختلفة من المغنين والمغنيات ، وجاء خدم الموائد بالعشاء الفاخر المرتفع الأثمان .

هذه هي حفلة « الليلة الخيرية »

وهذا هو (الأوبرج) الذي كانت (إصلاح) تحبه ويزيد قلبها سروراً كلما وجدت به — ولكن . . . ما بالها الليلة صامته تشعر باحتقار لكل

ما فيه . واشتمُّوا لما تراه أمامها . . عجباً ! لقد أخذت سريعاً تحس فيه الملل وأنه يضيق بها على سعة .

انظر . . . إنها تجلس الآن غافلة عما حولها أمام إحدى الموائد النائية مع (يسرية) وفتاة أخرى هادئة القسمة ناضرة الشباب .

ومن غريب أمرها هذه الليلة أنها أهملت كل من كان يوجه إليها نظرات الإعجاب . ولم تشترك في شيء مما كان يعمل هناك . حتى أنها لم ترض أن تبتاع تذكرة من التذاكر التي بيعت على السيارة ولم توافق والدتها عندما دعيتها إلى الدخول في مسابقة (تصنيف الشعر) بل ظلت منفردة بصديقتها (إكرام) بعد أن تركتهما (يسرية)

كانت (إكرام) فتاة رائعة الحسن تمتاز بثقافة وخلق كريم صادقها « إصلاح » في الحفلة . وأعجبت بأخلاقها وما لبثت أن جلست معها وأخذتا تتحدثان . ولم يطل بهما الحديث حتى عرفت « إصلاح » أن صديقتها من أسرة كريمة ومن والدين صالحين أخذت عنهما الدين . ولما توفيا تولى (عمها) رعايتهما ورعاية أموالهما . وعاشت في كنفه وأنها تأتي إلى هذه الحفلات مع أسرته مرغمة

وجدت « إصلاح » في إكرام تشابها في الميول واتفاقاً في الآراء فلم يفتربا لحظة ولم يغادرا المائدة

وانتصف الليل وأعلنت (مسابقة الشعر) فكانت الفائزة بالجائزة الأولى (سوزان) .

وكانت (إصلاح) لم تزل وصديقتها في جلستهما المائدة حينما أقبلت « سوزان » عليهما تحتال بقامتها الرشيقة وتخطو في سرور بثوب السهرة

العارى وقد حلت صدرها بشارة الجائزة فما إن تلقت منهما التهنأت حتى
جلست معهما .

وكانت رؤيتها لأختها على هذه الصورة من العزلة قد لفتت
نظرها وضايقتها .

فما لبثت أن وجهت إليها الحديث قائلة :

— ما لي أراك الليلة معترلة الناس على غير العادة طويلة المكث
في مكان واحد ؟

ولم تنتظر ردها بل راحت تتابع في لهفة :

— انظري.. هل ترين هذه المائدة ؟ تلك فتاة جالسة لاشك أن الذي
يجوارها هو خطيب أو حبيب لأنهما يتقارعان الكشوس ، ويتبادلان
نظرات الوجد والغرام . وهذا جمع من الرجال والنساء منهمكون في لعب
الميسر تعبر حركاتهم عما يشعرون به من سرور وأمل في الكسب ،
وهؤلاء يرمون سهامهم في فرح وسعادة والكل في نشوة كأنهم يحملون
وهم يقظون .

فلماذا لا تمتعين نفسك كما يتمتعون ؟ ولماذا تحرمينها من هذا النعيم ؟
ولم تكن « إصلاح » في مثل إعجاب أختها . ولكنها كانت في حال
تعبر عن أسف واستنكار فلم تجب عن سؤالها .

ولاحظت ذلك « سوزان » فزاد ضيقها ولكنها استمرت تواصل
إعجابها قائلة :

— ما أبداه من حفل وما أعظمها من ليلة — أصغى إلى

يا « إصلاح » وعودى إلى ما كنت عليه تنعمى بما فى الحفلة وتشعرى
بما أشعر .

وما صممت حتى نظرت إليها إصلاح من خلال أهدابها الطويلة .

وفى هدوء وعدم اكتراث أجابت على ما سمعته من أختها بقولها :

— لا يا أختاه لن أعود ولن أتحول مهما سمعت ورأيت .

فحملت « سوزان » مدهوشة وقالت :

— وأسفاه . ما الذى جرى لك الليلة ؟

— لا شيء إلا أننى لم أعد أشعر بمثل ما تشعرين — ولو أنك

حكمت عقلك وتجردت من أهوائك لاشمأزت نفسك واستنكرت هذا
الحاصل أمامك .

ثم اقتربت منها بوجهها وقالت :

— انظرى أنت معى إلى هذه « البارات »

وأخذت تشير بأصبعها .

— أليست هذه المصارف تباع فيها العقول ويشترى الجنون

بالأموال ؟ ثم انظرى إلى هذا المرقص ألم يكن مكانا يباح فيه نوع من البغاء

المكشوف ؟ حيث تتخاصر الرجال والنساء وتلتف الأذرع وتلتصق الأجسام ؟

وهؤلاء ماذا يعملون ؟ أليسوا يقومون بضروب المنكر علنا وبمختلف

الآثام فى جرأة ومباهاة . فما قولك بعد ذلك فى هذه المنكرات ؟

فأجابت سوزان مخالفة :

— أنا لا أرى فى ذلك شيئا من المنكر مادام الغرض منه عمل الخير

وجمع المال اللازم لتأسيس ملجأ لإيواء الفقراء إذ لاسبيل إلى إخراج هذا

المال من جيوب الأغنياء والبخلاء إلا بما يشبع رغباتهم ويمتد نفوسهم .
وتكفي نظرة واحدة إلى الأموال التي تتدفق من أيدي المتبرعين ثمناً
لزهرة وابتسامة من فتاة جميلة أو امرأة حسنة للحكم على نجاح « المشروع
الخيرى » الذي سيعمل منها .

فوجئت (إصلاح) ثم قالت :
— هكذا حكمك ؟

— إنه عين الصواب .

— وهل تسمين ما يعمل من هذا مشروعاً خيراً ؟

— دون شك — فما عمل كل ذلك إلا من أجل الإحسان إلى الفقراء
— أو تحسين أن الله سيقبل هذا الإحسان الذى تجمع أمواله من
هذه المحرمات ؟

— إنه بحث غريب .

— لكنه حق (فالله طيب ولا يقبل إلا الطيب) أما سمعت من أستاذنا

الحديث الشريف :

(كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به)

فما أن سمعت (سوزان) هذا حتى مطت شفيتها وقالت فى تأفف :

الأستاذ دائماً : ألا لعنة الله على هذا الشيخ الفانى ويوم حضر عندنا
وعلمك مثل هذه الفلسفة الجديدة وهذا الكلام الغريب .

ثم أشاحت بوجهها عنها فوقع بصرها على فتاة كانت تثبت زهرة فى
سترة شاب تبرع بجمعها فصمتت ولم تتكلم .

وهنا لاحظت من إكرام التفاتة فرأت نفس الفتاة فصاحت مستنكرة :

— ألا سحقا مال يجتمع من مثل هذا العمل وسحقا لخير يعمل لغير وجه الله
وفي تلك اللحظة أقبل شوقي خطيب (سوزان) وكان يرتدي (الفراك)
ذات الذيل الطويل . جلس معهم وانقطع حديثهن .

كان شوقي من الشباب الذين يحبون في المرأة المال والجاه ، خطب
(سوزان) عقب تخرجه من الجامعة لما سيؤول إليها من ثراء عن والدها
الثرى بعد حب متبادل ترجح كفته عند (سوزان) ألد الأوقات إليه وقت
يقضيه في حفلة من حفلات « زينات هانم » منتقلا بين المسرات والملذات .
لذلك كان يرى في كل حفل مع سوزان .

ولم يطل جلوسه معهم وصدحت الموسيقى برقصة جديدة فاستدار
وأخذ خطيبته من يدها في رشاقة وخفة واتجه بها نحو المرقص .
واستمر الحفل حتى الفجر .

وعندما آوت « إصلاح » إلى فراشها أخذت تسترجع قبل نومها
معاملته في هذه الحفلة من خير وشر — وأخيراً حمدت الله على أن حفظها من
عمل المنكرات ، فلم تلعب الميسر ولم تذق خمراً كما كانت تفعل في الحفلات
السابقة ولم تلب دعوة الداعين إلى الرقص ، ونامت ملء جفونها مستريحة
الضمير بعد أن أدت صلاة الفجر .

وفي الصباح عاد (شاكر باشا) من ضيعته وكان قد اعتاد التنقل بين
ضياعه من وقت لآخر منذ أحيل إلى المعاش — فأسرعت (إصلاح) بالدخول
عليه في حجرته وكان قد خلع ملابس السفر واستلقى على سريره ليستريح .
فأقبلت عليه تقبل يده في شوق وحنان ، ثم جلست بجانبه .

وما هي إلا لحظات حتى راح يحادثها في شأن جمعيتها ويسألها عن أغراضها ومبادئها وكان لا ينفك بالجمعيات التي ترأسها زوجها ولا يرضى عنها . فلما سمع من ابنته أن هذه الجمعية تهدف إلى النهوض بالإسلام أعرب لها عن رضاه وشجيعها على المضي فيها والسير على مبادئها .

وكان قد كان ميعاد الإفطار فاستأذنت من والدها وانصرفت .

وعلى مائدة الإفطار طاب لإصلاح أن تذهب إلى جمعيتها فقد مضت عدة أيام دون أن تذهب إليها .

ولسكنها ما كادت تبدى لوالدتها تلك الرغبة حتى بدا لها منها الرفض وعدم الموافقة فصتت على مضض .

وما انتهى الإفطار حتى دخلت شرفة حجرتها المطاة على الحديقة وجعلت ترسل الطرف حولها تستمتع بجمال الطبيعة في ذلك الصباح المشرق . وبينما هي كذلك إذ بأحد الخدم يدخل عليها بأسعد نبأ كانت ترجوه ولا تتوقعه .

(إشارة تليفونية من جمعيتها تستدعيها بسرعة وتطلب حضورها لأمر هام) وعلى إثر هذا النبأ استقلت « إصلاح » السيارة في سرور على كره من والدتها التي لم تر بداً من الخضوع لهذا الطلب .

وصلت « إصلاح » جمعيتها عند الأصيل مستفهمة عن سبب استدعائها . فوجدت السيدات مجتمعات يتشاورن فيما بينهن في عمل خيري نافع يحقق بعض أغراض الجمعية ومبادئها .

جلست معهن ، وانتظم عقدهن .

وفي غمار المقترحات ومختلف الآراء — انفردت (فتاتنا الرشيدة)

برأى أعجبت به الزميلات وأخذنه مسرورات .

كان هذا الرأى مشروع تأسيس مدينة يطلق عليها « مدينة السعادة » .
لأيواء بنات الشوارع الساقطات والأولاد المشردين والأيتام — على أن
تجمع الأموال الطائلة التى يحتاج إليها هذا المشروع من السيدات الأعضاء
جميعاً دون أن يعمل أى حفل لجمع المال وبدون أن تجمع تبرعات بخارجة
عن دأرتهم ..

ولما كانت سيدات الجمعية كلهن ممن جابهن الله بالثراء والمال الوفير وكن
يردن أن يدخرنه عند الله لينعمن به فى الدار الباقية ، فقد تمت موافقتهن
بالإجماع فى هذه الجلسة ، ثم أخذت الآراء فى النظم التى ستكون عليها
والغاية المقصودة منها وبقيت « إصلاح » فى دار الجمعية إلى أن رجعت
السيارة إليها .

* * *

قالت « إصلاح » لوالدها تلك الليلة فى حديث بينهما حول مشروع
هذه المدينة رداً على سؤاله :

— نعم يا والدى فقد أذعنت جميع السيدات لرأى وأخذن باقتراحى ،
واتفقت كلمتنا على تأسيس هذه المدينة من مالنا الخاص . وقد رأيت أن
أساهم بقسط وافر فى هذا المشروع الخيري . فإن رغب والدى فى الخير ساهم
فى سبيل الله بإحدى ضياعه القرية من القاهرة كي تقيم عليها المدينة ونبدأ
فى تنفيذ المشروع .

قال الباشا وقد أعجب بالفكرة :

— نعم الرأي ما أشرت به يابنية ، بارك الله فيك وسأشرع في عمل
اللازم مع ناظر تلك الضيقة لنزع ملكيتها وتحويلها إلى الجمعية باسمك .
ولم تمض بضعة أيام . حتى أخطرت الجمعية بهذه المنحة الكبرى وبها
رشحت سيدات الجمعية زميلتهن « إصلاح » للرئاسة عليهن .
ثم انتهالت منهن التبرعات حتى بلغت عشرات الألوف من الجنيهات
وبدئ في تنفيذ المشروع .

ومضى أكثر من أسبوع — فأقامت زينات هائم حفلتها الخيرية التي كانت قد اتفقت مع سامي على إقامتها .

وكانت قد أرسلت دعوة إلى « محسن » فلباها وذهب إلى النادي الذي أقيمت فيه شاكراً سروراً .

« ومحسن » شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين مشبوب العاطفة وسيم الطلعة ، أنيق الملبس موج الشعر ، إلا أنه من النوع الذي تغلب هواه على عقله فانقاد لحياة اللاهو .

واتخذ « محسن » مأدبة حول ساحة المرقص بعد أن اشترك في جميع الملاهي والمبيعات . وأخذ يملأ كأسه وينظر حوله .

وفي تلك اللحظة لاحت منه الفتاة إلى إحدى الفتيات فلم يتمالك نفسه وأبعد الكأس . وأخذ يتطلع إلى جمالها الساحر .

ثم جلس ساهما موزع الفكر خافق القلب ، إذ كانت هذه الفتاة قد رآها مرة قبل هذه في حفلة سابقة . وكان قد بهره جمالها وأضنى فؤاده حبها ، على أنها لم تكن قد شعرت به أو التفقت إليه . وبالرغم من هذا فلم يزل خيالها ماثلاً أمام عينيه .

آه . إنها هي ولو تغير ثوبها واحتجب جمال جسمها تحت ذلك الثوب الشتوي الأنيق . إنها فتاة أحلامه ومنتهى أمانيه .

وفي اتجاه المائدة التي ضمت مالكة له ظل ساهما خافق القلب يمد إليها بصره ولا تمتد إليه عيناها .

وإنه لفي مجلسه ذاك وإذا بشاب أسمر اللون متناسب القسمة لا يقل عنه أناقة يميل عليه في لمظة ويتعانقان في محبة وشوق .

كان هذا الشاب صديقه القديم ورفيق صباه وكان مستشاره السابق في أموره وملهمه في أعماله إذ كان « محسن » ضعيف الإرادة منقاداً لسكل جديد كثير الوقوع في الزلل .

وترجع هذه الصداقة إلى تجاور الأسرتين في بلاد المغرب حينما كان منزل جد محسن لوالدته مجاوراً لمنزل والدته صديقه وكان بين الوالدتين صداقة وود متصل قبل وفاتهما .

ثم فرق بين الشابين السفر للتعليم ، فذهب محسن إلى فرنسا ، وذهب « ممدوح » إلى الجامعة المصرية .

ولم يلبث أن التحق بإحدى الوظائف الحكومية وابتاع منزلاً صغيراً في القاهرة وأقام فيه بمفرده .

عرف « ممدوح » أن صديقه جاء قريباً إلى القاهرة بعد حصوله على شهادة من « جامعة السوربون » بفرنسا ليكون بجانب أملاك والدته التي ورثها عنها فسر سروراً عظيماً .

فرح الصديقان بتلاقيهما وأخذتا يتحادثان وتناسى « محسن » بوجود صديقه الحالة القلقة التي كان عليها قبل حضوره وقدم لصديقه الشراب وأخذ يملأ له الكأس بعد الكأس .

ومرت « زينات هانم » في تلك اللحظة بموائد المدعوين مريحة على غير عادتها .

وفي خطأ وئيدة تقدمت من محسن وخسته بترحيب زائد لا يدري
له سبباً .

وفي هذا الوقت كانت « إصلاح » تجلس على مائدة مع « يسيرة »
وصديقة لها هي الأستاذة « سنية المحامية » وكانت في ثوب السهرة المحتشم
والوجه الطبيعي الخالي من المساحيق آية في الحسن . وكانت تلك الليلة
تخفي شعرها الذهبي بخمار قصير موثى حجب صدرها وعنقها وكانت بهذا
الابتكار مثالا للجمال المحتشم الأنيق .

وأنمت « زينات هانم » دورتها حول الموائد حتى وصلت إلى مائدة
« إصلاح » فاقتربت منها وقالت لها :

— بعد قليل يتبدى جمع التبرعات . وعليك أن تحملى سلة الورد
وتطوفى بها لهذا الغرض .

فوجهت « إصلاح » وقالت فى توسل :
— أرجو ألا تحملينى على ذلك يأماء . فهذا عمل أستنكره ولا أقره
فغضبت والدتها وقالت :

— « إصلاح » . . يجب أن تمتلى ما أقول . ولا أقبل منك أى
اعتراض على ذلك .

وانصرفت إلى مائتها

مضت مدة على تلاقى الصديقين . . شغل « ممدوح » بعدها بكاسه
لاهيأ عما حوله من موسيقى وجمال ، ورجع « محسن » إلى شروده الذى
قطعه عليه حضور صديقه . واستأنف النظر إلى مالكة فؤاده ، وشرده ليه

مرة ثانية وسبح في خياله . ترى من تكون ؟ داعية أم مدعوة ؟ متزوجة أم خالية ؟

ثم التفت إلى صديقه وكان مشغولاً بكأسه وقال :

— ممدوح أيها الأخ الرشيد أصغ إلى

ولم يترك الشاب كأسه وقال دون أن ينظر إليه :

— ماذا ؟ أبك شيء يا محسن العزيز ؟

— قد انتابني عامل نفسي لا أستطيع الآن كتمانك ، إني أحس أن

فراغ قلبي قد شغل وليس لي قدرة على إخفائه .

فلم يعبأ ممدوح بقوله وقال :

— لا عليك يا صديقي فهذه أعراض كثيراً ما كانت تغريك من زمن

ولا تلبث أن تزول . إليك هذه الكأس ترجع بعدها إلى حالتك الطبيعية .

فاستاء محسن من قول صديقه وقال متسائلاً :

— ماهذا الذي تقوله يا ممدوح ؟

— إنه الحب يا محسن . إنه صديقك القديم وحذار أن تقع فيه الآن .

وأغرق في الضحك

فقال محسن :

— دع المزاح يا ممدوح وانظر .

وأشار إلى المائدة المجاورة واستطرد :

— هذه التي تسلمت الورد الآن . ما أبدعها . وما أجملها . لقد

سحرت بها وفنتت بجملها . وإني لأذكر أنني رأيته مرة غير هذه . رأيته

في « الأوبرج » وكان قد دعاني أحد أصدقائي إلى حفل فيه لكنى لست

أعرف من هي ، فهل تعرفها ياممدوح ؟ أرى أنك أعلم مني برواد هذه الحفلات .

وكان « ممدوح » لما يزل مشغولاً بكأسه . فلم يرفع عينيه ، بل أمسك بالكأس وتجرعها جرعة واحدة . وزاد في الضحك ثم ملاً غيرها . وقال مازحاً :

— ترى من تكون « يامحسن » ؟ أليست واحدة من بنات حواء ؟ اشرب . . اشرب .

فتناول « محسن » الكأس من يده وأخذ منها رشقة واحدة لأنه كان لا يريد نسياناً لنفسه وقال :

— أستحلفك بحياتي « ياممدوح » أن تنظر إليها .
فرفع « ممدوح » نظره إليها متكلفاً على أنه ما لبث أن أنعم فيها النظر ، ثم قال في أعجاب :

— من تقصد « يامحسن » ؟

— لقد قربت منا . . وأشار إليها .

— إذا كنت تقصد هذه . فلا يسعني إلا أن أهنتك يا صديقي إذ أرى أنك قد أفلحت هذه المرة ويحق لك أن أراك على ما أنت عليه من الشرود واللدسة .

فقطب « محسن » بعد سرور وقال :

— ألم أقل لك دع المزاح « ياممدوح » الليلة .

— ما قصدت مزاحاً يا صديقي . وما قلت إلا الحق .

فقال « محسن » في لهفة :

— هل عندك ما تروييه لى عنها ما دست تعرفها ؟

— نعم « يا محسن » . ومن ذا الذي لم يعرفها . ويعرف والدتها وإخوتها . إنها الآنسة « إصلاح هانم » ابنة « زينات هانم » صاحبة الدعوة .

— « إصلاح » ؟ . . ياله من اسم جميل .

— ويالها من حسناء عصرية .

ثم أشار إلى إحدى الجالسات وقال :

— وهذه أختها سوزان تلك الجالسة مع خطيبها يختسيان الخمر .

وأخذ بعد ذلك يحدثه عن والدتها ومنزلة أسرتها وما يعلمه عن حب « إصلاح » لحياة اللهو والترف ، « ومحسن » مصغ إليه في شوق واهتمام إذ رأي في وصف صديقه لحبيته صورة لفتاة أحلامه العصرية التي يريد لها شريكة لحياته .

ولم يخطر بباله أنها أتت هذه الحفلة مرغمة من والدتها .

ولم يخطر بباله أنها تقصد من هذا المظهر المحتشم إرضاء الله وخشيته .

بل رأى فتاة العصر والأناقة متجلية في شخصها . كما رأي فيها جمالا وفتنة وحياة .

استمع « محسن » إلى صديقه وهو ينظر إليها والله النفس خافق القلب والحبيبة لاهية عنه . قد حال بينها وبين الاهتمام به وبغيره الخوف من الله وغض البصر .

وما إن انتهى « ممدوح » من حديثه حتى كانت « إصلاح » تحمل سلة الورد وتمر بها على الحاضرين نزولا على أمر والدتها لجمع التبرعات وقد

ارتسم على وجهها الجميل طابع الملائكة وزينة الحياة .
ثم استدارت إلى الموائد الباقية فإذا بها وجهها لوجه أمام « محسن » .
فألقي « محسن » نفسه ينظر إليها مسحوراً مأخوذاً بجمالها ولم
يصدق عينيه .

لم يسمع منها كلمة ولا حظى بنظرة ، غير أنه رأى نفسه بدافع خفي يمد
إليها يداً مرتعشة بورقة من ذات المائدة جنيته ثمناً لوردة من يدها .
وتناول منها الوردة بقلب خافق ثم تمثلت له فيها حبيبته فأودعها قبلة
عاطفية وثبتها في عروة سترته .

ولاحظ ذلك « ممدوح » فقال ضاحكاً :
— ماذا ياسيد « محسن » ؟ أهذا بتأثير الحب أم بدافع الكرم والتبرع .
قال « محسن » في أسى ولوعة :
— لكنها لم تنظر إلى ولم أحظ منها إلا بكلمة شكر عابرة .
فبدت لمعة الدهشة تشرق في عيني « ممدوح » وقال :
— أتطمع منها في أكثر من ذلك يا محسن ؟
— مازلت تسخر يا « ممدوح » وأنا أحوج الناس إلى معونتك .
— يالك من طفل كبير يا صديقي ؟ ماذا عراك ؟ أتتصور أن ابنة
« زينات هانم » يبلغ بها التواضع جداً يحملها على مكلمتك بمجرد تبرعك
بمائة جنيه ثمناً لوردة ؟ ألم تر هذا الجمع يكاد يركع تحت أقدامها دون أن
تلتفت إلى أحد منهم ؟ .

فاقتنع « محسن » بقوله وقال :
— الحق معك « يا ممدوح » فإن هذا الجمال ليسمو بصاحبته أن تبذله

رختها ، وإنه ليعلم بها تيمناً وكبراً أن ينال بسهولة .
ثم هدأت نفسه لهذا الخاطر الذي اهتدي إليه هو وصديقه دون أن
يسرفا الدافع الحقيقي لتلك الفتاة التي أصبحت ترى الله أمامها في كل مكان .
وفي تلك اللحظة ساد الحفل صمت عظيم فقد ارتقت « زينات هانم »
المصصة بجوار الموسيقى لتلقى كلمة الشكر المتبرعين .
فدوى التصفيق وأصغى الجميع إليها .

وما انتهت من إلقاء كلماتها حتى خف إليها « محسن » مع العجبيين ، وكانت
لا تزال في مكانها فأثني على حفلتها شاكراً جهودها ، وفي أثناء ذلك رأى منها
اهتماماً به وابتسامة رقيقة خاصة له وكلاماً عندها موجهاً إليه . فعجب من هذا
وتملكته الدهشة .

ولا تسب عن أثر ذلك في نفسه فقد كاد يطير من الفرح .
وما لبث أن عاد إلى صديقه وهو يسائل نفسه عن سر اهتمام
« زينات هانم » به .

وخيل إليه أنه ربما بانغها ثناء عليه من مالكة له .
فهل عندها مثل ما عنده من الحب ؟ وهل تعرفه وتعرف من أمره مثل
ما يعرف من أمرها ؟

ثم أفضى إلى صديقه بما كان يحول في نفسه لعله يمدد بما يريح
قلبه . فقال :

— إن حبي لهذه الفتاة يا « ممدوح » وانطباق صفاتها العصرية على
من أريدها شريكة لحياتي المستقبل ، يدفعني إلى غاية لم أشعر بها نحو عشرات
الفتيات اللائي أحبتن قبلها إذ أجد فيها المثل الأعلى وضالتي المنشودة .

فقال « محمدوح » في دهشة وبدون تفكير :

— أتريد الزواج من ابنة « زينات هانم » « يا محسن » ؟

— ولم الدهشة يا « محمدوح » ؟ وماذا في ذلك ؟ أنتظن أنى غير جدير بها أو أنها لا تقبلنى زوجا ؟

— ما قصدت ذلك . لكن تشجع وأنت وحظك ، وما فاز بالملذات إلا الجسور وبالسعادة من يتصل « زينات هانم » إنه يمتلك الملذات ويعرف النعيم .

ثم قال :

— هيا يا صديقى . تقدم إليها من الآن طالباً يد ابنتها . فلعلك تنال ما تريد .

فصمت « محسن » لحظة ثم قال :

— حبذا لو أستطيع

— وماذا يمنعك ؟

— لست أجسر على ذلك .

— وهم تخاف ؟ أأست تقول إنها قد حاطتكم الليلة بالرعاية ، وخصتكم بالعناية ؟ . فما عليك إلا انتهاز هذه الفرصة ولا تدعها تفوتك .

فوقع القول في نفس « محسن » موقعا حسنا وما لبث أن قام لتوّه وأصلح من حلتة واطمأن على الوردة التى فى صدره ، وأخذ بيد صديقه وخفا إلى « زينات هانم » كي يقدمه إليها مدعياً أنه يريد شكرها هو أيضاً لعله يجد فى ذلك فرصة مواتية لتحقيق غرضه .

كانت « زينات هانم » قد ذهبت إلى حجرتها الخاصة للاشراف على ما جمع من التبرعات ، وخلت مائدتها منها في الوقت الذي ذهب فيه « محسن وممدوح » إليها .

فلما لم يجداهما دلفا إلى حجرتها ووقفوا بالقرب من بابها ريثما تخرج .
وما أشد دهشتهم عندما رأياها تنظر إليهما باسمه كمن تريد أن تتحدث إليهما .

ثم شجعتهم هذه الابتسامة وتلك النظرات المتحدثة فتقدم إليها « محسن » قائلا :

— أقدم إليك صديقي « ممدوح بك » ليعبر لك عن شكره وتقديره .
فوقفت قبالتهمما وابتسمت قائلة :

— وإني لسعيدة بك وبصديقك يا « محسن بك » .

فبهت « محسن » وقال مستفهماً :

— أتعرفيني ياسيدتي ؟

— لقد عرفتك من ولدي « سامي » أأنت تعرفه ؟

— من بواعث سرورى أنى تعرفت عليه يوما .

فنظرت إليه وقالت بدون أن تفكر .

— لقد كنت عازمة الليلة على إرساله إليك . لاستدعائك كي تحدثني

عن نفسك .

فدهش « ممدوح » وظهر العجب على وجه « محسن » وقال :

— أيهمك أمري ياسيدي ؟

فبدا لما أنها تسرعت بهذا التصريح وحاولت تداركه فقالت موارية :

— إن الكرماء أمثالك يا « محسن بك » لهم عندى المنزلة السامية

والمكانة الملحوظة .

فاستخفه الطرب وقال :

— شكراً ياسيدي . وما أستحق كل هذا .

وسكتت وسكت ، وساد بينهما صمت أحست خلاله فى نفسها رغبة

ملحة تدفعها إلى معرفة أخبار هذا الشاب .

وسرعان ما مدت إليه يدها وأخذت تمشى بجانبه فى جهة بعيدة

عن المدعوين .

رأى « ممدوح » منها ذلك الاهتمام بصديقه فوجد من اللياقة أن يتعد

عنهما فاستأذن وقفل راجعاً إلى المائدة .

وخلا المكان إلا منهما ، ثم سارت به جهة الحديقة وسار بجانبها فى

ضوء القمر ، وكانت تسير بخطوات متمهلة وأخذت تسأله عن نفسه ،

وحياته الشخصية وعائلته .

سمع « محسن » منها تلك الأسئلة فوجد أن الفرصة مواتية يجب عليه

اتهامها ، وألا يدعها تفوته كما وصاه صديقه ، ومن يدري فاعل ذلك

يساعده على الزواج بمالكة ليه فقال :

— بدأت حياتى بين والدى وجدى (الشريف المرجانى) شيخ

الإسلام السابق فى بلاد المغرب . إذا كان والدى « على بك المستكاوى »

قد طلق والدى بعد ولادتى بشهر واحد . فأخذتنى مع مربيتى (عسرانه)

وسافرت عند والدها تاركة أملاكها بالقاهرة ثم ماتت وأنا صغير .
فطلعت إليه في قبري كمن امتدت إلى ضالتها وكأتما اسم والده
واسم مربيته زادا في اهتمامها لسماع بقية الحديث فقالت مستفهمة زيادة في
التأكد :

— ألم تر والدك في حياتك !
— كلا ياسيدي . . ولم أدر عنه شيئا ونقول مربيتي أنه مات ، وترك
فتاة من سيدة تزوجها بعد والدي .

وعند ذلك تأكدت من صلة القرابة التي بينهما .
ولكنها ما كادت تم بإطلاعه على تلك القرابة حتى بدا لها شبح سر
دفين مع والده من خلال اسم مربيته فعادت تسأله :

— وهل مربيتك على قيد الحياة ؟
— نعم : وهي لم تزل في خدمتنا حتى الآن .
فلم تكذ تسمع ذلك حتى تغير وجهها ، وداخلها شعور أزمعت معه
على إخفاء تلك الصلة عنه وعن أولادها ثم قالت متسائلة :
— ومتى جئت القاهرة ؟

— منذ بضعة شهور بعد أن نلت شهادة من « السوربون » وكان
جدي قد عارض كثيراً في سفرى . وأخيراً تغلبت أنا وخالق عليه وجاء
معنا ، وقد عينت مديراً لإحدى الشركات الكبرى بمرتب كبير . .
وإلى هنا رأت أن تغير مجري الحديث بعيداً عن أسرته حتى لا يرتاب
في أقوالها فقالت :

— أتعجب القاهرة « يا حسن بك » ؟

— ما أحبتها كحي لها الليلة .

وأعجبها القول فابتسمت وقالت :

— لهلك وجدت فيها الليلة هوي يا « حسن بك » ؟

فانبسطت أسارير وجهه وتذكر في الحال قول صديقه « فاز بالذات

الفسور » فاجترأ وقال :

— وإن هواي لعند سيدتي .

فأدهشها القول فقالت في عجب مستفهمة :

— عندي أنا يا « محسن بك » ؟

— نعم ياسيدتي .

ونظر إليها ونظرت إليه ، وكان يشع من عينيها بريق استفهام ممزوج

بعطف نفذ إلى قلبه فشجعه على استئناف الحديث فقال في جرأة :

— وإن هواي لفى الزواج من الآنسة « إصلاح هانم » ، فهل تقبلني

سيدتي زوجا لابنتها ؟

وصمت وانتظر الرد ، وكان قلبه يخفق ، وأخذ ينظر إليها

في اضطراب .

كانت « زينات هانم » إلى هذه اللحظة تجدد في نفسها رغبة تدفعها

إلى معرفة أخبار هذا الشاب وصلة قرابة توحى إليها بذلك دون أن

تفكر فيما طلبه منها الآن أو يخطر لها على بال . فلما ألقى عليها هذا الطلب

حضرتها خواطر شتى وذكريات ماضية .. وما لبثت أن قالت :

— يا « محسن بك » قبل الإجابة عن سؤالك أن أتدبر الأمر وأفكر فيه .

إلا أن « محسن » تشجع وألح وأكثر ؛ واستعطف وتعلق ، وكانت « زينات هانم » ترى ذلك وتعجب من تلك المصادفات التي أيقظت السر الدفين ومن المقادير التي تأبى إلا أن تربط الماضي بالحاضر . وأخيراً وأمام إلحاحه ورغبته الصادقة في طلبه ، لم تجد مندوحة عن موافقته على ما أراد بعد أن راقبها صفاته ومؤهلاته .

ولما كانت تعلم أن ابنتها لا ترغب في الزواج من أمثال هذا الشاب فقد طلبت منه ألا يكلم « إصلاح » هذه الليلة حتى تمهد له ذلك . وحدثت له موعداً للحضور عندهم لمقابلة (الباشا) .

فالتهمج « محسن » وغمره السرور . ووافق على ما أرادت . ثم قدم إليها بطاقته شاكراً . ورجع إلى صديقه وهو لا يكاد يصدق ما وصل إليه ، وأخذ يقص عليه ما تم بينهما في فرح وسعادة .

فسر « ممدوح » وهنأه ثم أشار عليه بسرعة الخروج فامثل لأمره . واستمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل .

وقبل أن تأوي « إصلاح » إلى فراشها أخذت تستعرض كعاداتها مارأته في تلك الحفلة من موبقات ، وتسترجع ما سمعته من منكرات فاشمأز قلبها وضاق صدرها ، وفي الحال تذكرت الحكمة الملهمة :

« من لم يستطع أن يزيل المنكر فليزل عنه »

فعاهدت نفسها على عدم غشيان جميع الحفلات التي تقام باسم الخير ، وتحوى ضروب المنكر .

ثم أخذت تفكر في حياتها الجديدة بعد أن نالت شرف الرياسة في جمعيتها فعزمت على أن تكون قدوة صالحة لمن معها ، وأن تجاهد في سبيل الله وتدعو إليه ما استطاعت .

غير أنها رأت أن ذلك العزم لا يتحقق إلا إذا زادت عنايتها بهم درس الدين الذي تأخذه من « أستاذها » مع إخوتها كل أسبوع ، والعمل بما تسمعه .

وهكذا رسمت « إصلاح » لنفسها في تلك الليلة نوعاً من الحياة خالياً من مفسد الدنيا ، موصلاً إلى نعيم الآخرة .

فهل تريد أن ترى درساً من هذه الدروس ومقدار تأثيرها به بعد ذلك العزم ؟

إذاً فهي نستمع لما جرى في درس اليوم .

دخلت «إسراح» الحجرة المخصصة للدروس قبل الميعاد بمدة طويلة وأخذت تراجع دروسها الماضية .

وبعد قليل أقبل أخوها «حسين» وجلس بالقرب منها . واشترك معها في الاستذكار .

وحسين شاب في الرابعة والعشرين ، أتم تعليمه الجامعي ثم التحق بإحدى الوظائف الحكومية الممتازة . وقد كان منقاداً لحياة اللهو كوالدته وإخوته . لكنه ما كاد يستمع إلى الدروس الدينية حتى تغلب عقله على هواه ، وأخذ يجتهد في معرفة أوامر الله والابتعاد بنفسه عن المعاصي . ومضت فترة وهما يتذكran ، ثم بدأ حسين الحديث مع أخته قائلاً :
— سمعت أن الأسرة ستذهب الليلة إلى إحدى دور الخيالة فهل

ستذهبن معها ؟

فكرت الكتاب من يدها وقالت :

— نعم .. وهل ستذهب أنت ؟

— كلا وسأعتذر لوالدتي عن الذهاب الليلة .

— ولماذا ؟ أأنت على موعد ؟

— لا .. ولكنني أصبحت أستنكر وأشمئز مما أراه في هذه الدور

من الصور الخالصة . والمناظر المخزية التي تحتوي عليها معظم القصص المعروضة بها .

فصمت هنيهة ثم قالت :

— الحق معك .. وقد كان بيني وبين والدتي صباح اليوم حديث

حول هذا الموضوع ، غير أنى علمت أخيراً أن رواية اليوم من الروايات الأدبية التى تبحث على الفضيلة ، وتدعو إلى الخير .

وإلى هنا انقطع الحديث بينهما وتوقفا عن الكلام . فقد سمعا دقات حذاء ونعال تقترب من الحجرة . أدركت « إصلاح » من الدقات أن بين القادمين والدتها ، ولا بد أنها آتية لتحول بينها وبين الاستذكار . وإلا فما الداعى لحيئها .

لقد صدق حس « إصلاح » ودخلت الوالدة ومعها « سامى وسوازن » وعند دخولها نظرت إليهما فى غضب ثم قالت مخاطبة « إصلاح » : — ألم أطلب منك هذا الصباح إلغاء درس اليوم لأننا سنذهب جميعاً إلى « السينما » فى ذلك الميعاد فلماذا تخالفينى ؟ فقالت الفتاة فى هدوء :

— حقاً يا أماء . ما كان ينبغى ذلك . ولكنى رأيت أن نجتمع بين هذا وذاك فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعنا وأخذنا بكل منهما . لهذا أرجوا ألا تحرمينا من درس اليوم . وسأجتهد أن نخرج فى الميعاد الذى ترغيبه .

فأعجب « حسين » بهذا القول وقال :

— قول حق . ومنطق معقول . وإنى أعاهدك يا والدتى . على أن تنهى الدرس فى ذلك الميعاد .

وبعد أخذ ورد وافقت الوالدة على كره من « سوازن وسامى » .

« وسامى » ولو أنه يكبر أخاه بعامين إلا أنه كان كغيره من الشبان

الذين يعتمدون على ثراء آبائهم وجاههم ، فلم يتم تعليمه ولم يعبأ بوظيفة

واستمر هو وتوأمة « سوزان » على نهج والدتهما وطريقها في الحياة .
ومضت مدة وجاء « الأستاذ » عند الأصيل .
أذكره ؟

إنه الشيخ الذي طالما سمعت الكثير من القذف في حقه من
« سوزان » وشعرت بشدة كره « زينات هاشم » له .
شيخ ورع ، وعالم تقى ، أثناه الله الحكمة ونور الإيمان وقوة البصيرة
أسمر اللون ، كبيرة السن ، له لحية بيضاء وعليه هبة ووقار ، جمع
في حياته بين سماء السباحة والشدة ؛ قوى العزيمة في طاعة الله — لا يخشى
في الحق لومة لائم ، مخلص لله ، إذا صمت رطب لسانه بذكره وتسبيحه
وحمده ، وإذا تحدث إليك في الدين أخذ بلبك حديثه ، ورغبت في العمل
لآخره وترك ملاذ الدنيا لذلك تري تأثيره قوياً في معظم من يستمع إليه .
وعندما دخل الحجرة جلس أمام مكتبه المخصص له ، وجلس الإخوة
على المقاعد الوثيرة المرصوفة فيها ، ومرت لحظات ثم بدأ في الدرس وكان
تفسيراً لمعنى الآيتين الكريمتين :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم
إن الله خير بما يصنعون) .

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن
زيتهن إلا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن
زيتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن
أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت
أيمنهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا

على عورات النساء . ولا يضرين بأرجلهم ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا
إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وخلال تفسيره انطلق يكشف لهم عما بينه سبحانه من عقاب المخالفين
لأوامره والمخالفات . وما يلحق السافرات المستهزئات بلبس الحمار من
العذاب بأساوبه الأخاذ . وبما يناسب مرمى الآيتين الكريمتين من
الأحاديث والآيات .

وفي أثناء ذلك صاحت «سوزان» متحدية :

— أيها الأستاذ... إن هذا الحمار لا يتمشى مع العصر الحاضر . ومدنية
القرن العشرين . وما دمننا نعيش في هذا العصر فلا مندوحة لنا من
مجاراة أهله .

فصمت الأستاذ قليلاً ثم قال :

— هذا غير صحيح . لكن قبل أن أرشدك إلى الصواب . أود أن
أوجه إليك بعض أسئلة أرى ضرورة الإجابة عليها .
فأومأت موافقة . . فقال :

— هل جاء دين بعد الإسلام ؟

— لا

— وهل جاء نبي بكتاب من عند الله غير القرآن ؟

فلما أجابت بالنفي قال :

— إن أوامر القرآن . وسان الإسلام يابنتي نزلت لكل زمان ومكان
ومما لا شك فيه . أن الله سبحانه عندما أنزل كتابه . كان في علمه أن الزمان
سيتغير . وسيأتي هذا العصر الذي زعم قومه التمدن والتنور . وعبدوا

الأناقة والتجمل . وانتشر فيه الفساد . فأوحى إلى نبيه أن يعلم أمته . كيف يعيش من أدرك مثل هذا الزمن . . فقال صلى الله عليه وسلم :
— (من تمسك بسنتي يوم فساد أمتي فله أجر مائة شهيد)

لهذا فليس لمن يعيش في هذا الجيل ، عذر وليس ثمة فرق بينه وبين من عاش في عصر قبله . إذ الرجال في جميع العصور هم رجال . والنساء هن نساء . والله واحد ولا مبدل لكلماته .

فقال حسين مستنهما

— معنى هذا يا « أستاذي » أن الدين أباحوا خروج المرأة سافرة كانوا مخطئين في تلك الإباحة .

— كل الخطأ يا ولدي . وهم مسئولون عنه أمام الله . خصوصاً إباحة ذلك العرى الفاضح . والسفور الخارج عن الحد المطلوب شرعاً . لأن جميع بدن المرأة عورة يجب سترها عن الأجانب . وقد يجوز لها كشف الوجه واليدين بشرط خلوها من الزينة والتجمل — وفرض مقدس خروجها محتشمة .

فما كادت إصلاح تسمع ذلك حتى بدا التأثر والاقتناع على وجهها . وفي ثقة وعزم — تقدمت إلى الأستاذ وعاهدته على ترك التبرج والسفور الخارج عن الحد المشروع .

فنظرت إليها سوزان في ضيق ودهشة — ثم اتجهت إلى الأستاذ وقالت ساخرة :

— لكن هذا الاحتشام يعرضنا لسخرية السواد الأعظم من الناس .

فخدجها الأستاذ بنظرة ذات مغزى ثم قال متسائلاً :

— أى ناس تعنين ؟

فأجابت فى تهكم :

— أعنى أهل التمدن والرقى منا ومن الأمم الراقية التى أباحت ذلك .

فتجاوز الأستاذ عن سخرها وتهكمها وقال فى هدوء :

— يجب يا بنى ألا تستقضى أن أمة راقية رقياً حقيقياً تقر المرأة على

هذا العرى الفاضح ؟ والسفور الخارج عن الحد .

فلم تقتنع بما سمعته وقالت متحدية :

— ولماذا ؟ . . أليست هذه المدنية الحديثة قد أتت إلينا من أرقى

البلاد الأوربية ؟

فتصدى لها الأستاذ — وفى صراخته المعهودة انفجر قائلاً :

— كلا . . . بل من أخط أهل هذه البلاد وأجهلهم

وكان يعنى الطبقة التى لا هم لها إلا نشر البدع الفاسدة والخلاعة ، دون

أن يكون للعقل سلطان على هواهم . . . ثم استطرد قائلاً :

— لأن رقى الأمم نتيجة لتنام عقل أفرادها واتباع أوامر دينها .

وعرى المرأة لا يقبله عقل . ولا يأمر به دين . . ولو بحثنا فى الأديان

السموية لما وجدنا ديناً يبيح للمرأة أن تخرج على هذه الصورة .

عارية الجسم . والرأس . بدليل أن من تقصدونهن . لم يزل منهن

محافظات على حجابهن عند دخولهن المعابد . ومنهن الراهبات

المتحجبات . . ثم مالنا يا بنى ولغيرنا من الأديان . وقد أمر الله النساء

المسلمات بالحجاب فقال تعالى .

« يا أيها النبى قل لأزواجك . وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن

من جلابيبهن »

وهذا أمر صريح للمرأة بالاحتشام. وعدم إباحة خروجها عارية .
وصيت لحظة — وكأنا عز عليه أن يتركها في جهلها فعاد إلى
الوعظ والإرشاد قائلاً :

— فلو أنك اهتديت لطاعة الله يا بنية لعرفت أن هذه الدنيا ليست
دار عبث وتقليد أعمال منكورة ؛ إنما هي دار اختبار لطاعة الله ؛ واجتهاد
في تنفيذ أوامره التي أنزلت في كتابه الكريم . وقنطرة توصل إلى النعيم
المقيم أو العذاب الأليم .

أطيعي الله يا بنتي طاعة خالصة تجدى أنك مخطئة في قولك هذا
وابتعدى عن الشهوات . وتقليد أتباع الشيطان . تتكشف لك الحقيقة
فتحتقري كل من تخالف أوامر الله ؛ وتقول (بأن الحمار لا يتمشى مع
العصر الحاضر ومدنية القرن العشرين) .

وما سمعت هذا « سوزان » حتى ظنت أنه يعنى تحقيرها فتمتعت .
ساخرة من قوله . وكانت بالقرب من سامي . فبهمس في أذنها أن تقصر
الحديث معه فقد قرب ميعاد خروجهم .

وقبل الغروب حضرت يسرية لتذهب مع الأسرة إلى (دارالحياة) ..
فلما علمت أن الإخوة مع أستاذهم في حجرة الدرس . أرادت أن تشارك
معهم لترى ذلك الأستاذ الذي سمعت عنه كثيراً دون أن تراه .
وعند دخولها - نظر الأستاذ إلى ساعته - ثم بدأ في اختبار تلاميذه
المعتاد نهاية كل درس .

فأظهرت « إصلاح » من الخبرة بالدين ما أدهش يسرية وأعجبها .
وظهر على حسين من النبوغ والفطنة - ما جعل « أستاذه » يثنى عليه
ويفخر به .

وما انتهى الاختبار حتى قدم إلى كل من إصلاح وحسين مصحفاً
ثميناً مذهب الأطراف مع نسخة من الأحاديث الصحيحة وقال :
— أقدم إليكما هذين الكتابين مكافأة لكما على التمسك
بأهداب الدين .

ثم أخذ يبين لتلاميذه أهميتهما وفائدتهما فقال وهو يشير إليهما :
— هذان يا أولادى هما نور الله في أرضه . ومصدر سعادة الإنسان
في دنياه وآخرته . . والصلة بينه وبين ربه . . تركهما النبي ﷺ لأُمَّته
وأوصاها العمل بهما فقال .

(تركت فيكم أمرين ما إن تمسكن بهما لن تضلوا كتاب الله وسنن) .
واستطرد قائلاً :

— إنهما يا أبنائي باقيان مابقي الزمان ، صالحان لكل عصر خصوصاً
هذا العصر الذي ضل فيه كثير من المسلمين للغفلة عنهما ، وعدم العمل
بكل ما فيهما .

ثم راجع بين لتلاميذه قوائد القرآن الكريم فقال :

— وكتاب الله يا أولادى فيه نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ، ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو جبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه هدى إلى الصراط المستقيم .
وما وصل إلى هذا الحد حتى نظر سامى فى ساعته ثم مال على (حسين) يذكره بوعده لأمه .

ولاحظ ذلك الأستاذ فخم درسه وخرج .
ولو كنت حاضراً هذا الدرس لأمكنك الحكم على مقدار تأثيره فى نفس كل من الإخوة الأربعة . — فما كان أشبههم بأرض مختلفة التربة تسقى بماء واحد . ما كادت الحصة منها ترتوى حتى (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أما الصخرية ؛ فإنها أجذبت ولم ير للماء فيها أثر . ولم تنتج نفعا .

أما يسرية — فإنها ما كادت تستمع إلى ما كان خافياً عليها من فوائد الكتاب والسنة . حتى هب عقلها مستيقظاً — وراح ينبهها إلى وجوب الانتفاع بهذين الكتابين المقدسين .

وسرعان ما شملتها موجة من الخشوع والإيمان ؛ وداخلها شعور أحست منه بنظماً يدفعها إلى الارتواء من منهلها العذب .
وما هى إلا لحظات حتى تقدمت من إصلاح .
وفى رغبة صادقة عاهدتها على دراسة أوامر الدين معها .

وكان قد حان موعد الذهاب إلى دار الحيلة. فأرسلت زينات هانم في طلب أولادها .

وكانت سوزان عقب الدرس قد استكملت زيتها. فأسرعت إليها قبل أخوتها .

وفي الحديقة الخارجية وقفت سوزان مع والدتها تتحدث عن إصلاح وما سمعته منها في درس اليوم .

فعلت الدهشة وجه أمها وغضبت من تصرفات ابنتها .

وفي تلك اللحظة أقبلت إصلاح « مع يسيرة مرتدية أكثر أثوابها احتشاماً وأقلها زينة ... ثوب من الحرير المنقوش . له أكمام طويلة ومصدر مطلق أكسبها رونقا وأناقة . وكان على رأسها منديل كبير مرقش « إيشارب » حجب رأسها وعنقها . كما لبست جورباً طويلاً . ولم تضع على وجهها شيئاً من المساحيق . فظهر محياها الطبيعي الجميل ، وأشرق خداهما الورديان ، وشفتاهما القرمزيتان الطبعيتان . وكانت على صورة رائعة تجمع بين الأناقة والحشمة والمظهر الداعى إلى الاحترام .

لكن هذا المظهر لم يسر والدتها. ولم يزد لها إلا ضيقاً وسخطاً .

ومن خلال منظارها الأسود صاحت في وجه ابنتها قائلة :

— أمتحجة يا إصلاح ؟ . يا لسخرية الناس !

فقالت « إصلاح » في عزم وإصرار .

— لست أخشى سخرية أحد يا أماء بعد الذي سمعته في درس اليوم :

ما دام في ذلك طاعة لله ولرسوله .

وكان شوقى قد أقبل بسيارته فالتقط الحديث وخرج الجميع . إلى دار الحيلة .

(واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) .

هذه هي أواخر الله للنساء المسلمات .

وذلك ما اعتادت أن تفعله « إصلاح » بعد أن أهدي إليها أستاذها كتاب الله الحكيم وعرفها قدره وشأنه .

فكانت تتلو بعض سورة في حجرتها كل صباح طاعة لهذا الأمر الكريم . ثم تقرأ في كتب الحديث والأحكام .

وكثيراً ما كان لها جلسات مع يسرية كلما حضرت عندها تنفيذاً للعهد الذي قطعته معها .

ومر شهر — ومع مسيره الوداع أخذ قلب (إصلاح) يستنير بنور الدين — ويزداد ميلاً إلى الاستزادة منه .

وفي نهاية هذا الشهر جاءت يسرية كعادتها وكانت تلبس ثوباً رمادى اللون — أهم ما يلفت نظرك إليه ذلك المظهر المحتشم الذي خلعه عليها ولم تضع على وجهها شيئاً من المساحيق ومع ذلك كانت تبدو أجمل من قبل بكثير .

وما هي إلا لحظات حتى كانت هي وإصلاح في شرفة القصر المظلة على الحديقة تجاه النيل .

وعلى الأريكة الوثيرة التي تتوسط الشرفة جلست الفتاتان أمام منضدة صغيرة عليها عدة مجلدات من الكتب الدينية — جعلت إصلاح تنتقى منها ما ستقرآنه الآن .

ومرت فترة على حضور يسرية أدت فيها صلاة العصر بخشوع واطمئنان . وما فرغت حتى أخذت « إصلاح » تتلو معها بعض آيات من القرآن

الكريم والأحاديث الصحيحة بتدبر وفهم . ثم راحتا تتحدثان فيما فهما
في هدوء وانسراح .

وكان من عادة إصلاح أن تسالك مع صديقتها في دراسة الدين مسلكه
السهل الذي أمر به صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف .
(الدين يسر فأوغل فيه برفق) .

فكانتا لا تأخذان منه إلا بقدر ما يطيقه عقليهما المستنير ؛ ويتحملاه
قلبيهما التقي الرقيق .

وكانت في كل ذلك لاتعدى حدود تلك الآية الكريمة .

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)
لهذا ما كادت ترى الشمس قد غربت واحتجبت وراء الشفق . حتى تركت
هى وصديقتها القراءة . واضطجعت كل منهما على أريكة بعد أن أدتا
صلاة المغرب ؛ وراحتا تتساوران بأحاديث طريفة - عن طيش الماضي
وأمل المستقبل - في ضحك وسرور .

وهكذا كانت حياتهما .. دنيا ودين .. فيالها من سعادة

ومرت بجلستهما فترة طويلة .

وفيما هما تتحدثان إذ « بسوزان » تدخل عليهما ثم تضغط على زر
الكهرباء فيسطع نور الثريا وتضىء الشرفة ، فتبدو أمامهما بملابس
الخروج السافرة وفي أتم زينة ، ثم تجلس أمامهما على أحد المقاعد وتبدأ
الحديث مع « يسرية » أثناء جلوسها :

— مساء سعيد يا « يسرية » .

— مساء سعيد يا أختاه ... أخرجة أنت أم آتية من الخارج ؟

— لقد أتيت الآن — وما أن علمت بوجودك هنا حتى أسرع إليك قبل أن أخلع ملابسى . لأننى أصبحت لا أراك إلا مع إصلاح أوفى صومعتها وفى نبرة ساخرة استطردت قائلة .

— فتعالى حدثينى عن الدين الذى عرفته منها . . . لكن فى الصلاة . . . كم ركعة صليتما اليوم ؟ ومن منكما الإمام ومن المأموم ؟ وجعلت تنهك عليهما وتسخر بصلاتيهما . فلم تطق يسرية تهكمها وأسرعت قائلة :

— كفى . . كفى استهزاء وسخرية . . . أتهزئين بأوامر الله وبالصلاة التى هى فريضة عليك وعلى كل مسلم ومسلمة .

فابتسمت « سوزان » وقالت فى شبه اعتذار .
— لا تظنى ذلك يا « يسرية » . فأنا لا أهزأ إلا من المصلين فقط . . لأننى أشاهد الكثير منهم ، يسرقون ويكذبون ولا يوفون بعهدهم ويأتون فى نواديهم المنكر ومع ذلك يركعون ويسجدون .

فارتسمت الدهشة على وجه إصلاح ، ثم قالت :
— إنك لخطئة ياسوزى فى اعتقادك هذا . فما مثل هؤلاء بمصلين وإن كانوا يركعون ويسجدون ، لأن « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » .

فقالت وكأنها تسخر .

— عالمة . . وفيلسوفة .

فربت « يسرية » بيدها الرقيقة على وجه إصلاح المشرق . وقالت مدافعة :
— بل درة نادرة فى هذا العصر ولو كان لى أخت مثله لما بقيت

مثلك إلى الآن . ولا تهذبت بها نبراسي في الظلام . . عفو يا سوزي ،
ما قصدت بذلك إلا إرشادك إلى الصلاة وهدايتك .
فقهرت سوزان ضاحكة وقالت :

— هدايتي ؟ يالك من ساذجة يا « يسرية » . أنتظين أن الصلاة
هي كل شيء ؟ . .

إنتي أضيع معظم أوقاتي في أعمال كثيرة غيرها . ولقد عرف الناس
كم أعقد على جمعيات البر ، والإحسان . وكم أساهم في خدمة الإنسانية
والتهوض بالبلاد ؛ ولولاي ما نجحت جماعة (المجاهدات في سبيل الوطن) .
فقالت « يسرية »

— ليس لي أن أحكم على مقدار ما ستنالين من الثواب على تلك
الأعمال . فهذا من علم الله وحده ، ولكن الذي علمته من الدين هو
(أن الله لا يقبل عملاً من تارك الصلاة) .

وقد كنت أقرأ اليوم مع إصلاح في أحد كتب الحديث . عن نفس
هذا الموضوع . فعلمت أن الصلاة لابد أن تؤدي في وقتها قبل أي عمل ،
ولا عذر لتاركها . من سن البلوغ . حتى تخرج الروح من الحلقوم ؛ فمن
الخير إذن أن نبدأ بالصلاة . ولا تؤخرها عن أوقاتها .

وفي تلك اللحظة سطع القمر . فقد كانت الليلة من الليالي التي يظهر
فيها القمر مبكراً . فلاح في الأفق قرصاً قد كمل تكوينه . وأثار الكون
بضوئه الساحر . فأطنأت « إصلاح » نور الشرفة واشتعل الحديث
ووقفت الفتيات على حافتها وأخذن ينظرن إلى ماء النيل وقد أضيء سطحه
وهب نسيمه . وأخذ يداعب ثيابهن ؛ وفاح الهواء العليل معطراً برائحة

زهور الحديقة ، منفلح ذلك الابداع على إصلاح « ويسرية » وجدانا شعريا
اهتزله قلباها . ومالك مشاعرهما - فراحنا تتأملان في صنع الله . وجمال خلقه
وبديع صنعه - على حين وقعت « سوزان » تضحك منهما سخرية ومزاحاً .
وجلجلت في سكون الليل دقائق ساعة البهو القريبة من الشرفة
فانتفضت يسرية كمن تذكرت أمراً .

وكانت والدتها قد اتفقت معها على أن تحضر لزيارة زينات هانم - فلما لبثت
أن قالت :

— لقد أبطأت في العودة .. وأظن أن والدتي قد طرأ عليها ما منعها
من الحضور الليلة؛ لهذا يجب ألا أمكث أكثر من ذلك .
وما إن سمعت « سوزان » ذلك حتى أتت بحركة كأنما تذكرت
شيئاً وقالت :

— أرجو المذرة يا « يسرية » . فقد أنساني الحديث معكما والضحك
منكما أن أخبرك بأن والدتك هنا .

فبدت الدهشة على يسرية وقالت :

— ولماذا لم ترسل في طلبي ؟

فنظرت إليها سوزان ، ضاحكة كمن تحاول إخفاء أمر عنها .
ثم قالت :

— لقد كانت تريد ذلك . غير أن أخي (حسين) آثر تركك قليلاً .
فزاد اندهاشها وقالت :

— عجبا ! ! ولماذا ؟ وهل هناك سر ؟

فتبسمت سوزان ضاحكة - ثم بدا عليها ما كانت تحاول أن تخفيه وقالت :

— ربما تكونين بعد قليل خطيبته :

ولم تكن يسرية تتوقع ذلك . فتورد وجهها ولم تتكلم .
أما (إصلاح) . فلم يكن الوقف مفاجئاً بالنسبة إليها . فقد كانت تتوقع ذلك وترجوه . لهذا صاحت في بشر وسرور :

— أهنئك يا يسرية . أهنئك يا أختاه بهذه الخطبة السعيدة .
وأهنئ نفسي سروراً برؤية أخي يظفر بمثلك (خير متاع الدنيا المرأة الصالحة) .

بعد ذلك تحدثت (سوزان) فأخبرتتهما بكل ما سمعته من أخيها في شأن سفره إلى والده في ضيعته وحصوله على موافقته .

ولم تمض فترة وجيزة حتى جاء (رئيس الخدم) يستدعى (يسرية وإصلاح) .

وسرعان ما انتشر النبأ . وأعلنت الخطبة . وفي نفس الليلة رأت (زينات هانم) أن تعلن على الحاضرين نبأ خطبة (محسن) (لإصلاح) التي تمت بينها وبينه يوم حفلة النادي ، فراحت تصف لهم ذلك الخطيب بما يرفعه في نظر من لا يهمهم إلا التمتع بنعيم الدنيا وملاذها . وتصوره بما يحقق له قلب كل فتاة تسمع بشريك حياتها المستقبلية .

فما أن طرقت أسماع الحاضرين هذه الصفات ؛ حتى غمرهم الفرح وشملهم السرور .

ثم مالت (عنايات هانم) والدة يسرية — على زينات هانم مستفهمة عن أسرة هذا الشاب في لهفة واهتمام .

ولعلها ظنته أختاً لابنتها من والدها ؛ أو قريباً لها لتشابه لقبهما .

لكن سرعان ما بددت زينات هانم ظنوتها ؛ وغيرت أفكارها
وأخفت الحقيقة عنها .

أما إصلاح - فإنها ما كادت تسمع من والدتها بصفات خطيئها وأخلاقه
حتى أحست بانهايار أمانها ، وبتهدم آمالها ؛ ولم تفرح بثرائه وجماله ؛ بل
حزنت وتألمت . وبخاصة عند ما علمت أن أمها قد ارتبطت معه . وتم
الاتفاق دون أن تستشيرها .

فلما رأى الجميع ما ألم بها . حاولوا إقناعها بأن (محسنا) هذا خير زوج
بالنسبة لشبان هذا العصر . وأن كل الشبان يقلعون عن عاداتهم ، ويفيرون
من طبائعهم بعد الزواج . أما قبله - فإنهم يمرحون ويرتعون في ملذاتهم
وأهوائهم .

عند ذلك لزمّت الصمت . ورأت من الخير إظهار الاستسلام كي تدخل
السرور على أخيها وصديقتها في مناسبتهم السعيدة ثم راحت تشارك الأسرة
الاحتفال بتلك الخطبة .

في هذه الليلة رأت (زينات هانم) أن تحتفل بخطبة ابنها
احتفالاً عائلياً .

فما انتهت الأسرة من تناول العشاء حتى اجتمعت بحجرة الموسيقى .
وهناك لعبت أنامل (إصلاح) الرقيقة على العزف ؛ وتحركت أوتار
العود والسكان من (سامى وحسين) وغنت (سوزان) بعض أغنيات
بصوتها الرخيم - ثم راح الجميع يرقصون على نغمات (الحاكى) وامتد السمر
بالأسرة إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولو كنت حاضراً (إصلاح) وهى تعزف ألحانها لحناً بعد لحن

أو شاهدها وهي تراقص (يسرية) لأيقنت أنها تبالغ في إخفاء ما بها
لتدخل السرور على الخطيبين .

ثم انتهت الحفلة؛ وهجعت الأسرة وقد شغل السرور أفرادها بما تستجلبه
أفراح الزواج من مناسبات اللهو والطرب إلا قلباً واحداً لم يهزه الفرح
ولم يحمل إلا أملاً خائباً . وهما ثقيلان . ذلك هو قلب (إصلاح) . فقد ظل
مشغولاً بصفات ذلك الخطيب وأخلاقه .

ويقيناً لو أن هذا الخطيب صادف (إصلاحاً قبل الآن بعام
أو أكثر لاهتز له قلبها ولوجدت فيه رجل أحلامها والأمل المنشود .
أما بعد أن أصبحت فتاة تقية متفهمة بما تعلمته من أستاذها . وبما درسته
من مكتبة أبيها وما فيها من كتب الدين - فإنها نفرت من هذا الشاب
المتفرد . ولم تسر بهذا الزواج . وباتت ساهرة تفكر فيما سوف يصيبها
معه بسبب اختلاف الأهواء . والآراء . ثم راح خيالها ينقل إليها عنه
صوراً مختلفة - عكرت عليها ليلتها ... رأته على هيئة زوج سكير يدخل
بيته ثملاً يترنح . . ثم رأته يجلس على مائدة الميسر كما سبق له ذلك مع
أخيها سامي وقد خسر ماله وتهدم بيته - وظل خيالها يتنقل بها من سيء إلى
أسوأ . حتى جمعت من تلك الصور هيئة رجل فاسق . مستهتر . وشملتها
كتابة مظامة .

وما كان أقسى هذه الأفكار عليها تلك الليلة . لولا أن الله الرحيم
تداركها برحمته . أو أن نفسها الطمئنة انقادت إلى عقلها الراجح الذي
أوعز إليها بأن الزواج من بواعث القدر (وما قدر يكون) وبأنه ربما
يمكنها إصلاحه فتعال عظيم الثواب في الآخرة ؛ وتسعد معه في الدنيا .

فما أصبح الصبح حتى كانت قد امثلت مطمئنة إلى قضاء الله ؛ ورضيت بما قسم لها . وكتب عليها . واعتقدت بأن الله يختبر إيمانها بهذا الزواج الذي لا يرضيها . فلتجيز أول امتحان مكملًا بالنجاح .

وهكذا استحوذت على نفسها قوة الإيمان الحق ؛ تلك القوة التي لا توجد إلا فيمن هيا لها الدين من جلاء الحكمة ؛ وبعد الرأي ؛ إلى ذكاء القلب واطمئنان النفس . ما يدل على رجاحة العقل وتمامه .

ومن الغريب أن والدتها وأختها - كانتا تعتقدان أن هذا الإيمان جنون وأن تقواها وتدينها مرض . وكاتتا تخشيان عليها من ذلك . وتتمنيان لو رجعت سيرتها الأولى ...

ولهذا كان سرور « زينات هانم » بذلك الشاب العصري يفوق الوصف - لالشيء إلا لأنها رأت فيه الزوج الذي يرد إلى ابنتها التمتع بملاذ الدنيا ويشفيها من جنونها .

والآن دعنا تترك تلك الأسرة قليلا لنعود إلى « محسن » فلعلك في شوق إلى ما كان منه بعد الحفلة التي خطب فيها « إصلاح » من والدتها

بات (محسن) بعد رجوعه من الحفلة يعلم بالسعادة التي نالها؛ فقد كان يتمنى أن يوفق في زواجه إلى فتاة من فتيات العصر الحديث . وكان جده يعارضه في هذا الرأي . ويحتم عليه الزواج من فتاة صالحة . تخاف الله وتحافظ على شرائع الدين .

وكانت الصالحة في نظر محسن صورة لفتاة رجعية قعيدة البيت . لا تهتم بملابسها وأناقيتها ، جاهلة بأمور الحياة العصرية ؛ ولا تعرف كيف تعيش في المجتمعات .. لهذا عزم أن يختار زوجة بنفسه ومن رواد أما كن اللهو حتى لا يقع فيما يخشاه . وحتى لا يتحقق فيه دعاء جد العائلة الأكبر الذي كان يذكره به جده دائماً . فكثيراً ما كان يقول له (إن الجد الأكبر للعائلة - دعا الله في بيته الحرام أثناء حجه - أن يكون نصيب ذكور ذريته في الزواج (بذات الدين) من النساء - لهذا كان (محسن) يخشى الزواج ولا يريد .

أما وقد عثر على ضالته المنشودة هذه الليلة ؛ فلم يعد لدعاء الجد قيمة لديه . لاسيما وقد رأى خطيبته بعينه مرة في إحدى الحفلات؛ وخطبها في حفلة ثانية ؛ ومن وسط النادي الذي ترأسه والدتها .

لم ينم (محسن) تلك الليلة إلا على ذكرى ، ولم يستيقظ إلا على أمل واستمر طول ليلته في أحلامه الجميلة بين نوم ويقظة . يسبح بخياله في جمال خطيبته العصرية ؛ وما سيناله من نخر - وهو يقدمها إلى أصدقائه ومعارفه . حتى إذا أشرقت الشمس وملأت الكون بنورها - قام من فراشه في

نشوة وسعادة — وما انتهى من ارتداء ملابسه — حتى أسرع بالدخول على جده
في الحجرة نومه، وحياء بتحية الصباح. والجد كبير السن. محافظ على التقاليد.
وكان يحب حفيده حب الوالد لابنه الوحيد .

فما كاد يراه حتى نظر إليه نظرة ملؤها العطف ؛ ولاقاه بكلمات الترحيب
قبل أن ياتى عليه التحية . وكان مستلقياً على سريره بجلباب نومه الأبيض
فدعاه إلى الجاوس بجانبه وأخذ يسأله عن أحواله في شوق واهتمام .

وكان محسن يهاب جده . فجلس بجواره صامتا .

وفي صوت هادئ يحوى صنيع الحياء شرع يحدثه في شأن عزمه على
الزواج مظهراً في ذلك طاعة لجدّه الذي كان يتمنى زواجه. وما انتهى حتى
يبت على وجه الجد علائم الانشراح ؛ ودلائل السرور؛ فقد ظن أن حفيده
قد قبل ازواج من ابنة صديق له — سبق أن كلفه في شأن الزواج منها منذ
قريب — وكان (محسن) قد رفض زواجها .

ثم راح يثنى على رجاحة عقله . وبعد نظرة . وطاعته لأوامره .
ومرت فترة . والجد سعيد بطاعة حفيده وتحقق دعاء جد العائلة
الأكبر فيه .

لكن ما هي إلا فترة أخرى حتى تغير كل ما كان يحول بخاطره
وعرف أن المقصودة غير الفتاة التي كان يقصدها .

عند ذلك إربد وجهه . وظهر عليه الاستياء والغضب .

وفي حركة آلية . جعل يمر يده على لحيته وهو مطرق في صمت .
وكانت لحظة حرجة — تلك التي اتجه بعدها الجد نحو حفيده وقال في
نبرة مؤثرة لا تخلو من حنان :

— استمع إلى يابني .. إنك في هذه السن. لا يمكنك أن توفق بنفسك

إلى من تسعدك من الزوجات . خصوصاً في هذا العصر الذي قل فيه من تنطبق عليها صفات (المرأة الصالحة) التي فشاها سيد الخاق على جميع النساء وحث رجال أمته على الزواج منها وهو أعلم بصالحهم فقال عليه الصلاة والسلام :

(تنكح المرأة لأربع . مالها . وجمالها . . وحسبها . ودينها فاظن بذات الدين تربت يداك) .

لهذا أخشى عليك يا ولدي . إن أنت تزوجت بنفسك . أن تكون مندفعاً كغيرك من شباب هذا العصر . بهوى نفسك الضعيفة . فتقع فيمن لا أرتانها لك من غييات اليوم . اللائي لا يعرفن للدين أمراً . ولا لله طاعة — ثم ذكره بدعاء جد العائلة الأكبر —

استمع محسن إلى جده وهو صامت .

وما أن طرق سمعه لقب (ذات الدين) حتى ضاق صدره ، وانقبضت نفسه . حيث وجد رأي جده لم يتغير عن ذي قبل .

ومرت به فترة ثقيلة قضاها في حيرة من أمره . لا يدري كيف يخبر جده بمن اختارها زوجة ، وكيف يقدم له صفاتها وهو يعلم أنها بعيدة كل البعد عما يريد لها . . ووقع في تردد شديد بين أن يخبره الآن . وبين أن ينتظر حتى يفكر في كيفية إقناعه بهذا الزواج .

وبغته تذكر صديقه (ممدوح)

وسرعان ما نظر في ساعته . وتامل في مجلسه كمن تأخر عن مياد عمله . ثم اعتذر لجده بعدم تمكنه من تقديم معلوماته إلى ما بعد رجوعه من مكتبه . خرج محسن موزع الفكر ؛ ضائق النفس ؛ ولم يذهب إلى مكتبه بل

قصد تَوّاً إلى صديقه (ممدوح) وكان في حال من الأسى والهم . فما رآه
ممدوح . حتى هب لملاقاته مبهوياً . واستقبله في دهش - حيث لم يعمض على
فراقهما سوى بضع ساعات - وما لبث أن قال في لهفة :

— خيراً يا محسن ماذا أتى بك الى الديوان في هذه الساعة المبكرة ؟
فأجاب في أسف . . .

— لم أجده في المنزل فجئت هنا .

فزادت دهشته وقال في اضطرب :

— ماذا جد يا صديقي في هذه الساعات القلائل ؟

— هل أصابك مكروه ؟

— لا يا ممدوح

— من الجائز أن تكون قد أرهقت أعصابك من شدة الفرح فإنني
أنكر حالك .

— لم يحصل شيء من ذلك . غير أن جدى . . .

وارتبك كمن لا يعرف من أين يبدأ الحديث . ولما هم بالكلام كان
(ممدوح) قد سبقه مازحا :

— ماذا جرى لجدك ؟ وأين هو ؟ إنني في شوق إليه من أمد بعيد

وكانت نبرات صوته تدل على أنه يسخر . فقال محسن :

— دائماً تسخر (يا ممدوح) حتى في أخرج الأوقات .

— لم أجده بك يا صديقي ما يدعو إلى الحالة التي أراك عليها فهون على

نفسك . وتعال نجلس ثم أخبرني بعد ذلك بكل ما يشغلك ، دون أن تزيد .

فإنك كثيراً ما تباليغ - واتجه به نحو مكتبه وجلس أمامه

فطفق (محسن) يقص عليه ما كان بينه وبين جده فى مسألة زواجه .
وإنه لما نزل متمسكا بتحقيق أمنية (جد العائلة الأكبر) وكيف العمل
وليس هناك وجه شبه بين فتاته . وبين من يريد لها جده له .
وكان يتكلم والقلق باد على وجهه . والحيرة تملأ نفسه . وممدوح ينظر
إليه بدهش .

وما انتهى من أقواله حتى قال ممدوح هازئاً .
— شيء . . ثم ماذا ياسيد محسن — والله إننى لفى عجب من أمرك
ولا أدري أجذك الذى سيتزوج أم أنت ؟
— طبعاً أنا ولكن جدى . .
فقاطعه ممدوح قائلاً :

— ياأخى لا عليك من جدك الأكبر ولا الأصغر ما دمت أنت الذى
ستتزوج وأنت الذى قد اخترت .
فاستطرد محسن قائلاً :

— لكن جدى كان قد وعدنى بتنازله عن أملاكه بالقاهرة التى
ورثها عن جدتى إذ أنى تزوجت من تواقفه .
فقال ممدوح متسائلاً :

— أويهمك الحصول على أملاك جدك ؟
— ما كان يهمنى ذلك لو لم أكن قد جعلتها من أملاكى وأنا أقدم
مؤهلاتى (لزيئات هانم) .

فاكتست ملامح ممدوح أمارات الجسد وأطرق برهة . ثم نظر
إليه قائلاً :

— أوتعمل بشورتى ؟

— لهذا جئت إليك .

— هذا حسن . . . وهل تستطيع أن تتقن خداع جدك بالقول ؟

— أستطيع لو علمت ما أخدعه به .

— حسن أيضاً . ولم يبق إلا أمر واحد

— وما هو

— هل حدثت جدك بشيء عن والدتها ؟

— مطلقاً .

— إذن فالأمر سهل والحل ميسور

فلمعت عينا محسن يريق الأمل وقال فى لهفة :

— ماذا ترى ؟

— لا شيء أكثر من أن تقدم خطيبتك إلى جدك على أنها ابنة

(شاكر باشا التركى) فقط ذلك الرجل التقي البعيد عن كل شبهة ، وقد

نسيت أن أخبرك بأن قليلا من الناس هم الذين يعرفون أنه زوج (لزيينات

هانم) . . وإياك أن تذكر له اسمها ؛ أو تصف له خطيبتك على حقيقتها . .

وكان يتكلم باخلاص كمن يهيمه نجاح خطته (ومحسن) مرتاح لكل

ما يقول ؛ فلم يكدر يستمع إلى مشورته . حتى ذهب عنه ما كان يشغل كاهله

وهدأت نفسه . ثم شكره .

عند ذلك رأى (ممدوح) أن يخبره بما كان يقلق نفسه قبل حضوره .

وهو خبر ثقاه الذى فوجئ به اليوم إلى إحدى مدن الوجه البحرى

ابتداء من الغد .

فوقع هذا الخبر على نفس (محسن) وقعاً أليماً وتكدر لفراق صديقه .
ثم كان وداع سحر بينهما . خرج (محسن) على إثره إلى مكتبه . وظل
هناك يفكر فيما سيخادع به جده حتى انتهى ميعاد عمله ورجع إلى منزله .

قال الجد في بشر وقد شاع السرور على وجهه :
— ماذا تقول (يا محسن) ؟ ابنة الحاج (شاكر باشا التركي) وهذه
صفاتها . وأخلاقها ؟

فلبس (محسن) ثوب الخداع وقال :
— نعم يا جدي . وهذا ما دفعني إلى الزواج منها .
— إنه رجل تقي يابني ؛ وله تاريخ مجيد ، أفضى به إلى أحد رفقاء أثناء
تأدية فريضة الحج . فنعم النسب يا ولدي .
ولم يكن يبدو على (محسن) أنه كاذب أو مخادع . فلم يرتب الجد في
أقواله ؛ ووافق على زواجه ، ووعد بتحويل أملاكه إليه .
وكانت حالته معهما . ففرحت ، ودعت له بالتوفيق .
بعد ذلك بر الجذبوعوه ؛ وحظى محسن بأمنيته ؛ قبل مضي المدة المحددة
من (زينات هانم) لمقابلة الباشا .

حدث الأيام خطاها ومنحى أكثر من شرر على تلك الحوادث كانت
(إصلاح) خلاله قائمة على العهد الذى قطعتة على نفسها — فكانت لا تحضر
من حفلات والبتها سوى بعض ما كان يقام منها فى المنزل . أما الحفلات
الخارجية المأجنة . فكانت لا ترى فيها . ولا تذهب إليها . وكانت تقضى معظم
أوقات هذه الحفلات فى جمعيتها نهاراً ؛ أو فى مشاهدة نوع من الروايات
الادبية (تشيلية . وسينائية) بصحبة أخيها (حسين) ليلاً . وقد تركت
مسألة زواجها (بمحسن) لمشئة الله . ولم تعد تفكر فى ذلك .

أما (محسن) فقد كان طوال هذه المدة — يبنى النفس بالآمال السعيدة
والآمانى الحلو التى كان يصورها له خياله عن فتاته العصرية . كان يراها
مثله خارجة على التقاليد التى خرج عليها بتعلمه فى الخارج — فيشكر تلك
المصادفات التى ستجمع بين روحين خلقتا من معدن واحد . وكان يتخيلها
وهى تنصدر موائد حفلات شرابه . ومجالس أنسه — فيطير فرحاً بما سيفغمره
من إعجاب أصدقائه وفخرهم بزوجه الأرسنقراطية الحسنة . وكان بين
هذا وذاك يعد الأيام يوماً بعد يوم . ساعة بعد ساعة — فى شوق ولوعة حتى
جاء اليوم المحدد بينه وبين (زينات هانم) فى الحفلة .

فى ذلك اليوم ارتدى (محسن) أخف ثيابه ، ورجل شعره وطيبه
بالعطور . وخرج بسيارته يقودها بسرعة إلى قصر خطيبته .

وقبل وصوله كانت (زينات هانم) قد رتبت كل شئ مع الباشا ومع
العروس نفسها ؛ واستعدت لاستقباله .

فما إن وصل حتى استقبلته بالبشر والترحيب؛ وقدمته إلى عروسه وإلى إخوتها جميعاً .

وكانت (إصلاح) ترتدى ثوباً أنيقاً في غاية الإبداع - بدت فيه بارعة الحسن . هيفاء القد . على ما فيه من مظهر الحشمة . ورونق الكمال .
فما رآها (محسن) حتى اهتز قلبه وخنق فؤاده وقدم إليها خاتماً من الماس الثمين . بعد أن طبع على يدها قبلة أودعها عاطفته وحبه .
ثم قادته (زينات هانم) إلى حجرة الباشا . وكان مريضاً . منذ عودته أول أمس من ضيعته وأشار عليه طبيب الأسرة بملازمة الفراش .
دخل (محسن) إلى حجرة مفروشة بأخضر أثاث النوم وكان (الباشا) مستلقياً على سريره نصف راقد؛ وقد لف حول جسمه دثاراً خفيفاً .
وبجوار سريره نضد عليه مصحف كبير . وبعض زجاجات الدواء وآنية الزهور - فلقه الباشا ببشاشة وترحيب . . . ثم اتخذ مجلسه على طرف أريكة كبيرة منجدة بالحرير كانت بالقرب من السرير مواجهاً (إصلاح) وجلست بجانبه (زينات هانم) وحولهما بقية الأخوة .
وبدأ يتكلم

فأظهر إهتماماً بصحة الباشا؛ وتأثراً لمرضه . ثم أخذ يحيب عن كل ما كان يوجه إليه من الأسئلة برقة وبلهجة هي خليط من (العربية والفرنسية) .
وكان كلما تكلم نظر إلى (إصلاح) موجهاً إليها الحديث .
وفي هذه الجلسة أعلنت الخطبة الرسمية؛ وتم الاتفاق .
وأثناء ذلك لاحظ محسن أن الوالد يريد أن يؤخر الزفاف إلى ما بعد زفاف الأخت الكبرى .

فراح يلح . ويكثر من طلب الاسراع فيه .

لهذا لم تطل الخطبة الرسمية أكثر من أسبوعين - تم فيها إعداد الجهاز الذى بولغ فى كثرته ونخامته . وكان الباشا قد أهدى ابنته (فيلا نفمة) بناحية مصر الجديدة بمناسبة زفافها - فرتب فيها الأثاث وفرشت جميعها قبل ليلة الزفاف .

هذه ليلة الزفاف . فيها لى ما جرى فيها

تهيأ قصر (زينات هانم) وازدانت واجهانه بالمصابيح الكهربائية المختلفة الألوان والأحجام - ثم أضىء من الداخل والخارج بأنوار أحالت ليل شارعها نهاراً . وازدحم الشارع بالسيارات التى أتت بالمدعوين والمدعوات ولجى الدعوة كثير من سيدات الطبقة الأولى ورجالها . والكل بملابس السهرة الأنيقة .

وكان اهتمام (زينات هانم) بهذه الحفلة عظيماً . فأصرت على أن يطرب الحاضرين . أشهر المغنيين والمغنيات والراقصات . ولما كان الطرب سيستمر حتى ساعة متأخرة من الليل - كان هناك مقصف فاخر . حوى مائد وطاب من المأكول والمشارب .

وفوق هذا ترى (الكوشة) البديعة المخصصة لجلوس العروسين وقد زينت بالأنوار الكهربائية وأحيطت بسلال الورود الفاخرة - ثم أقبلت العروس الحسناء بقدها المشوق فى ثوب العرس الذى أبت إلا أن يكون جامعاً للأناقة والحشمة - تحظر بين حشد من لداها حتى تصل إلى تلك (الكوشة) الرائعة - وتجلس على أحد

مقعديها بعد أن تناثرت النقود على المدعويين .

والحق كانت ليلة زفاف رائعة جمعت بين أرقى ما يعمل في الحفلات الشرقية والغربية .

ومع هذا كله فإن (إصلاح) لم تكن راضية عن كثير مما عمل تلك الليلة . ولو سمعت حديث نفسها لألفيتها تقول .
(ما أحوج الفقير إلى ما أنفق هذه الليلة في القصف والطرب) .

كان كل هذا الجمال يتلألأ في الطابق الأعلى الذي ضاق بالمدعويين على كثرة غرفه . وسعة ردهاته وشرفاته . على حين كان (شاكر باشا) وقد تحامل على مرضه . يجلس في الطابق الأول مع نقر . قليل من الفضلاء الذين لا يأبهون لمثل ما يعمل في هذه الحفلات .

وتم العقد - فصعد محسن إلى الطابق الأعلى وكان يرتدى (حلة العرس الأفريقية) فتحولت الأنظار إليه في لهفة وشوق شديد لأن معظم الموجودين كانوا لا يعرفونه .

وكانت لحظة سعيدة تلك التي اتخذ فيها (محسن) مجلسه في (الكوشه) بجوار (عروسة) بعد أن قبل يدها ولف حول معصمها (سواراً) من الماس الثمين وراحا يتقبلان تهنئي المدعويين .

وبعد هنيئة جيء بعلب الملبس الفاخرة ؛ والشراب النادر والمرطبات . وبينما الجميع في هرج وسرور . إذا بهم يصمتون فجأة ، وإذا بالأنظار تتجه إلى جهة واحدة ثم تتحول نحو (العروسين) !

فقد صعد (شاكر باشا) والد العروس ومعه (الأستاذ الأكبر) جد العريس .

وكان للجد في الواقع هيئة جليلة تحولت الأنظار اليه — إذ كان يلبس
ملابس الأتقياء العظماء . وعلى رأسه تمامة مرتفعة قليلا زادته هيئة وجلالا
وحينا رأتهما (العروسان) وقفوا احتراما لها وقبلا يديهما
وتقبلا تهما .

رأى الجد عروس حفيده — ورأى ما يحيط بها من الرجال والسيدات
العاريات — فتجهم وجهه — ثم شاهد هذا الحفل الذي جمع بين المنكر
والعصية — ولاحظ تلك الخلاعة الواضحة . والفسق المكشوف — فهبت في
نفسه ثورة صامتة — وأيقن أن عروس حفيده من فتيات اليوم المتفرنجات
وأنها من النوع الذي كان يتمنى أن يباعد بين حفيده وبينها ما بعدت
السموات والأرض . وأن تفارقه الحياة قبل أن تنضم إلى أسرته الشريفة
هذه (العروس) الخليعة .

واعتقد بأن حفيده ؛ خدعه ؛ وأنه أخطأ في حكمه على (شاكر باشا) .
وكانت لحظة غريبة عندما تقدم (الجد) إلى (الباشا) معذراً بعدم
تعوده المكث كثيراً في مثل هذه الحفلات .

وما لبث أن غادر الحفل ساخطاً على حفيده ؛ عازماً على مقاطعته بسبب
هذا الزواج . وبسبب خداعه إياه حتى استولى على ماله .

وطبعاً لم يلحظ (العروسان) ولا أحد من أفراد الأسرة شيئاً عن
غضب الجد . ولم يخطر لهم على بال . إذ كان الكل لاهياً . والكل في شغل
بذاك السرور .

ولقد أثر سهر تلك الليلة في صحة (الباشا) فزاد مرضه ونصححه الأطباء

بالسفر إلى الاسكندرية دون غيرها من مدن (الاصطياف الأوروبية)
لعدم تحمل شيخوخته للأسفار البعيدة . ودفناً للجر الذي لا يلائم صحته
في القاهرة .

وأقام العروسان في القصر بضعة أيام قبل سفر الأسرة كانا في أثناءها
يفكران في المكان الذي سيمضيان فيه (شهر العسل) .

وتمكننت (إصلاح) وقتئذ من قلب زوجها وزاد حبه لها . فترك لها
حرية اختيار ذلك المكان . وبالرغم من عدم ميله إلى الريف فإنه وافقها
على قضاء شهر العسل بضيعة والدها الكبيرة دون معارضة منه .

كانت هذه الضيعة بالوجه البحري . وكان بها (فيلا عظيمة)
مبنية على أحدث طراز ؛ ومفروشة بأخف الأثاث . وبها طاه وخدم مقيمون
دائمون . وكان بها (حديقة واسعة) نائية عن المزارع والحقول . يجد
المقيم بها كل راحة ولا ينقصه شيء من الضروريات والكفايات .

ومع ذلك فإن (زينات هانم) لم يرقها هذا الرأي وحرضت (محسنا)
على أن يحمل زوجها على الاصطياف بإحدى المدن الخارجية أو أى
مضيف خلاف الريف .

بيد أن (العريس) كان لا يخالف (لعروسة) رأيا ولا يرفض لها طلباً
وكان يعتقد يقيناً بأن زوجه لم تقصد من وراء اختيارها هذا المكان
إلا أن ينعماً بجمهما في عزلة خلوية .

على أنه لو استمع إلى دخيلة نفسها - لعرف أنها لم تفضل هذا المكان
إلا لابتعدا عن المصايف التي تدفع بهما إلى المعاصي ولتعوده ترك أما كن
اللهو الفاسدة .

وقييل سفر الأسرة يوم واحد — انشرد محسن بعروسة
فى شرفة حجرتهما الخاصة . وجلسا يستنشقان نسيم الصباح اللطيف
ويتحدثان عن رحلتهما القادمة فى سرور واغطباط .

وفى تلك الجلسة تناول حديثهما تدبير شؤنيهما الخاصة فى حياتهما
المستقبلية .

ثم أحصت إصلاح ما جمعت من أموال بمناسبة زفافها ، وما كان مدخراً
لديها قبل الزفاف ؛ وأضافت إليه مهرها الذى رأى والدها أن يكون لها
خاصة — فوجدت ذلك بضعة آلاف من الجنيهات — صمم محسن على إيداعها
أحد المصارف باسمها .

ولم تغفل « إصلاح » فى تلك الجلسة عن حث زوجها على زيارة
أسرته قبل سفرهما — إذ كان قد مضى أكثر من أسبوع دون أن يعرفا
عن جده وخالته شيئاً .

فما غادرا الشرفة — حتى خرج محسن قاصداً منزل أسرته . وكانت الشمس
قد آذنت بالمغيب عندما وصل إلى المنزل .

فلما لم يجد خالته ؛ دخل على جده فى حجرته — وكان ملازماً فراشه منذ
ليلة الزفاف — غماً وحنناً على ما رأى هناك .

فلم يكد الجد يرى حفيده — حتى أنكره — وبدأ على وجهه نوع من
الكآبة ولم يتفوه بكلمة .

فبهت « محسن » لهذا اللقاء غير المنتظر ؛ وساد بينهما صمت — قطعه
« محسن » قائلاً فى لهفة :

— ما بال « جدى » ملازما القراش ؟

—

— أمرىض أنت يا « جدى » ؟ متى كان ذلك ؟

—

ولما لم يسمع منه جوابا كاد ينص بريقه . . . ودهش لما رآه من صمته
المخرج وتملكته رغبة شديدة فى أن يعرف دخيلة نفس جده وسبب
ذلك فاستطرد قائلا .

— لقد بحثت اليوم يا « جدى » لأسلم عليك . فقد عازمت السفر
أنا وزوجى إلى . . .

وما أن طرق سمع « الجـد » كلمة « زوجه » حتى قاطعه فى
غضب قائلا :

— لا أريد أن أسمع منك كلاما ؛ ولا أرى لك وجهها بعد الآن .
وحسبى ما رأيته بعينى ليلة زفافك . وما خدعتنى به . وبمن ضممتها إلى
أسرتنا الشريفة .

وكان فى حال من الغضب والتأثر دفقته إلى أن يقول فى انفعال وهو
يشير بيده .

— أخرج فلست بك . ولأنت حفيدى . وكفانى ما أصابنى فى صحى
بسبب خداعك إياى .

عندئذ فهم « محسن » سبب غضب جده ومرضه . لكنه لم يحاول

تهديته . أو ينتظر حتى تهدأ نفسه - بل خرج لتوه . غير عابئ بغضبه
أو بقرضه .

وسرعان ما رجع إلى القصر وهو لا يفكر إلا في حياته الجديدة
وزوجته المحبوبة وما يهمه أن تهجره أسرته الرجعية وحسبه زوجه العصرية.
وما أخذه من « جده » من الأملاك .
وهناك أخبر زوجه بأن جده وخالته بخير دون أن يزيد .

وفي مساء اليوم الثاني كان القصر قد خلا إلا من بعض الخدم
والبستاني . . حيث سافرت الأسرة إلى مصيفها وسافر العروسان
إلى الريف .

انتقلت (إصلاح) من بيتها الأول الذي نشأت فيه إلى (عش الزوجية)
وتكوين أسرة جديدة .

فلما وجدت أنه قد تم نصف دينها بسبب هذا الزواج رأت أن تبقى الله
في النصف الباقي منه .

وعندما استقر رأيها على ذلك راحت تفكر فيما كلفت به المرأة من
الأعمال في حياتها بعد الزواج . فوجدت نفسها أمام واجبات ثلاثة : (ربها
وزوجها والمحتاجين من الناس) .

ولو سألتها لماذا أضافت مسؤولية القيام بواجبات زوجها إلى ما كانت
تقوم به من قبل نحو الله والناس . لقلت : لأن الرسول صلى الله عليه
وسلم يقول :

(إذا صلت المرأة خمسها . وصامت شهرها . وحفظت فرجها . وأطاعت
زوجها . قيل لها ادخلي الجنة من أى أبواب الجنة شئت) .
وهكذا تجددها في جميع أطوار حياتها . تراعي حدود ما أمر الله ورسوله .

وقد ينيل إليك أن هذه الزوجة التي عاهدت نفسها على أن تقوم بواجبها
نحو زوجها لا بد وأن تكون سعيدة بهذا (الزوج الغني الجميل) أو أن
تكون قد تجاوزت عما فيه من الصفات التي كانت لا ترضيها . بعد أن رأت
منه الكثير من الحب نحوها . والتفاني في مرضاتها .
والحق أن كل فتاة لا تتمنى في زوجها أكثر من هذه الصفات لكي
تعيش في سعادة وهدوء بال .

لكن (إصلاح) مع كل هذا لم تكن سعيدة في بدء حياتها الزوجية .
ولم تكن هادئة البال . بل كانت سبيلة الحاطر مضنية الفكر حيرى .
— ترى ماذا كان يشغل هذا العقل الرشيد ؟ وماذا كان ينقصها
من سعادة ؟

— إن السعادة التي كانت تنقصها قلما تفكر فيها أية فتاة أخرى أو
تجعلها سبباً لهدم هوائها .

بيد أن (إصلاح) كانت ترى أن السعادة الحقيقية بين الزوجين ليست
هى التي يكون الحب فيها مؤسساً على الافتتان بالجمال ، أو المال والجاه .
ولا التي تكون بين قلب سليم وقلب مريض سقيم وإنما هى التي يؤسس
الحب فيها على الاحترام المتبادل — ويربط بين روحين طاهرين . محبين
فى الله . مطيعين لأوامره .

هكذا استحوذت عليها هذه العقيدة واستقرت فى نفسها فقضت الأيام
الثلاثة الأولى فى الريف . وهى لا تشعر بتلك السعادة التي كان يشعر بها
(محسن) وذلك لأنها كانت تريد أن يكون جها فى الله ؛ وأن ترى زوجها
يؤدى الصلاة . فلا يشغله جبه عن طاعة ربه ؛ ولا تمتعه بنعيم الحياة عن أداء
فرائض الله . إذ كانت تعتقد يقيناً بأن (تارك الصلاة ملعون . وجاره إن
رضى به ملعون) وكانت بهذا تخشى على نفسها غضب الله ولعنته

وجاء اليوم الرابع — نفلت (إصلاح) بنفسها وراحت تفكر فى حياتها
الماضية والحاضرة .

— كنت أريد (زوجاً صالحاً) ليكون لى عوناً على خوض غمار تلك الحياة

الفانية بسلام ! لكنى لم أوفق ولم أحظ به . هكذا الدنيا — من سعد فيها بنفسه شقى فيها بغيره .

ثم عادت إلى ذكرى الليلة التى أرغمتها والدتها فيها على قبول (محسن) زوجها فحدثت نفسها :

— لقد أرادت والدتى أن تسعدنى فأشقتنى . لكن عفا الله عنها .
ما كانت تقصد إلا صالحى .

واستمرت فى هواجسها وآلامها حتى طرق ذهنها الحديث الشريف :

« لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً . خير لك من حمر النعم »

وسرعان ما عازمت على الأخذ بهذا الحديث والعمل على هدى زوجها

فى بدء حياتهما الزوجية

غير أنها عادت فأصفت إلى عقليها الذى أوعز إليها أن مثل هذا الزوج الذى اعتاد حياة اللهو والمجون فى الخارج . ونشأ على ترك الدين وحب أعدائه . من المحال أن يتصح بصحتها وأن ينصاع لإرشادها إذا هاجمته بالدعوة إلى تأدية فرائض الدين واتباع أوامر . وأن الأصوب هو أن تنتظر حتى يألف ترك المعاصى شيئاً فشيئاً ثم تأخذه بعد ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة .

وعندما صممت على هذا الجهاد فى سبيل الله شعرت بقبس من نور السعادة يتألق فى قرار قلبها . وتبدد ما كانت تحسه من قلق ووساوس وعادت إليها الطمأنينة وهدوء البال .

ثم راحت طوال مدة إقامتها فى ذلك الريف تعمل بما عاهدت نفسها عليه نحو (الله . وزوجها والناس)

فاهتمت بشئون فلاحية الضيعة وما يجاورها من القرى . واستجابت
إلى مطالبهم ورغباتهم — وفاض حنانها وبرها هناك — فأمدت فقراءهم
بالمال والكساء .

وكان قد كان ميعاد إخراج زكاة مالها من حلى ومال مدخر قبل زفافها .
فلم تغفل عن إخراج القدر المفروض عليها .
ولو كنت من المقيمين في تلك الضيعة وشاهدتها وهي تشرف على
إخراج زكاة (مواشيها وزروعها) لرغبت أن تكون كهذه النفس
السخية سماحة وكرما .

على أن الذي يبعث على التقدير والاعجاب هو أن قيام هذه الفتاة
بتلك الأعمال الجليلة فوق ما كانت تقوم به من صلاة وعبادة . ما كان
ليشغلها عما تطلبه حياة الأسرة السعيدة . وجعل (عش الزوجية) مبعثاً
للهناء والسرور .

فكنت تراها تقضى معظم أوقات فراغها في اللعب مع زوجها بكل
ما كانا يجيدانه من ألعاب الكرة المختلفة في (حديقة الفيلا) الواسعة .
وأحياناً يلعبان (الشطرنج) وبعض أدوات (اللهو المباح) داخل المنزل .
وكثيراً ما كانا يقضيان شطراً من النهار في صيد السمك والبط
وغيرها من الطيور هناك . حتى إذا ما نبلج الصباح أسرع كل منهما إلى
اغتناء صهوة جواده ثم ينطلقان بين المزارع النائية والحدائق الواسعة .
يتسابقان في سرور . وكانت (إصلاح) تبدى من ضروب الفروسية
وسرعة القفز . ما يجعلها تفوز عليه . ويزيد إعجابه بها .

وقد تعجب لتلك الأعمال العصرية وضروب التسلية التي كانت تمارسها مع زوجها وهي المتدينة التي آثرت رضا الله والعمل بأوامره .

ولكنك إذا علمت أنها كانت تعلم يقيناً أن الله لم يحرم على عباده المتع فيما خلق في الكون من جمال وإبداع ، وثق أنه تعالى ما حرم إلا ما صنع الشيطان من الملاهي والملاذ المحرمة — لزال عجبك — وأيقنت أن أعمالها كلها لم تكن إلا عن فهم صحيح ودراية تامة . وما هذه المتع التي تتمتع بها في الواقع سوى طاعة لقوله تعالى :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .
غير أنها كانت تراعى أن تكون هذه الأعمال كلها بعيدة عن أعين الرجال بالنسبة إليها فكانت تتخذ الأماكن النائية لهذا الغرض .

وتلاحقت الأيام . وانتهى شهر العسل .

وكان (محسن) خلاله يرى زوجته تقوم بهذه الأعمال العصرية والألعاب المسلية . فيطير فرحاً بها . وكانت هذه المسليات ملهاة عظيمة له . فزال ما في نفسه من مقت الريف وأصبح يشعر وكأنه في أجمل مصايف العالم . ثم طاب له العيش هناك فمد (شهر العسل) إلى شهرين قضاهما في تلك الضيعة الجميلة . منفرداً بزوجته المحبوبة دون أن يشعر بمرورها وهكذا مرت هذه الأيام السعيدة سراعاً حتى إذا لم يبق من عطلة (محسن) الصيفية سوى بضعة أيام . عزموا على السفر .

وفي ليلة السفر بات (العروسان) يستعرضان حياة الريف السعيدة ويذكran أيامه الجميلة

وفي الصباح . استيقظا مبكرين وبعد أن تناولا طعام الافطار

إرتدت (إصلاح) ثوبا أنيقاً وحجبت رأسها بخمار أبيض ثم وضعت على كتفها (رداء كحلى اللون) يشبه المعطف الفصفاض (كاب) . بدت فيه أنيقة محتشمة

وما فرغت من ارتداء ملابسها حتى كان (محسن) قد استعد للسفر ثم أتى إليها مسرعاً وصاح فى رفق قائلاً :
— هيا يا عزيزتى فقد جاءت السيارة .

وما كاد يتم قوله حتى استرعى نظره ذلك الزى المحتشم الذى كانت ترتديه — فوقف مكانه مبهوراً ونظر إليها مدهوشاً لأنه لم يرها بذلك المظهر من قبل . فقد كان يجيئها الى تلك الضيعة بالسيارة فى المساء . وكانت ملابسها التى ترتديها حينذاك فى غاية البساطة .

— ترى ماذا كان يدور بخلفه وقت ذاك ؟

— إنه لم يتصور (أن زوجه العصرية) ترتدى هذا الزى بغير الحجاب . وهى وأسرتها عنوان السفور ورمزه

على أنه راح يفكر . ويفكر . وسرعان ماخطر له خاطر اطمأن اليه . ونفى به الشبهة عن زوجه إذ أيقن بأنها إنما ترتدى هذا الزى بحكم انضمامها إلى جمية المسلمات المجاهدات — تلك الجمعية التى كان يعتقد بأن زوجه لم تنضم إليها إلا لتتال شرف الرياسة والظهور فى المجتمع .

وسرعان ماركبا سيارتهما — وكان الخدم قد رتبوا الحقائب بها . ثم قادها بنفسه وألقيا تحية الوداع على ذلك الريف الجميل .

وقبل أن تبرح السيارة الضيعة سلم ناظرها إلى (محسن) رسالة باسمه وكانت من (زينات هانم) وفيها تدعوه وزوجه لقضاء بضعة أيام عندها (برمل الاسكندرية)

رمل الاسكندرية — (ضاحية جميلة) هي ضاحية اللهب . والمتعة .
 ضاحية الأحلام والاستجمام . يؤمها المترفون . وذوو المال ، وطلاب الصحة
 وغيرهم من جميع أنحاء القطر . فتفص فنادقها بالنزلاء . وتحتل شواطئها
 وتزدحم منازلها على كثرة أحيائها بالوافدين في فصل الصيف .

ومن الأحياء التي اشتهرت في تلك الضاحية يتردد مترفي القوم وقت
 ذاك (حى استالى) الذى استأجرت (زينات هانم) في شاطئه إحدى
 (الكباشن الممتازة) بالطبقة العليا للاستراحة والتقابل فيها الصديقات
 والأصدقاء . بعيداً عن زوجها المريض .

وكان بين الذين يترددون عليها في هذه (الكايننة) شخص حاز
 إعجابها ويعتبر أقرب المقربين إليها . هو « صفوت بك » الذى تم تعارفها
 به في إحدى حفلاتها الخيرية إثر تبرعه بمبلغ كبير . . ثم أخذت صاتها
 به تزداد كلما زادت تبرعاته في حفلاتها المختلفة حتى أصبح من
 أخصائها المقربين .

وكان يفد إليها عادة كل أسبوع فيقضى معها يوماً أو بعض يوم . بين
 السباحة والنزهة . وكانت شديدة الحرص على انتظاره في ذلك اليوم .

وفي اليوم الذى كان سيحضر فيه . جلست « زينات هانم » في
 (شرفة الكايننه) ، وقد استلقت على أحد مقاعدها الطويلة بلباس
 البحر الحريرى وراحت تعرض جسمها لأشعة الشمس وتقرأ في إحدى
 جرائد الصباح .

وما هي إلا ساعة أو بسض ساعة حتى سمعت وقع أقدام تقترب منها .
ظننها أول الأمر ذلك الصديق .

لكنها ما كادت ترفع بصرها حتى وجدت نفسها أمام مفاجأة سارة
بمقد « اثنين عزيزين » فرحت لمقدمتهما ، وهالت عند رؤيتهما .
— فهل تعرف من هما ؟

— إنهما لم يكونا سوى ابنتها « إصلاح » وزجها « محسن » جاءا
تلبية للدعوة التي وصلتتهما اليوم .
وما اقتربا منها حتى انكببا عليها . وراحا يقبلانها في شوق وتقبلهما
في حنان .

ثم تحولت عنهما إلى داخل (الكابينة) . وما لبثت أن عادت مرتدية
(حلة الشاطئ) فوق لباس البحر . وجلست معهما في سرور —
وما استقر بهم المجلس حتى بدأت الحديث قائلة :

— متى وصلت رسالتى إليكما .

فأجابا :

— اليوم فقط . ونحن تأهب للسفر إلى القاهرة .

فدجتهما بنظرة ذات مغزى وقالت :

— إلى القاهرة ؟ يا لها من صراحة جريئة ، إذاً لولا رسالتى

ما جئنا اليوم .

فقالت « إصلاح » معذرة .

— إننا لا نكذبك يا أماء . ومعذرة عن تقصيرنا .

وسرها الاعتذار فابتسمت وقالت :

— على كل حال يسرني أن أرى دلائل الصحة تبدو عليكما .

فأسرع « محسن » قائلاً :

— حيا الله الريف . وحيا جمال الطبيعة . فلت أنكر فضل هذه الرحلة . ولا أنسى أثرها ما حيت .

وعلمها مقت الريف . فحوت الحديث إلى مواضع أخرى ومرت بثلاثتهم فترة طويلة . استفسرت « إصلاح » أثناءها عن والدها المريض . وإخوتها .

ولم تلبث « زينات هانم » أن انفردت بالحديث مع « محسن » حول باريس وما رآه في شواطئ (فرنسا) مدة تعلمه هناك .

وعندئذ اقتربت « إصلاح » بمقعدها من (حافة الشرفة) وراحت تمد الطرف نحو البحر الذي طالما ضم موجه جسمها الرشيق . وداعب نسيمه شعرها الذهبي الجميل .

وكان البحر في ذلك اليوم هادئاً والشاطئ يعج بالمصطافات والمصطافين . وتجردت أجسام المستحمين إلا من ذلك اللباس العاري (المايوه) . وأخذ البحر يداعب الحسان بموجه الخفيف .

وظلت « إصلاح » تنظر إلى البحر وقد سبغ خيالها مع أمواجه ثم انطلق بها في قارب من ذكريات الضلال القديم . حتى ما كادت تحس من دونها شيئاً .

إنها تعجب كيف كانت تسمح لها نفسها بالاستحمام فيه مع الرجال والنساء عارية الجسم مجردة من الملابس .

وكيف كانت لا تستحي من الظهور بذلك اللباس المبتذل الذي
لا يستر من جسدها العاري شيئاً .
ثم تسائل نفسها :

— أين كان يذهب حياتي عندما أكون عارية على (البلاج) أمام
الرجال ؟ .. ولماذا يعاودني إذا كنت في البيت مثلاً أو أمام نفس الرجال
في مكان غير الشاطئ ؟

هكذا استسرت في عجب وأسف كأنما كانت تكفر عن الماضي
بالندم والاستنكار .

وأخرجها من شرودها يد رقيقة حجت عينيها وصوت ناعم
مألوف يردد :

— يالها من مفاجأة سارة يا (إصلاح) !
وكانت (سوزان) بلباس البحر الحريري ذي اللون الوردى الجذاب .
فتعاقبت الأختان في شوق . وتبدلت القبلات في حنان ثم تحولت
إلى (محسن) وقد قام لتحياتها وقالت :

— صباح جميل ويوم سعيد .
وتصافحا في حرارة وتحادثت معهما في سرور بهذا اللقاء .
وما فرغت من ذلك حتى استأذنت من (محسن) وأخذت أختها
لتذهب إلى مظلمتهم القريبة من الماء .

وعندما غادرتا (الكاينة) هبطتا الدرج ، المؤدى إلى أرض الشاطئ
وهناك اتجهت الأختان نحو المظلة وقالت (سوزان) أثناء سيرها :
— لقد تقابلت أمس مصادفة مع (إكرام) في هذا الشاطئ .

فصاحت (إصلاح) فى بشر :

— (إكرام) ؟ يالشوقى إليها . أين تقيم ؟

— ربما تبعد عنا قليلا وعلى كل سأرسل البحار إليها يخبرها بنبأ
حضورك . فقد أخبرتنى بأنها فى شوق إليك من يوم أن تعرفت عليك
فى (حفلة الأوبرج) .

وكأن ذكرى الصديقة التى صادقها على الحب فى الله . ذكرها بصديقها
الثانية (يسرية) فلم تلبث أن سألتها عنها قائلة .

— لقد سمعت أن (يسرية) جاءت لتمضى بقية الصيف هنا —

فأين تقيم ؟

وكانتا قد وصلتا إلى المظلة — فأجابتها وهى تعد المقاعد لجالوسيهما .

— إنها تقطن الآن مع والدتها منزلا بحى (سيدى بشر) وهما كثيرا
ما تأتيان لعيادة الوالد المريض .

وتحت المظلة جلست كل من الأختين على مقعد متجاورتين ووجهاهما
إلى البحر .

وعند جلوسهما لاحظت (إصلاح) آثارا تدل على وجود أشخاص
مع أختها فقالت متسائلة :

— لمن هذه الأشياء ؟

فأجابتها فى بساطة :

— إنها ملابس لبعض صديقتي وأقربائهن وهم الآن فى الماء وقد
كنت فى زورقهم وخرجت حينما رأيتك فى (شرفة الكابينة) .

فران على (إصلاح) صمت خلعه الاستنكار لما سمعته وجلست ساهمة

وتمددت (سوزان) على المقعد الطويل الذى جلست عليه ثم وضعت
ساقاً فوق الأخرى . وعقدت يدها خلف رأسها . وجعلت إلى البحر
عينها وفى سرور وإعجاب راحت تقول لأختها متسائلة :

— ما رأيك فى منظر البحر اليوم ؟

فأنعمت إصلاح النظر فيه ملياً ثم قالت فى إعجاب :

— إنه هادئ جميل .

— حقاً . . إنه مفر جذاب . وقد كان بالأمس هائجاً . . فهلا

تفكرين فى الاستحمام كما كنت فى الماضى تفعلين ؟

فأسبلت (إصلاح) جفيناها كمن تستعيد ذكرى ماضية ثم رفعتها

وقالت :

— لا تذكرينى بالماضى يا أختاه . . عفا الله عنه وعفاني منه .

فنظرت إليها ساخرة ثم قالت مستنكرة .

— عجباً . إنك لا تزالين على حالتك التى كانت قبل الزواج . وما

كان ينبغى لك ذلك وأنت مع زوج مثل (محسن) .

ولشد ما دهشت عندما رأيت (أختى) التى كانت (فتاة البلاج)

أ فى الأعوام السابقة تدخله اليوم مرتدية هذا (السكاب الطويل) وذاك

(الحمار) الذى لا يناسب الدخول فيه !

وكم تألمت عندما رأيت أصدقائى وصديقاتي يسخرون منك ونحن فى

البحر قبل أن يعرفوا علاقتى بك .

فعلا الدهش وجه إصلاح وتمتمت فى أسف .

— يسخرون منى ؟ لشد ما عكست الأوضاع فى هذه الأيام . لقد ألف

الناس المنكر فأقروه ورأوا المعروف منكراً فسخروا منه .

ثم نظرت إلى أختها وقالت :

— ما هذا الذي تقولين ؟ وماذا في ذلك من عيب ؟

ألم تسمعي من أستاذنا القول الحكيم :

(ما من امرأة تخلع خمارها في غير بيت زوجها إلا كشفت ما بينها

وبين ربها) .

لكنني أراك دائماً تبتعدين بنفسك عن طريق الخير وتوعزين إلى غيرك بالحوض في ظلمات الضلال . . ألا يكفيك ما أنت عليه الآن حتى أراك تقديسين هذا البلاج ، وتحرمين الدخول فيه بالملابس التي تتناسب مع أوامر الله وتسخرين منها .

فقلت (سوزان) في إصرار وكأني لم تسمع من كلام أختها إلا طرفه الأخير .

— بلا شك . . فإن لكل مكان زياً يناسبه — وما دنا داخل الشاطئ فيجب أن تتبع تقاليده وترتدي ملايسه المناسبة له .

فقلت إصلاح مستفهمة :

حتى ولو كانت هذه الملابس تخالف أوامر ديننا وتقاليده ؟

فأجبت في عدم اكتراث .

— هذا شيء أصبح لا يفكر فيه أحد . ولا سيما داخل (الشواطئ) .

فقلت إصلاح في تأثر .

— من أجل ذلك أراك باقية على ارتداء هذا اللباس الفاضح في جرأة

ومباهاة رغم الذي كنت تسمعيه من أوامر الدين ؟

— لكن حديثي — ألم يكن الله هنا يراني ويراك ؟
— هو ذاك . لكننا في عصر يحتم علينا مجاراة التقاليد العصرية
والعمل بأقوال العصريين .

وهكذا تجديني لا أحرم نفسي من متع الحياة كما تحرمين ؟
فأشفقت (إصلاح) لما رأيته على أختها من ضلال . وذاب قلبها أسي
وحسرة وأطرقت لحظة صامتة . سمعت خلالها هائفاً يذكرها بالحديث
الشريف :

(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم
يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) .

فرأت أن ترشد أختها بمنطق الحق . لعلمها تعود بها الى الصواب أو
تتركها دون سخرية وانتقاد .
وعندئذ اقتربت منها قائلة :

— إسمعي يا (سوزى) . لا تظني أنني أحرم نفسي من متع كما تقولين
لكني أنقذها من العذاب الأليم .

فتعالى تتفاهم بصراحة تحت ضوء العقل والحق من أجل هذا الذي
تسخرين منه أنت وصديقاتك ومن أجل الذي تلبسن . وأنا على استعداد
لإطاعتك إذا كنت أنا مخطئة وأنت محقة .

فلما أجابت بالموافقة قالت :

— أنت تقولين أن الناس قالت هذا — والعصر يحتم ذلك .
وأنا أقول إن الرسول قال حديثاً . حرم فيه على المرأة دخول الحمام

الخارج عن بيتها ، ورخص به للرجال بالميازر . وليس بذلك اللباس
الذى نراه عليهم .

وقال فى حديث آخر :

(أيا امرأة تنزع ثيابها فى غير بيتها خرق الله عنها سترا)

وإذا فالحمام مباح للرجال فقط بشرط التستر وغض البصر ومحرم على
النساء لأن أمرهن مبنى على المبالغة فى التستر .

فأيهما تتبعين ؟ وعن أيهما تأخذين ؟

فأرادت أن تتخلص من الجواب الحق فقالت :

— لكن الناس قد اعتادوا أن يتمشوا مع ما أجمع عليه الرأى
وأنا مع الأغلبية .

ونظرت إليها لتسمع كلمة التراجع لكنها سمعتها تقول :

— إنك مخطئة ياسوزى . هذه نظرية لا يؤخذ بها إلا فى الأعمال
الصادرة عن عقل ودين . أما وللإنسان خلاف العقل — هوى يفسده ؛
وشيطان يضله . فكثيراً ما يجتمع الناس على ضلال لأتباعهم هوى نفوسهم .
فيقعون فى معصية الله ويحسبون أنهم على حق .

فهل أنت والأغلبية الآن على حق ؟ أم الله الذى خلقهم وخلق الحق
وأمر به — والباطل ونهى عنه — ومن أولى بالإتباع ؟ الحق أم الباطل ؟
المخلوق أم الخالق ؟

وهنا وجدت (سوزان) نفسها مضطرة إلى الاعتراف بالحق فقالت :

— الخالق ليس فى ذلك شك . ولكن . .

فقاطعتها (إصلاح) قائلة :

— يكفى هذا الإعتراف . . ولعلنى أجد من إقناعك تحييداً لما أنا عليه.
الآن . وتتركين لى حرية الدخول فى شواطئ (بلادنا الإسلامية) مرتدية
ما أشاء من الملابس التى تناسب ديننا وتقاليده دون خوف من لوم أحد .
وفى هذه الملاحظة رأت (سوزان) زورق الرفقاء ، وقد ظهر على بعد
فلم تجب على أقوالها . بل أشارت إليهم وأشاروا إليها بالإنضمام .
ولاحظت (إصلاح) أنه لا فائدة من أقوالها لأختها فكتفت بما فى
الحديث من استنكار بالقلب . ثم استأذنت من أختها معذرة بالذهاب مع
زوجها للرؤية الوالد المريض بالمنزل .

وألقت (سوزان) نفسها فى أحضان الموج الضاحك .
وسرعان ما وصلت إليهم سابحة وانضمت إلى زورقهم فى سرور .

وفي عصر ذلك اليوم أتت (يسرية) مع والديها للاستفسار عن صحة
الطبيب المريض .

وكانت (إصلاح) وقتئذ تتناول الشاي في (جوسق) حديقة المنزل
مع أختها (سوزان) ، وقد ارتدت ثوباً طويلاً (روب) له (بذقنة)
مقفلة حول عنقها ، ووضعت على رأسها (إشارب) لفته على شكل عمامة
حجبت أذنها وأعلى عنقها من الخلف .

ولم تكذب (يسرية) تعلم من البستاني بوجودها في الحديقة حتى
أسرعت إليها وقبلتها في شوق .

وعلى المقعد المواجه لها، جلست بالقرب منها وراحت تقول في بسر وسرور
— مفاجئ — يا (إصلاح) . . متى جئت ؟

— لقد جئت في الصباح . ثم أرسلت الخادم إليك . لكنه لم يجده .

— معذرة فقد كنت في زيارة صديقتي (سنية) . ومن الغريب

أننا كنا نتحدث عنك اليوم .

— الأستاذة (سنية) ! يا لها من فتاة رشيدة . كيف حالها ؟

— على أحسن حال . وهي لم تزل تشتغل بالمحاضرة إلى الآن وقد

سألتني عنك كثيراً ، وأثنت عليك ثناء عاطراً أمام زميلة لي بكلية الآداب

كانت في زيارتها اليوم

وهنا قطعت (سوزان) عليهما الحديث قائلة (ليسرية)

— لقد باغى نبأ عزمك على ترك الكلية . فهل هذا صحيح ؟

فاتجهت يسرية إليها وقالت :

- نعم صحيح وسأمتنع عن الذهاب إليها من ابتداء العام الدراسي الجديد

فعلت الدهشة وجه (سوزان) لما سمعته منها .. غير أنها عادت وتذكرت
شدة استنكار أخيها (حسين) لاختلاط الفتيات بالشبان في الجامعة فقالت :
— لرغبة أخفى .. أليس كذلك ؟

— بلى ... ولما فهمته أخيراً من وقوع المرأة المسلمة تحت ظلم نفسها.
بسبب مشاركتها للرجل في وظائفه الخاصة به . وقيامها بالأعمال الخارجية
عن دائرة البيت .. على أنني لست في حاجة مادية تلجئني إلى حمل عناء هذه
المشقة ومسئولية ذلك الظلم .

فلمعت عينا (سوزان) يريق الأسف والدهشة . فقد تذكرت
ما كانت عليه (يسرية) أيام اشتراكها معها في جمعية (المجاهدات في سبيل
الوطن) وقالت :

— ماذا تقولين يا (يسرية) ؟ إنني ما كنت أرى بك سماع هذه
الأفكار الرجعية . وقد كنت وأنت في (جمعيتنا) أول مطالبة بوجوب
مساواة الجنسين في الأعمال ووجوب منح المرأة حق الانتخاب . والحقوق
السياسية و ..

فقاطعتها يسرية قائلة :

— لقد كنت مخطئة حينما كنت أفعل ذلك . أما الآن فأرى أنه
لا بد للرجال من تحمل هذه الأعباء الخارجية وحدهم — قياماً بواجبهم .
وحماية للمرأة من ذلك الظلم الذي ستجره على بناتها وأحفادها من بعدها
أحقاباً طويلة .

فزاد دهش (سوزان) واشتدت رغبتها في معرفة الدافع لها على
ذلك فقالت متسائلة :

— ومن أين جئت بهذه الأفكار المخطئة ؟

ثم لم تنتظر الجواب بل نظرت إلى (إصلاح) كمن اهتدت إلى ضالتها
وقالت :

— آه . . . لقد عرفت المصدر . لا بد أنها (إصلاح) هي التي
أوحى إليك بهذه الأفكار الرجعية ! ... لكن لماذا ؟ وقد كانت أسبق
منك إلى المطالبة بهذه الأعمال ؟

فتجاوزت (إصلاح) عن هذا التهم ونطقت عيناها بما يؤكد
ظنون أختها

وعندئذ بدا على (سوزان) اهتمام كبير بهذا الموضوع - وفي نبرة تحوى
معانى الدهشة والحيرة قالت لأختها متسائلة :

— ترى ما الذى حدا بك إلى هذا الذى أوعزت به إلى (يسرية) ؟
وهل لك أن تعرفنا أسباب هذا الاعتقاد لعله يتبين لنا صواب ماتدعين ؟
فاقتربت (إصلاح) بمقعدها نحوها وقالت :

— لكى أروى لك الأسباب . . أرى أن تصغى إلى قليلا دون
سخريّة أو مقاطعة أو تهكم .
فلما وجدت منها موافقة وإصغاء قالت :

— حقاً . لا أنكر أننى كنت أول المطالبات بوجوب مساواة
الجنسين فى الأعمال . ووجوب منح المرأة حق الانتخاب والأعباء السياسية
التي يمارسها الرجل وحده - وذلك لأننى كنت أعتقد بأن المطالبة بهذه الحقوق
إنما هى تحقيق لما قرره الإسلام من المساواة بين الجنسين فى الأعمال .
ولكن عندما بدأت أدرس (الشريعة الإسلامية) دراسة حقة
فهمت إجمالاً أن الإسلام يرمى فى جميع أغراضه إلى منع اختلاط المرأة

بالرجال الاجانب عنها . . فدهشت لهذا التناقض وساءلت نفسى .

— كيف يمكن أن يجمع هذا الدين الذى لا اختلاف فى أحكامه بين تحريم اختلاط الفساء بالرجال . وبين مانزاه من مشاركة الجنسين فى الأعمال ؟

ومع اعتقادى بأن (آفة فهم الدين الجهل) فإنى لم أجد من نفسى جواباً مقنعاً

لذا لجأت إلى (أستاذى) أستشيريه فى هذا الالتباس وأستوضحه الرأى فيه .
وما أشد تقديرى (لذلك الدين) عندما أجابنى (الأستاذ) بأن المساواة بين الجنسين التى جاء بها الإسلام . لم يقصد منها المساواة بينهما فى الأعمال . إنما يقصد منها المساواة فى المعاملة فقط .

حيث كانت المرأة قبل الإسلام منبوذة من الرجل مهملة . .
ثم تابع الأستاذ شرحه فقال :

— فلما جاء الإسلام : أوجب على الرجل أن يعامل المرأة بما يحب أن تعامله به بعد أن كلفه الانفاق عليها؛ وحمايتها . وإصلاح ما عوج من أخلاقها نظير طاعتها له فى تنفيذ أوامر الله ورسوله .
ومع أن هذا الجواب قد أزال ما كان فى نفسى من شكوك . إلا أنه لم يكن كافياً لفتاة مثلى . نشأت على الاعتقاد . بوجوب مساواة الجنسين فى الأعمال .

فطفقت أسأله بعد ذلك عن الأعمال التى كلف بها كل من الرجل والمرأة فى هذه الحياة على ضوء الرغبة فى تحقيق الدين .

وما هى إلا برهة وجيزة ، حتى اهتديت إلى ما كان خافياً عنى إذ

أفهمنى (الأستاذ) أن للمرأة أعمالاً . وللرجل أعمالاً لا تتجدد إلا فيما تطلبه الحياة الآخرة لأن العيش فيها لا يخرج عن نعيم مقيم أو عذاب أليم .

أما الحياة الدنيا فنظراً لاتساع مرافقها وكثرة مطالبها واتقسامها إلى بيئة داخلية (البيت) وبيئة خارجية — فإن العمل فيها يحتاج إلى توزيع بين الجنسين . وتعاون على النهوض بهاتين البيئتين . بيدين مختلفتين .

وكعادة (الأستاذ) فى طريقة شرحه لم يشأ أن يكتفى بذلك فتابع : — ولما كانت المرأة بحكم خلقها أضعف من الرجل جسماً وعقلاً وأعصاباً . وبطبيعة أنوثتها رقيقة لا تتحمل أعباء الحياة الخارجية الشاقة وجسامة مسؤولياتها الخطيرة . كانت أعمال البيئة الداخلية على كثرة مطالبها . وعظم مسؤولياتها — أهون البيئتين مشقة بالنسبة إلى أنوثتها . وأليقهما لكرامتها . وصيانة شرفها وحمايتها .

ثم ختم (الأستاذ) حديثه قائلاً :

— هكذا جرت سنة العدل الإلهى . وبهذا حكمت الشريعة الإسلامية وعندئذ ذابت نفسى أسى وحسرة من أجل المرأة الحالية : وما وقعت فيه من ظلم وإرهاق .

وما انتهت (إصلاح) من حديثها حق ران على (سوزان) صت خلقتها الرغبة فى متابعة الضال . وتشاغت بتقديم الشاى إلى (يسرية) . أما يسرية فإنها ما كادت تستبين حقيقة وظيفة المرأة فى الحياة وتعرف منزلتها فى الاسلام حتى أخذتها الشفقة بها بعد أن لمست مدى الظلم الذى وقعت فيه وفى نظرة تحوى بريق الأسف والإشفاق قالت :

— لحف نفسى على المرأة المسكينة . لقد ظلمت نفسها بأداء عمالين .

عملها الذي خلقت من أجله كآثي . وعمل الرجل الذي شاركته فيه . .
وما أرى في ذلك إلا نوعا من الرجوع بالمسلمات إلى (عصر ظلم النساء
قبل الإسلام) .

ثم اتجهت إلى (سوزان) وقالت :

— أرايت يا (سوزي) كم كنت محقة في تركي الكلية وتحرير
نفسى من ذلك الظلم الذي وقعت فيه المرأة الحالية . أو العصرية كما تسميها ؟
ولما لم تجب « سوزان » تابعت . يسرية قائلة :

— ما بالك صامئة لا تكلمين وقد كنت من لحظة ترمينى و (إصلاح)
بالرجعية والتأخر . . بيد أننى الآن أخفر بتلك الرجعية على أنها الرجوع
إلى الحق وإنصاف المرأة ونجاتها من ظلم محقق .

وكانت (سوزان) لما تزل منصرفة عنهما بما أمامها فلم تجب على سؤالها .
وعندئذ تركتها (يسرية) . واتجهت إلى (إصلاح) متسائلة :
— (إصلاح) . ترى على من تقع تبعة ذلك الظلم ؟ أعلى المرأة ؟
أم على الرجل ؟

فأطرفت إصلاح لحظة ثم رفعت رأسها وأجابت قائلة :

— إننى أعتقد أن ظلم المرأة لنفسها جاء من جهاتها بتعاليم الدين وعدم
معرفة بما لها من حقوق؛ وما عليها من واجبات إذ ترى في ذلك انصافها
ومساواتها بالرجال :

أما الرجال (آباء . وأزواج — أو أخوة . وأبناء) فإننى أرى أنهم هم
المسئولون أمام الله عن نساءهم لعدم قيامهم بما كلفهم الله به في الآية الكريمة .
(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا
من أموالهم) .

إذ تركوهن يسعين على الرزق الذى كلفهم الله به دونهن . ومنحوهن حرية الاختلاط المفسد بالرجال — دون أن يراعوا حق القوامه عليهن . ثم أقت بصرها من خلال أسوار الحديقته إلى الشارع وكان (طريق الكورنيش) يعج بالغادين والرائحين . من النساء والرجال . هذا يسير مع تلك — وذاك يقدم زوجه إلى صديقه . وهناك ضحك يترامى إلى السمع من أفواه جماعة من الشبان والفتيات — فاستطردت مشيرة بأصبعها .

— إنظرى إلى هذا الرجل السائر بجانب هذه المرأة . إنه يبدو محتجبا لا يكاد يرى منه سوى وجهه ويديه .. أما هى فما يكاد يختفى من جسمها إلا القليل .. ثم انظرى نحو ذاك الذى يقدم زوجه إلى صديقه ومعارفه وهى بتلك الملابس الخليعة

أليس فى ذلك دليل قاطع على ما يقع على الرجل من تبعه ومسئولية ؟ ومع ذلك فالمرأة مسئولة عن نفسها . (يوم تأتى كل نفس تتجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون)

وفى تلك اللحظة أقبل (حسين وسامى) بملابس البيت (البيجاما) وكانا قد سمعا طرفا من حديث أختهما الأخير .

وبعد أن ألقيا التحية جلسا فى (الجوسق) معهن وبدأ (حسين) الحديث قائلا لاصلاح :

— أتنكسين عن المرأة ؟ ومن المسئول عما وصلت إليه من الظلم والتدهور الخلقى ؟

فقالت (يسرية) موجهة إليه الحديث :

— وماذا ترى أنت في ذلك ؟

فاعتدل في جلسته وأجاب قائلاً :

— إننى أشارك (إصلاح) فيما قالت من تحمل الرجل مسؤولية ذلك المظلم .. ولست ألوّم المرأة فى خروجها ومشاركتها للرجل فى أعماله مطلقاً فلو لم تفتح أمامهن أبواب العلم التى تؤهلهن للعمل مع الرجال ما تعرضن لمنافستهم .

ولو اقتصررت برامج تعليمهن على ما يناسب أنوثتهن ما فكرن فى مشاركتهم أعمال الدولة الخاصة بهم .

ثم نظرت إلى البحر وكان لم يزل يعج بالمستحمين والمستحمات وتابع مشيراً :
— ولو وجدن من أولياء أمورهن من يقوم أخلاقهن . وينغار عليهن ويحافظ على شرفه وشرفهن ؛ ما عرضن أجسامهن هذا العرض الرخيص على الشواطئ . وما سرن فى الطرقات كسيات عاريات . وما اختلطن بالرجال فى الحفلات والمجتمعات .

وما فرغ من حديثه حتى كان (سامى) قد بدأ يتناول الشاي والكعك وقد ظهر على وجهه نوع من التبرم بأقوال أخيه . أخذ يعبر عنه بحركات مضحكة .

ولاحظت ذلك (يسرية) فأتجهت إليه تطلب رأيه هو أيضاً
... فلم يكذ يسمع منها هذا الطلب حتى اعتدل فى جلسته . وفى حركة مضحكة ازدرد ما فى فمه عجلان مسرعاً وراح يقول :

— أتريدن رأيي الخاص ؟

ثم صمت وجعل ينظر إلى أخيه كمن يحاول إخفاء رأيه عنه — وأخيراً تشجع وقال :

— إننى أصدق أخى فى كل مقاله ... غير أنى أرى فى هذه الأقوال ما يخرمنا من رؤية الجنس الناعم وسحره الفتان ويبعدنا عن سماع أحاديثهن المذبة . . وهذا مالا اعتاده ولا يتحملة شخصى الضعيف أبدا . أبداً .

وكان يعبر عن أقواله بحركات مضحكة تحوى معانى الاستهتار وعدم المبالاة

فضحكت الفتيات من حركاته — أما (حسين) فإنه نظر إليه فى استخفاف وجلجل فى المذيع صوت المؤذن بصلاة المغرب فقام (حسين) وصلى إماماً وصلت خلفه (خطيبته) وأخته (إصلاح) داخل الجوسق على حين شغل (سامى وسوزان) بما أمامهما من الحلوى والقطاير .
وما انتهت الصلاة حتى سمعوا صوتاً ينادى من بعد :

— صو . صو . .

فعرفت (إصلاح) فيه صوت زوجها فصاحت فى صوت رقيق :

— نحن هنا . . تعال يا (محسن) .

فأقبل (محسن) وبعد أن حيا الجميع قبل زوجه وجلس إلى جوارها .
. . ثم أقبلت (زينات هانم وعنايات هانم) وقضى الجميع سهرة ممتعة تحت ضوء القمر فى الحديقة .

ونراى إلى سمع (إكرام) وجود صديقتها (إصلاح) بالشاطيء في نفس اليوم الذى حضرت فيه .

وسرعان ماذهبت إليها في (الكابينة) غير أنها لم تجد أحداً هناك .
فقد كانت (زينات هانم) تسبح وقتئذ في البحر مع (صفوت بك) .
عند ذلك فكرت في زيارتها بمنزل أسرتها القريب من ذلك الشاطيء .
وفي عصر اليوم التالى قرع الجرس في منزل الأسرة — وحينما أقبل
الخادم النبوى قالت الزائرة :

— لعل (إصلاح هانم) موجودة الآن ؟ أبلغها أن (إكرام)
جاءت لزيارتها .

وماهى إلا برهة وجيزة حتى أقبلت (إصلاح) مرحبة في فرح بهذا اللقاء .

وما ان جلست بالقرب منها حتى راحتا تعيدان ذكريات عزيزة عليهما
في نشوة وسرور .

وبينما هما في الحديث إذ أقبلت سوزان ومعها صديقة لها .
وهى زميلة معها في جمعية (المجاهدات في سبيل الوطن) .
وكانت كل منهما ترتدى ثوبا قصيرا لا يكاد يغطى أعلى الركبة وفي
أتم زينة .

وعند دخولهما نهضت (إكرام) لتحيتهما .
وما ان جلستا حتى أخذت (سوزان) في الاعتذار قائلة :
— معذرة إذا لم أسارع إليك . . فقد كنت مستغرقة مع زميلتى في

موضوع هام . يدور حول مشكلة من أهميات المشاكل التي تهتم بها
جميعتنا هذه الأيام .

فما سمعت إكرام ذلك حتى تملكيتها رغبة شديدة وشعرت باهتمام زائد
لمعرفة هذا الموضوع الهام — وما لبثت أن قالت متسائلة :

— ترى ماهي تلك المشكلة الهامة يا سوزى ؟

فعلا السرور وجه سوزان لما رأته من اهتمام إكرام — وأسرعت بحجة

— إنها مشكلة تدور حول جلاء الأجانب عن أراضينا . وقد كنا

نقرر الآن نشر الدعوة إلى مقاطعة شراء البضائع الأجنبية . . كخطوة
هامية في سبيل استقلال بلادنا .

فصاحت (إكرام) في دهشة :

— مقاطعة شراء البضائع الأجنبية ؟

— أجل . . . وإني لأرجو مؤازرتنا في تحقيق تلك الأمنية .

فبدأ على (إكرام) عدم الموافقة ثم قالت .

— لست أعتقد أن هذه المقاطعة تأتي بالفائدة المرجوة ط . . .

فقاطعتها سوزان قائلة في دهشة

— ماذا تقولين ؟

فنظرت إليها وعادت تتابع .

— أقول إنني لا أرى فائدة من تلك المقاطعة — طالما أن هناك أسراً

آخر أكثر رواجاً وأشد خطراً .

ففغرت (سوزان) فاهها دهشة ؛ ثم صاحت مستفهمة .

— لم أفهم — فماذا تقصدين ؟

— أقصد أن مقاطعة التجارة المادية وحدها . لا تكفى لتحقيق
استقلال البلاد .

أما التجارة التي يجب أن يكسدها سوقها . وأن يقاطعها كل غيور حريص
على استقلال بلاده فهي (البدع الأجنبية والتقاليد المخالفة لأوامر ديننا وتعاليمه)
التي تصدر إلينا مع كل فجر جديد .

فنظرت إليها (سوزان) دهشة ثم صاحت بخالفة .

— وما علاقة هذا باستقلال البلاد ؟ إنهم لا يصدرونها إلا للفخر والمباهاة
لأشياء آخر .

فأجابتها في وثوق :

— لا تظنى هذا .. فهناك أكثر من ذلك .

— عجبا .. وماذا عسى أن يكون ؟

— إننى أعتقد أن وراء نشر تلك البدع خفاً منصوباً لاستعبادنا والقضاء
على ديننا .

فلمعت عينا صديقة (سوزان) بريق الارتياح — على حين استمرت
إكرام ، فى حديثها قائلة :

— وما دمنا قد وصلنا إلى درجة عظيمة من الثقافة والتنور ؛ فلا
ينبغى لنا أن تقع فى ذلك الفخ المعد لاقتناصنا .

وكانت صديقة (سوزان) تستمع إلى حديثها باهتمام . وكأتما تفتح
أمامها فجأة عالم مغلق .

فما انتهت (إكرام) من حديثها حتى صاحت فى إكبار .

— يالك من فتاة ذكية يا (إكرام) وإنه ليدولى الآن أننا قد اهتدينا

إلى المفتاح السرى الذى يجب أن تعالج به جميعتنا تلك المشكلة الخطيرة .
بعد أن كنا عنه غافلين .

فما كادت (سوزان) تسمع ذلك من صديقها حتى أحست كأن حجرة
مست فؤادها وقالت فى خبث :

ولكنى لا أعتقد أن هذا الرأى من السهولة بحيث يمكن الأخذ به
فى هذا العصر .

فأسفت (إكرام) لهذا الاعتقاد وقالت :

— لماذا ؟ أذلك لأن كثيراً ممن قذف بهم هذا التيار فى لججه يخشون
ألا يشار إليهم بالمدينة . فيسيرون وراء تلك التقاليد المخللة دون مراعاة
لحدود دينهم ؟

على أننى لفى عجب من أن كثيراً من فتيات هذا العصر . يعتقدن أن من
مظاهر المدينة . التفاخر بأنهن لا يعبان بالدين ؛ ولا يسن على تعاليمه . ويتباهين
بلبس الملابس القصيرة العارية فى خروجهن جريا وراء التقاليد الغربية
ويسخرن ممن تخالف ذلك وتتبع أوامر الدين .

فأفلت من (سوزان) ضحكة ساخرة فقد تذكرت ملابس أختها
وهى على الشاطئ . أمس ثم قالت :

— أذلك لكونك ترتدين الملابس الطويلة والخمار مثل (إصلاح) ؟
ألا ترين أن هذا الشذوذ يعرضنا لسخرية الأجانب واستهزائهم .

فأجابت (إكرام) قائلة فى حماس :

— لا يا أختاه .. فلست أرى مآثرين .. إننى أرى من العار . أن يدخل
الزائر الأجنبي (بلادنا مصر) رمز العروبة . وحاضرة (البلاد الإسلامية)

فلا يمكنه أن يميز بين نساءها المسلمات ؛ وبين الأجنبية . فيما يلبسهن ويعملن
وهذه بلادهن وأوطانهن .

فبدأ على الصديقة روح الاقتناع والمواقفة - وقالت موجهة الحديث
إلى (سوزان) :

— الحق أن هذا رأى صائب .. يجب ألا نهمله بعد أن لاح في أفقنا .
وبما أن الواجب يحتم علينا التضحية بالرغبات فمن الحتم أن نتخذ للخروج
زيا مناسباً لتقاليد ديننا . كي تتميز به عن الأجانب ويكون رمزاً لقوميتنا
وعنواناً لاستقلالنا .

فما أن سمعت (سوزان) ذلك حتى ضحكت ضحكة عالية أودعتها كل
ماتحمله من بغض وسخرية بهذه الأقوال - ولاحظت ذلك (إصلاح) فأسفت
لما رآته من تشبث أختها بالتمسك بالتقاليد الغريبة . ثم قالت موجهة
الحديث إليها :

— إلى متى (ياسوزى) تسخرين من أوامر الدين وما تتطلبه عاداته
وتقاليده ! أرايت إن عادت (موضة) ارتداء (الملابس الطويلة) من
البلاد الأجنبية - ألا ترتدينها حينئذ وتصير لديك أجمل من هذه الملابس
القصيرة ؟ أما وقد جاء بها الدين من قبل . فهي أضحوكة في نظرك . فهلا
تخبريننى عن سبب اهتمامك بإخراج الأجانب وجلائهم ؟
فأجابتها فى حماس :

— السبب واضح والأمر معلوم . وما ذلك إلا لى نعيش أحراراً فى
بلادنا ؛ غير عبيد لغيرنا .

فبدت الدهشة على «إصلاح» من تناقض أقوال أختها وقالت متسائلة :

— كيف تقولين ذلك . وأنت من لحظة تتقدمين (إكرام) في اتباعها
أوامر دينها وفي اتخاذها الزى الذى يناسب تقاليده . خوفاً من سخرية الأجانب
وانتقادهم ، وأراد دائماً تحبذين اتباعهم في جميع تقاليدهم الخلية . وأعمالهم
الشاذة ! ألم تكن هذه عبودية لهم ؟ وأليس هذا الاتقياد يخترنا في نظرهم .
ويجعلهم ينظرون إلينا نظرة القوى إلى الضعيف . والسيد إلى المسود .
والمتبوع إلى التابع ؟

ثم اتجهت إلى الباقيات واستطردت بصوت يعبر عن إخلاص وأسف .
— وإننى لو ائققة كل الوثوق فى أن ترك أوامر الدين والاشياد وراء
البدع الفاسدة . لمن أهم الأسباب التى تسهل السبل لاحتلال البلاد وعدم
استتباب الأمن والرخاء .

(وما كان ربك ليهالك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .
وما انتهت من حديثها حتى صاحت الصديقة موافقة .

— قول حق . ومنطق حكيم .. وإننى لأعجب الآن كيف كنا نفكر
فى مقاطعة البضائع . قبل أن نفكر فى مقاطعة البدع والتقاليد . مع أن
مقاطعة تلك التقاليد . أهم من مقاطعة البضائع وحدها . أوهى مقاطعة للبضائع
نفسها . إذ أن معظم تجارة الأجانب مرتبط بروجها باتباع كثير من
تقاليدهم وأعمالهم .

وإلى هنا لم تطق (سوزان) صبراً على سماع مثل هذه الأقوال وخشيت
على صديقتها من تأثير (إصلاح) عليها فأرادت أن تقلل من أهمية أعمال
أختها وأقوالها فأتجهت إليها وقالت :

— إن من يسمعك يا (إصلاح) ليخيل إليه أنك بعيدة كل البعد عن إتيان

شيء من تلك التقاليد - مع أن الواقع غير ذلك . ولو وجهت إليك الآن
بعض أسئلة امام صديقتينا . لظهر لهما صدق ما أقول .
فبدت الدهشة على وجهي الصديقتين ؛ ونظرتا إلى (إصلاح) التي أجابتهما
في هدوء :

— إنني على استعداد لكل ما تسألين ؟
وعندئذ قالت (سوزان) في تهكم .

— إذا كنت حقاً تحافظين على التقاليد الاسلامية دون سواها . فلم
تظهري بمظهر الغنى والثراء في ملبسك وأعمالك ؟ ولاتظهري بمظهر
الزهد والتقشف ؟

فعجبت (إصلاح) من ذلك الاعتقاد الذي يسىء إلى سمعة
الاسلام - وقالت :

— لا يا أختاه ... إنه ليس من تعاليم ديننا الظهور بهذا المظهر الذي
تصورين !

ويجب أن تعتدي أن ديننا يرى من هذه الصور البشعة التي يصورها
أعداؤه والجاهلون بتعاليمه من قذارة ومظهر الفقر والبخل .. ويدلك على
ذلك قوله عليه الصلاة والسلام .

(إن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده) .

فلو أنك فهمت حقيقة هذا الدين . واهتممت بدراسة كتاب الله
وسنة رسوله . لما وجهت إلى مثل هذا السؤال الشائن .

فصفت الفتاتان علامة النصر ونظرتا إلى « سوزان » في تحد .

ولكنها أصرت على متابعة سؤالها بغيره - فقالت متحدية .

— ما قولك في نظام المائدة القريية . الذي تنبئ به ؟ ولماذا لا تأكلين
بيدك كما كان يأكل الرسول والصحابة الأولون ؟ ألا يعد هذا اتقياداً لأفعال
الأجانب واتباعاً لتقاليدهم ؟

وما انتهت من سؤالها حتى ساد الحجرة صمت شامل وأرهفت الأسماع
في شوق وإهتمام . شأن من ينتظر الخذلان من مرتكب الأثم .

ولاحظت (إصلاح) ذلك التحدى . فرأت أن تجعل أجابتهما بمنطق
البرهان . حتى يكون الحكم في النهاية لهما . أو عليهما . ثم أجابت قائلة :

— مهلا ياسوزى... إن أدوات الطعام التي نستعملها في هذا العصر .
لو وجدت في عصر (رسول الاسلام) لاستعملها وأمر باستعمالها . لأنه
عليه الصلاة والسلام . ما ترك من الأعمال إلا ما حرم الله . وما عمل إلا بما
أمر به . أما مثل هذه الأشياء . مما ليس فيها تحريم ولا تحليل . فليس في
العمل بها ما ينافي ديننا . أو يعتبر تقليداً لغيرنا .

ونظرت إليهن . ثم راحت تتابع .

— ولقد جرت القاعدة الأصولية في الشرع .. أن ما أمر به (الرسول)
نأتى منه ما استطعنا . وما نهانا عنه يجب أن نتجنبه . وما سكت عنه فهو
مباح ما لم يكن في العمل به ما يضر بصالح العباد أو ينافي تعاليم الدين .
واتجهت إلى سوزان وتابعت .

— ولما كان في استعمال أدوات المائدة كثير من الفوائد الناتجة عن النظافة
التي يأمر بها هذا الدين . كان لابد لنا من استعمالها . طاعة لديننا . وليس
تقليداً لغيرنا .. فلماذا نسيء فهم أحكامه ؟ ونخط من كرامتنا ؟
ثم ختمت حديثها بقولها .

— ولقد قلت لك ماقلت — لكي أطلعك على ناحية هامة من نواحي ذلك الدين، الذي لو عرفنا قدره، وسرنا على تعاليمه، لسدنا العالم، ولنعلمنا بعبادة العارفين؟

فسمعت (سوزان) في شبه حجل — ولاحظت ذلك الفتانان فلم تردا إخراجها — واكتفتا بتوجيه الشكر إلى «إصلاح» وبتهنئتها على هذا النصر! وأقبل الخادم في تلك اللحظة بالحاوي والمرطبات فغيرت (سوزان) الحديث، ثم أرخت الليل ستاره، فاستأذنت الفتانان في الانصراف! وبعد خروجهما جاءت (يسرية ووالدتها) لتودعا (إصلاح وزوجها) بمناسبة سفرهما صباح الغد.. فقضى الجميع السهرة معهما.

وما يذكر في تلك الليلة عن (إصلاح ويسرية) أنهما لاقتا من (سوزان) كثيراً من القند والسخرية بسبب ما هما عليه من التمسك بأهداب الدين كما هي عادتها كلما رأتهما.

ولكن من حسن الحظ أن «محسناً» لم يشعر بشئ من هذه السخرية وأنهما قد سافراً وهو لم يزل يعتقد في زوجته «فتاة النصر والمدينة الحديثة».

غير أن القدر كان واقفاً ليكشف له يوماً عما غفل عنه.

— فيا ترى متى هذا اليوم؟

(لقد وصل العروسان . . فهما أيها الخدم وافتحوا أبواب الحجرات)
 هذا ما قاله بواب « فيلا » مصر الجديدة عندما أقبلت سيارة « محسن »
 وزوجه « من مصيف الأسرة » .

وسرعان ما أقبل (البستاني) وراح يعاونه على حمل الحُفائب ثم
 يدفعان بها إلى خدم المنزل وأغلبهن من النساء .

وكانت هذه أول مرة يدخلان فيها عشيها الجميل .

فتقدم (محسن) وأخذ بيد (زوجته) ومشى بجانبها في حديقة (الفيلا)
 الواسعة - وفي خطا وثيدة . اجتازا ممر الحديقة المرسوف وصعدا الدرج
 الرخامى ، ثم طافا بحجرات الطابق الأول وأبهائه وكانت كلها مفروشة
 بالطنافس العجمية والأثاث الثمين . .

ولم يطل بهما الطواف حتى ارتقى الزوجان فى نشوة ساماً خشيئاً
 مفروشاً بنوع من البسط - كان يتوسط (الفيلا) من الداخل - ويتجهى
 إلى بهو الطابق الثانى .

وقبل أن يدخل حجراته ، وقفا معجبين أمام (معزف) من النوع
 الحديث التصميم كان يتوسط الردهة الكبرى .

وما أن فتحا حتى جلست إصلاح على مقعده وراحت تحرك أناملها
 الرشيقة بمقطوعة موسيقية رائعة أطربت زوجها بسحرها الشجى - وكان
 عنهما قبلة حب وإعجاب .

وفي تلك الفترة السعيدة كانت الطاهية قد انتهت من إعداد الطعام

وتهيأت المائدة --- فزلا إلى حجرة الطعام، بعد أن طافا بحجرات النوم والزينة،
وما كادا ينتهيان من تناول الغداء حتى كانا قد شعرا بتعب السفر .
فاستراحا قليلا بالنوم .

ولابد أنهما سيصعدان بعد استيقاظهما لرؤية (حديقة السطح) الفخمة
أوعلى الأقل سيتناولان فيها (الشاي) عصر اليوم .

وفعلا قضى الزوجان بقية هذا اليوم متشائمين بين (حديقة) السطح
الجميلة؛ وحديقة المنزل ذات السور المرتفع . يلعبان ويتضاحكان كفراشتين
بين الأزهار .

وفي المساء . استبدلت (إصلاح) (بالروب دى شامبر) الذى كانت
ترتديه فى الحديقة أمام الخدم . (ثوب النوم) الحريرى المارى الذى يشف
عن جسم لدن فائن --- وأمست فى زيتتها الكاملة .

شكدا قضى العروسان أول أيامهما فى (فيلاهما الجديدة) .

ثم مشت حياة الزوجين بعد ذلك، سعيدة متشابهة مايقرب من ثلاثة
أشهر --- لايشوبها شائبة . ولايعكر صفوها معكر . لولاما كان يعترى (إصلاح)
من ضيق . كلما رأت زوجها بعيداً عن الاهتمام بأوامر الله . تاركاً فرائض
الصلاة .. وكانت كلما همت بتنفيذ ما عاهدت نفسها عليه من نصحه وإرشاده
عادت وفكرت فى التريث وتحيين الفرص .

وفى تلك الأشهر، كان (محسن) دائماً مع زوجته . لا يتركها إلا فى أوقات
عمله التى كانت تقضيها فى الاشراف على بيتها وقراءة كتب الدين . . فإذا
ما انتهى من عمله . باذر بالعودة إلى جتته . فيوجد حوريته تنتظره فى أمهى
(حالتها المنزلية) تفوح منها رائحة العطر الزكية . وفى أكمل زينة . فيطبع

على وجنتيها قبلة اعتادها عند خروجه من المنزل — وعند عودته إليه .
ثم يقضيان بقية اليوم مما . لا يخرج بدونها . ولا يرى إلا معها .

فكانا في بعض الأحيان يتنزهان بالسيارة في الخاوات البعيدة والأهرام
وكثيراً ما كانا يخرجان ليلا إلى الحدائق القريبة من منزلهما . فيتشيان
واليدان متمسكتان كعاشقين يتحدثنان ويتعاهدان على دوام الوفاء والحب
الزوجية . . أما مشاهدة دور الحياة والتشيل . فكانا يذعبان إليها كلما عرضت
من الروايات ما يوافق هوى (إصلاح) ويرضى ذوقها .

وهكذا أمضيا أشهر الصيف في هناك ؟

— فياترى ما سيكون في الشتاء ؟

إنقضى الصيف بتمه ومباهجة . وخلصت الشواطئ من بهجتها ومرحها
بعد أن أخذ المسيفون يعودون تبعاً إلى بلادهم .
ولما لم تتحسن صحة (شاكر باشا) طوال أشهر الصيف عزمته أسرته
على العودة إلى القاهرة .
غير أنه حدث والأسرة تستعد للسفر أن فوجئت بموت (عنايات هانم
والدة يسرية) .

فكان لهذا الحادث الفاجع . وقع أليم في نفوس الجميع . وبالأخص
(حسين) فقد أصبح شغله الشاغل . أن يستكمل على عجل مراسم الزواج
حتى لا تترك (خطيبته) منفردة بأشجانها ووحدها .
ومن أجل هذا تأخرت عودة الأسرة بضعة أسابيع . ثم فيها زفاف
(الخطيبين) دون حفل أو دعوة أحد .
وفي أمسية من أمسيات أواخر أكتوبر . عادت الأسرة من مصيفها
إلى قصرها بالزمالك .

ولكن تشاء المقادير أن يأتي مع عودتها شقاء (تحسن وإصلاح)
وأن يخرج القدر عن صسته ليطلع (الزوج) على ما قد يكون سبباً في
انهيار سعادته الزوجية .
— فما سبب ذلك ؟

— لقد حدث غداة حضور الأسرة من مصيفها أن ذهبت (إصلاح
وزوجها) للسلام والاطمئنان على صحة الوالد . وتصادف أن كان هناك
شوقي (خطيب سوزان) فلم تشأ (إصلاح) أن تخلع خمارها عن رأسها

أو معطفها الذي كانت ترتديه ، رغم إلحاح أختها في ذلك .
وبعد الغداء اجتمعت (إصلاح) بوالدتها وأختها - وأخذن في الحديث
في حين جلس (محسن) مع سامي وشوقي - وراحوا ياصفون
(الكسكان) بالقرب منهن .

ومن الغريب أن الحظ كان حليف (محسن) في ذلك اليوم فاستولى
عليه سرور الكسب . وبلغ به الفرح مبلغاً لم يشعر به من قبل .
ولكن القدر الذي تركه ينعم باللذات . ويحاضر بكراهة الدين
والتديّنات ، أراد أن يكون بدء التقصاص منه في نفس اللحظة التي شعر
فيها باستكمال سعادته .

حيث تراهى إلى سمعه بعض ألفاظ تنبئ عن السخرية والتهم كانت
موجهة إلى زوجه من (سوزان ووالدتها) لتعجبها بالبحار - أمام خطيب أختها .
وما أشد الدهشة التي استولت عليه . واثم الذي امتحود على نفسه
عندما سمع من بين دفاع زوجه . بعض الآيات القرآنية والأحاديث الدينية .
على أن هم لم يكن هذا (الحمار) نفسه . ولكنه أيقن في تلك اللحظة
بأن زوجه من صنف التحفظات اللاتي كان يكره الزواج منهن .

ثم حدثه قلبه بأنها لم تخرج بهذا (الحمار) إلا من أجل ذلك التحفظ
وليس من أجل نظام الجمعية . أو حب الظهور كما كان يعتقد .

عند ذلك اتبادر القلق ، وأحاطته الوسوس . ثم أرفف سمعه ثانية .
ولكنه لم يستطع أن يسمع بعد ذلك من أحاديثهن المختلفة - سوى عزم
(زوجه) على الذهاب إلى منزل أخيها (حسين) لتعزية (زوجه يسرية)
في والدتها .

ولم يعض كثير من الوقت حتى كان هو وزوجه . يقومان بواجب
المزاء والزيارة .

وهناك جلس شارده اللب واجما . وقد ظنت زوجه أنه يشارك
(يسرية) في مصابها .

ولكنها لو كشفت عن دخيلة نفسه في تلك الجلسة . لرأت أن مصابه
فيما سممه منها اليوم — أشد من مصاب (يسرية) في والدتها .
وهكذا تغير (محسن) وتبدل دون أن يشعر به أحد .

وما انتهت الزيارة حتى عادا إلى منزلها . ولكن (محسن) لم يعد
بتلك النظرة التي كان ينظر بها إلى زوجه من قبل . أو بتلك السعادة التي
كانت تلازمه قبل ذهابه إلى أسرته . وإنما رجع مبلبل الخاطر مشغول
الفكر .. وبات حائراً يفكر فيما سمع ؛ ثم أصبح قلقاً — ومن ذلك اليوم
شعر برغبة قوية في مراقبة أعمال زوجه؛ وملاحظة ما كان غافلاً عنه . دون
أن تشعر .

وتمضي أيام قليلة وإذا (بمحسن) وقد رفعت الغشاوة عن عينيه
يرى في زوجه — غير ما كان يحب أن يراه ، ويسمع منها غير ما كان يعتقد فيها
ثم يتأكد لديه أن تلك الفتاة التي كان قد رآها في (الأوبرج) وخطبها
من وسط (نادى العصريات) وبين حفلات اللهو — إن هي إلا واحدة
من كان يخشى الوقوع في زواجهن .

لقد كان (محسن) يرغب الزواج من المرأة غير المتدينة . كي ينعم معها
بملاهي الحياة ولداتها . ولتتمشى مع ميوله . وتستقبل أصدقاءه كما يستقبله

زوجاتهم . وتشرب بدمعه الحمر . ولا تمنعه لعب الميسر . وتنتقل معه بين أماكن
اللهو التي نشأ على حبها .

أما وقد تمكشفت له الآن حقيقتها ؟ فإنه لم يعد ذلك الزوج السعيد
الموفق في الحصول على الزوجة التي كان ينشدها .

وجلس (محسن) يوماً وحده بمكتبه . وأسند رأسه بين راحتيه .
وانصرف إلى خواطره يستعرض الصور التي كانت عليها (زوجه)
في الحفلة يوم أن خطبها ! ! . . . فجعل الشيطان يصور له كل ما كانت
عليه من مظهر الحياء والحشمة . . . عيوباً رجعية — ويوسوس إليه بالباطل ،
ويغريه بالضلال .

فإذا ما انتهى من تصوراته راح ينحى بالأذمة على نفسه :

— يا لغلطتي تلك الليلة . . . لقد كانت في أناقتها محتشمة ، وفي وسط
اللهو بعيدة عنه . وفي حديثها حية . . . لم تكن وهي توزع الورد كغيرها
من يقدسن الزهور ويأخذن الثمن — إنها لم تبتسم لي . . . حتى ولم
تنظر إلي . . . ليتني لم أصدق (حمدوحا) حينما قال لي . إن ذلك تيه وكبر .
لو كنت رأيته وقت ذاك بالعين التي أراها بها الآن — لسهل انتزاع حبها
من قلبي . إذ لا حياة لقلبي مع من لا تتفق ميولها وأهواؤها معه .

ومرت أمام عينيه أطراف حياته مع تلك الزوجه . . . فأنساه الشيطان
جميع أعمالها العصرية . وثقاتها العالية . وكل ما كان يراه فيها جميلاً . . .
ولم يذكره إلا بما أصبح يراه فيها من عيوب — وما كان يسمعه أحياناً
من أحاديث دينية .

إنه ليدكر أنها قالت له يوم أن رفض الذهاب إلى جده :

— (لن يدخل الجنة قاطع رحم) .

وفي الحشر يوم أن تافت نفسه إلى شربها :

— (من شرب الحشر سقاه الله من حميم جهنم) .

وأعجب من ذلك . أنه فهم الغرض الحقيقي من ارتدائها الملابس المحتشمة واختيارها لنوع مخصوص من أما كن اللهو والاصطياف — والآن فقط فهم سبب ممانعتها في مقابلة أصدقائه كلما دعاها إلى ذلك .

ونظر حوله بعد هذا التأمل الطويل . وكان كل ما حوله ساكناً يشمل الهدوء — إلى ذهنه الحائر ؛ وقلبه الشجي .

... إذا .. لقد تحقق (دعاء جد العائلة الأكبر) ... فيا لحظي العائر ..

وهنا تمثلت له صورة (ذات الدين) في شخص زوجه . فزادت أشجانه وطار في أمره . وساءل نفسه .

— كيف يمكن العيش مع زوجة أفكارها تخالف أفكارى ؟ وميولها لا تتحد مع رغباتى ؟ ثم ما هو الحل الذي يديم لى السعادة معها ؟

وكم تمنى في تلك اللحظة — أن لو كان (مدوح) بجانبه — يستجديه الرأي ويمده بالعون .. لكن أين (مدوح) ؟ — لقد انقطعت صلته به منذ نقل إلى الوجه البحرى .

ثم أطلق لنفسه العنان . وراح يكدح ذهنه ويستجدى عقله وإذا بالشیطان يهبط عليه مرة ثانية — يوحى إليه بالمنكر . ويرشده إلى الضلال .

وسرعان ما استجاب له . وكانت النتيجة أن عزم على حمل زوجته على
ترك ماهي متمسكة به من أواصر الدين .

وما وصل إلى هذا الحل حتى كان قد حان ميعاد إنصرافه من مكتبه
فاستقل سيارته قاصداً منزله — وقد أحس أن هذا العزم قد بعث في نفسه
الأمل وأعاد إليها الهدوء .

في الاقدار... لقد بات كل من الزوجين عازماً على تحويل الآخر عما هو
عليه من الأعمال والأهواء .
— فيأترى لمن النصر ؟

وما كاد يمضى يومان بعد عزم (محسن) على مقاومة (رغبات زوجته الدينية) حتى أرسلت (زينات هانم) تدعوها إلى حفلة خيرية كانت تقيمها في جمعيتها كل عام .

وكان (محسن) وقت وصول تلك الدعوة يستعد للخروج إلى مكتبه وكانت (زوجته) تجلس بالقرب منه . تقرأ له في إحدى صحف الصباح . فما كاد يستلم بطاقتي الدعوة من الخادم . حتى وجد أن الفرصة قد واثته وآن له أن يحمل (زوجته) على تنفيذ ما عزم عليه .

وسرعان ما التفت إليها وقال وهو يشير بالبطاقتين .

— لعل الوالدة قد سبقت إليك بهذا الخبر السار .

وكانت « إصلاح » مشغولة بالقراءة فقالت مستفهمة :

— ماذا ؟ وأي خبر ؟

فقال وكأنه يجهل أمر تمسكها بأوامر الدين .

— حفلة خيرية مساء الليلة من حفلات الوالدة الرائعة . ويسرني أن

أنعم بمرافقة زوجي الحسنة في هذه الحفلة

فرنت إليه باسمه في صمت ثم اسبلت جنونها كمن تستعيد ذكرى ماضية .

وما لبثت أن قالت معتذرة في هدوء .

— لقد سبق لي رؤية كثير من هذه الحفلات حتى ملتني وملتها ولم أعد

أشعر بأية لذة فيها :

وكان (محسن) يتوقع منها هذا الرفض — ولكنه أراد أن يتحدى

في تجاهله حتى يرى ما يكون من أمرها فقال ملاطفاً :

— مهما يكن بك من ملل فلا بد من ذهابك مسي الليلة .

وجلس بجانبها وراح يتابع متسائلاً .

— ألا ترين أن والدتك هي التي ترأس تلك الحفلة . وأنتك أولى مني

بالوجود فيها ؟

فتبسمت في استخفاف ثم قالت متسائلة :

— أعتقد أن والدتي هي التي ترأس هذه الحفلة ؟

فتطلع إليها في عجب من هذا السؤال وقال :

— وهل هناك شك ؟

— يؤسفني أن يخذلك هذا المظهر .

— أي مظهر ؟

— الواقع أن والدتي لم تكن سوى آلة تحريكها يد أجنبية تدير تلك

الجمعية ولولم تشعر هي بذلك .

فقال مدهوشاً :

— لم أفهم شيئاً ! فإذا تعين ؟

— أعني أن كل خطوة تخطوها تلك الجمعية — وكل بدعة تظهر في حفلة

من حفلاتها — لم تكن سوى ثمرة غرس فكه من الأجنيات المندسات فيها

بقصد النهوض بها . وهن في الواقع . لا ينشذن سوى هدم ديننا . والقضاء

على تقاليده . دون أن يخطر ذلك ببال أحد . وما سيقام فيها الليلة ما هو

إلا تحقيق لبعض آمالهن وأغراضهن

فشعر (محسن) بضيق مصدره اهتمام زوجه بالتقاليد الدينية ،

ولكنه تحامل على نفسه ولبس ثوب الخداع والمكر كي يحملها على

الذهاب معه فقال :

— لقد زاد شغفى لرؤية ما سيقام فى تلك الحفلة بعد قولك هذا
فلعلك تذهبين من أجلي فقط .
فقطعت إليه ثم قالت وقد تذكرت وعداً سابقاً منه :

— أما قاتلى منذ جئنا إلى (فيلانا) إنه لا يطيب لك رؤية شيء
من الملاحى والحفلات إلا إذا كانت تعرض ما يرضى ذوقى
وما يوافق اختياري ؟

فقال وقد تذكر عهدى الذى قطعه على نفسه .

— ولكنى منذ الآن أصبحت أرى ضرورة اتباعك لى فيما أريده
من متع ، وما أبغى من ملاذ .. أأست زوجك الحب الوفى . ومن حق ذلك ؟
فلم تك تسمعه يطالبها بواجب عليها — حتى تذكرت الأحاديث الدينية التى
كلفتم المرأة بطاعة زوجها — فتحركت فى نفسها عوامل الموافقة على ما أراد
لكنها ما كادت تهم بإجابة طلبه . حتى تذكرت ما فى هذه الطاعة من معصية
الله ومخالفة أوامره — فصمتت حائرة ... ماذا تفعل ؟ وأيها تطيع ؟ .

واستمرت هذه حالها حتى طرق ذهنها الحديث الشريف .

(لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

عند ذلك سكنت نفسها وعادها الهدوء واقتنعت بوجوب رفض
الذهاب معه .

وسرعان ما بدا لها أن تتفاهم معه فى صراحه حسباً للموقف — فطوت
الصحيفة التى فى يدها ونظرت إليه وانطلقت قائلة :

— إن من أسباب السعادة الزوجية . أن يكون بين الزوجين حب
ووفاء .. ولكن من سوء الطالع — أن يكون مع هذا الحب شيء من
فوارق الطبع واختلاف الميول — خصوصاً إذا كان هذا الاختلاف فى طاعة
الله من أحدهما ومعصيته من الآخر .

ثم استطردت مصممته العزم في قوه وصراحة :
— والآن يا عزيزي. قد آن لي أن أصرحك بأن هذه الطاعة الخالصة
لله هي التي تمنعني من الذهاب معك — إلى هذه الحفلة — أو إلى أي
كان يحتملني على ترك تعاليم الدين .

ولا تسل عن مقدار ما انتاب (محسن) من الهم إثر هذا التصريح
ولا تحاول أن تسمع منه الآن كلمة بعد تلك الصدمة العنيفة
وماذا عساه أن يقول وقد خاب أملاه فيما كان يرجوه من زوجه —
ورأى أمامه (ذات الدين) وجهاً لوجه .

إنه لم يتكلم بكلمة حتى ولم ينظر إليها . . . ولكنه قام غاضباً منهموماً
ولأول مرة خرج إلى مكتبه مطرق الرأس واجماً .

وهناك أخذ يفكر فيما سمعه من زوجه . وماذا يفعله تجاه هذا الاختلاف
ثم جعل من نفسه سائلاً ومسئولاً وراح يسألها ويجيبها :

— أأترك زوجي ؟ وهي الصفاء والوفاء . وهي أمي وأبي وكل مالي
في الوجود ؟

— إنني لا أستطيع ذلك .

— أستطيع أن أتساوى معها في آرائها ؟

— بالطبع لا يمكن ذلك لأنني لا أطيق البعد عن لذات الحياة المليئة
بالممتع وأما كن اللهو .

— لماذا لا أذهب بدونها إلى تلك الأماكن ؟

— لأنني رجل عصري ولا أحب هذا النوع :

— إذن ماذا أفعل أمام هذا الاختلاف الذي بيننا ؟

— لا حل لذلك سوى الاستمرار في الاحتيال عليها بشق الوسائل حتى تذهب معي الليلة ثم يسهل بعد ذلك ما أريد .

وعاد (محسن) إلى منزله . ودخل على زوجته — فوجدها بزيبتها المعهودة وابتسامتها المشرقة فقبلها كمعادته . ثم تناول معها طعام الغداء . وكان من عاداته النوم بعده — فأرجأ عزمه إلى ما بعد استيقاظه من النوم .

وعند الغروب استعد (محسن) للذهاب إلى الحفلة . وكانت زوجته وقتئذ في حجرة الاستقبال (بالطابق الأول) مع بعض زائراتها .

جلس ينتظرهما في البهو المؤدى إلى السلم حتى انصرفن .

وما كاد يراها صاعدة حتى ابتسم لها وأقبل عليها ملاطفاً .

وعلى الأريكة المجاورة للمعزف — جلس بجانبها كمن يريد أن يتحدث في أمر هام .

وما استقر بهما المجلس حتى أمسك يدها بين يديه ملاطفاً . ثم بدأ الحديث قائلاً في هودة ورفق :

— لقد فكرت يا عزيزتى فيما قلت في الصباح بخصوص اختلاف آراء الزوجين . وما يترتب على ذلك الاختلاف من شقاء الحياة الزوجية .

نخفق قلبها وخيل إليها أنها في ساعة حاسمة وتابع محسن قائلاً :

— وبما أن هذا الاختلاف بين زوجين متماثلين في التعليم والرقى

ومن عصر واحد فإنى أرى أنه من السهل إيجاد حل لدوام الحب والسعادة بيننا .

عند ذلك خشيت (إصلاح) أن يكون لزوجها قصد يخفيه

فقالت متسائلة :

— وماذا ترى في ذلك ؟

فخدجها بنظرة ذات مغزى وقال باسم :

— إني أرى وجوب تركك لهذه العادات الرجعية والتقاليد القديمة
ثم توقف فقد سمعها تتسم مقاطعة — عادات رجعية : وتقاليد قديمة —
يألها من ألفاظ خرقاء . تخرج من أفواه من لم يعرفوا قدر هذا الإسلام
وعظمته — ثم نظرت إليه وقالت قبل أن يتكلم .

— إنك (يا محسن) لخطيء في اعتقادك بأنني متمسكة بالعادات
الرجعية والتقاليد القديمة — إذ أن (الشريعة الإسلامية) أبجد الشرائع .
وتبعاً لذلك تكون تقاليدها أحدث التقاليد — ومن هنا ترى خطأ نسبة
هذه الألفاظ الخرقاء . إلى المحافظين على أوامر هذا الدين القويم .

وكان محسن قد شعر بما في أفوالها من حق . ولكن شيطانه كان
أقوى من شعوره — فلما لبث أن قال وقد اتخذ منهاجا آخر في الإغراء :
— قول حق — وإني لأعتذر عن تلك الألفاظ الخرقاء ؛ وأعود إلى
الحل الذي يديم علينا الحب والسعادة الزوجية ثم قال :

— (إصلاح) — إصغى إلى يعزيزني — إني أرى ضرورة إتباعك
لما يمتشى مع روح المدنية الحديثة ، والعصر الحاضر . خصوصاً وأنت في هذه
السن الصغيرة . فدعى ذلك يا حبيبتي للعجائز ؛ أولهن هن دونك في التمدن
والرقى . وتعالى تتحد معاً ، وتعاود على أن تمتنع نفسيهما في هذه الحياة المليئة
بالممتع واللذات . . . ترتشف من كئوسها . ونمرح في ملذاتها . وتنقل
بين مراقصها وملاهيها .

وهنا نطق فيها دون أن تشعر . . . تفعل كل هذا ؟
— نعم يا حبيبتي وأكثر من ذلك . وإني لعلى استعداد أن أبتاع لك

بأخرة على سطح الماء . نقيم فيها الحفلات . وندعو إليها الأصدقاء والصديقات .
ولن أضن عليك يا زوجتي المحبوبة . بما يناسب جمالك من الجواهر والملابس
التي تجمعني أفاخر بك جميع هؤلاء في الحفلات والمجتمعات ؛ ثم لا تنسى
أننا سنقضى الصيف بين ملاهى باريس (بعيداً عن ذلك الريف البغيض) .
فلا تخرجي هذا الشباب من تلك الملاذ الدنيوية . والسعادة الزوجية .
ثم أراد أن يزيد في الأغراء ؛ فربت في خفة على وجهها الجميل وقال
ضحكاً :

— وإننى لأعاهدك على أن تتبع أوامر الدين عندما تكبر ونصير
عجوزين . فماذا تقولين ؟

وكانت (إصلاح) تستمع إليه وهى ساهمة . تأسف لئلا تمسكه بمفاسد
المدنية ؛ واستسلامه لإغواء الهوى . وشد ما آلمها أن ترى ذلك الزوج المكلف
بإرشادها إلى اتباع أوامر الدين — يزين لها عمل المحرمات وترك أوامر الله .
فما كاد ينتهى من حديثه . حتى رأت أن الفرصة قد واثتها . وآن لها أن توظف
« عقله » وترشده إلى ما كانت قد عزمت عليه نحوه فبدأت حديثها قائلة :
تسألنى ماذا أقول يا محسن ؟ . وماذا عساي أن أقول بعد كل هذه
المغريات المخالفة لشريعة الإسلام وأوامره ؟

— إن السن يا عزيزى والرقى — لادخل لهما فى طاعة الله . والكل
عنده سواء . ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولو كان اختلافنا
لغير الله لا تبعثك فيما تريده وتهواه . . ولقد آن لى أن ألفت نظرك إلى
أمر طالما كان يشغلنى السكوت عنه .

نخفق قلبه ونظر إليها متسائلاً — فتابعت فى هدوء وإخلاص :
— ذلك هو . أننى وأنت يا زوجى من دين واحد . والذى فرض على طاعته

قد فرضها وأجبتها عليك أيضا . فلم لا تتحد سويا على طاعته . ويكون حبنا في الله أدوم وأقوى ؟

وكان محسن يستمع إليها في ضيق ووجوم . فما وصلت إلى هذا الحد من القول - حتى أحس كأن سهما أصمى قلبه لما في أقوالها من انهيار أمانيه . ثم أطرق صامتا وقد بدا على وجهه الغضب والتبرم .

ولاحظت ذلك « إصلاح » فاستطردت في أسى قائمة :

— ما كنت أحسب أن هذا القول سيضايقك ؛ وأنت الذي من حقه ارشادي . وعليه إصلاحي . ولكنني أردت أن تتعاون على طاعة الله . وأن يتم كل منا دين الآخر - ولقد ذقت حلاوة الايمان وامتلأ قلبي بنوره بعد أن تجرعت مرارة كأس الضلال . فما وجدت خيراً من نعيم الطاعة وأمل الثواب - ولو كنت آمل في ملاذ الدنيا ؛ لرقص قلبي لما سمعت . وتاقت نفسي لما عرضته على الآن .. لكن شيئا من ذلك لم يبلغ نفسي . ولم يهز قلبي . وما قيمة هذا المتاع الزائل . بجانب ما تأتئ به الطاعات . مما لا عين رأت ؛ ولا أذن سمعت ؛ ولا خطر على قلب بشر .

وإلى هنا رأيت وجومه يزداد وغضبه يكاد يتفجر فأرادت أن تدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة . لعله يعود إلى الصواب فتابعته :

— ومع ذلك فأنا لا أكرهك على شيء لا تريده . أو لا تندفع إليه من تلقاء نفسك . ولكنني أرجو ألا تكرهني على أمر لا يريده الله . وأن تكون لي الزوج المعين على عبور تلك الحياة الفانية بسلام .

وما انتهت من حديثها حتى نظر إليها غاضباً ثم قال في شيء من السخرية والتهمك :

... هذه الأقوال إن دلت على شيء - فإثبات تدل على روح متزمتة.

لا تليق « بزواج عصري » قد ارتشف من مناهل المدنية الغربية ونهل من ينابيعها قدراً جعلاً يخشى الزواج بمن تخالف ميوله ؛ وروحه العصرية .
ثم تذكر دعاء جده الأكبر - فاضطرب وقال فيما يشبه الندم :

— على أتى لا أنكر أنني قد اخترتك بنفسى من بين فتيات هذا العصر . وتزوجتك من والدتك باختيارى . لكن يظهر أن اختيار الانسان لا يمنع ما هو مكتوب له . ومقدر عليه .

وخرجت من صدره آهة عميقة . أعقبها صمت وإطراق .

رأت « إصلاح » هذا الانفعال فكادت عيناها تدمعان - وسمعت هذه الأقوال . فعز عليها أن ترى ذلك الزوج الذى كانت ترفض زواجه . يلقى على مسامعها ما تشم منه أنه خدع فى مظهرها عند زواجه . ولكنها تحاملت على نفسها ، وتغلبت على شعورها . ثم قالت فى شبه رضاء بالقدر :

— لن ألوئك الآن على ما تقوله . ولا على ما سمعته منك وإن كنت لأمة أحدا . فلا ألوئ إلا والذى . لا على أنها جمعت بين طرفى تقيض « فكل شيء بإرادة الله » بل على أنها لم تطلعك على حقيقة أمرى — وتمتعت فى نبرات خافتة :

— سألها الله فقد كانت ترى فيك الزوج الذى يرد إلى نعيم الحياة . وكانت تتكلم بصوت كأنه لحن حزين — توحى نبراته بالألم ، وتدعو إلى الرثاء .

فلم يكده يسمع ذلك حتى غلبه حبه وزال عنه بعض ما به . ثم اقترب منها مدفوعاً بعامل الحب والأمل وقال فى شبه اعتذار :

— « إصلاح » . . . أنت ضرورة لحياتي . . . وما قلت كل هذا
إلا لأطلعك على بعض خفايا نفسي ؛ ولدوام الحب بيننا . ولكن
أصرارك هذا . وعدم ذهابك معي الليلة . سيهدم سعادتنا ويحتملني
على أن آخذ ما لا تحمد عقباه .

وكان الليل قد أرخى ستاره ، وميعاد الحفلة يقترب . فعاد إلى الإلحاح
عليها — وتمسكت بالرفض .

وعندئذ ثارت نفسه — فارغى وأزبد . وهدد وأوعد ؛ ثم قام يذرع
الهمو جيئة وذهابا .

وما لبث أن وسوس إليه الشيطان بخاطر ارتاح له — ولأول مرة
خرج من المنزل لغير عمله دون زوجه ثم ذهب إلى (الحفلة) غائبا . وقد
سجل في خبيثة نفسه أملا وانتقاماً .

كانت الحفلة هذه الليلة - كغيرها من الحفلات، التي كانت تقيمها (زيينات هانم) باسم الخير كل عام . وكانت في بهجتها لا تقل عن (حفل الأوبرج) الماضية . وحفلة النادى السابقة .

وهذه الحفل وإن كانت تماثل سابقتها في كل ما كان بها من لهو وملاذ - إلا أنها كانت تخالفها في (نوع) يبدو جديداً ويلوح غريباً . فقد كانت تمتاز باستعراض الجمال والأناقة وبعرض أحدث الأزياء التي أبدع في حياكتها أشهر خائطات باريس . والبلاد الغربية .

فما وافقت الساعة العاشرة مساء حتى رفعت الستار عن موكب الاستعراض العجيب .

فدوى التصفيق - وتطلعت الأنظار . واتجهت كلها جهة المسرح . وساد الصمت بين الجميع .

ومن غريب أمر محسن في تلك اللحظة . أنه ما كاد يرى (ربات الجمال) يتهادين في إغراء أمام المدعويين عارضات ملابسهن العارية المختلفة . حتى عاودته ذكرى حفلات (باريس) أيام تعلمه هناك .

وما لبث أن عادت إلى نفسه أقوال زوجه عن أغراض الأجانب من وراء نشر تقاليدهم الفاسدة . وداخله شعور تصديقها فيما قالت خلال شجارها السابق . . . لكنه سرعان ما تناسى كل ما سمعه من أقوالها الصادقة وإرشادها الحكيم ولم يعد يفكر . إلا فيما أغضبه من آرائها . وما أمامه من لهو ومتاع . وما انتهى العرض حتى بدأت المساومة .

وكان كل من يشتري ثوباً له أن يراقص لابسته، ويقضى السهرة معها . فاختلقت الآراء ؛ وارتفعت الأثمان . وجعل كل يساوم بما يحلو له ويزيد

عليه حتى وصل ثوب احدى الفائزات إلى ثلثمائة جنيه. دفعها أحد المعجبين بلاسته .

على أنك لو تركت هذا العرض الآن . واتجهت بنظرك جهة الحديقة لرأيت (محسناً) — وقد استجاب لوسوسة الشيطان — مشغولاً بامرأة من النساء الموجودات — يساومها الرجس والعلاقة الآثمة .

وسرعان ما تألفا وقضيا السهرة معاً . ثم كان بينهما ميعاد للمقابلة بعد ذلك .

وقبل أن يفترقا أهدت إلية زهرة صغيرة من نوع (البانسية) بنفسجية اللون. دقيقة الصنع، من الحزف الثمين — عربون التعارف، وتذكيراً منها إليه. فمن هي تلك المرأة التي قذف بها القدر في طريق ذلك الزوج الخائن؟ — لم تكن سهام — سوى امرأة لعوب — مات عنها زوجها. فاتخذت سكناً أنيقاً في عمارة فخمة وسط القاهرة — وكانت تعيش بمفردها مع بعض الخدم الذين جعلتهم عدتها وساعدها .

وهذه المرأة — وإن كانت على جانب كبير من الجمال والجاذبية ، إلا أنها كانت امرأة . لا قلب لها ولا ضمير . كانت تصادق هذا . وتأخذ مال ذاك والويل لمن يخذعها منهم — أو يتركها قبل أن تتركه .

رأت « محسناً » في الحفل — ورأت فيه مميزات لم تصادفها في غيره ممن أحببتهم وركبتهم عندما وجدت صيداً آخرأ — وابتدأت العلاقة بينهما وسط الحفلة التي دعتة إليها والدته وزوجها .

وكثير من الأمهات يعتقدن أن سعادة بناتهن الزوجية . لا تتم إلا بذهاب الزوجين إلى أما كن اللهو . والحفلات الساهرة — ولذلك كان يهمن (زينات

هانم) أن ترى ابنتها وزوجها في كل ملهى وحفل — وكان سرورها
بوجود « محسن » بقدر أسفها على حرمان ابنتها منها .

لم يبعد « محسن » إلى منزله تلك الليلة إلا بعد اتصاف الليل بكثير
وكان مملا يترنج من كثرة ما شرب من الخمر .

فلما دخل حجرة النوم استيقظت زوجته وكانت هادئة رزينة ، تضيء
فنتها ، وتغري الناظرين . فاضطرب قلبه لمراها وأقبل عليها لثماً وثقيلاً —
ثم وسوس إليه الشيطان بخداعها — فلم يشر إلى ما كان منها قبل
خروجه . ولم تشم منه رائحة عتاب ولا غضب . ومع ذلك كان يبدو
أمامها في سكره . كأنه شبح مخيف طلع عليها بفته .

ولكنها عادت وعالت نفسها بأن هذا الذي تراه طارئاً من أثار انغماسه
في موبقات الحفل ومنكراتها . ولأن يلبث أن يعود إلى ما كان قد عاهدها
عليه من عدم شرب الخمر — ونامت مستسامة .

يبد أن « محسن » تبدل بعد تلك الليلة تبدلاً ملحوظاً . وأصبح كثير
الخروج بمفرده ، وطالت مهراته الخارجية . وكثر شربه للخمر . وتغيرت
معاملته لزوجته الحبيبة وراح يخلق لها الأعذار الكاذبة ، ولا يطيع لها أمراً .
ومضى أسبوع بعد تلك الحفل المشؤمة « ومحسن » كما هو . وزوجه
ترى ذلك ولا تتكلم — لعله يرجع من نفسه . أو يثوب إلى رشدة .

وفي نهاية هذا الأسبوع رأت « زينات هانم » أن تزور ابنتها في
منزلها — فلما جاء المساء حتى كانت هي « وسوزان » تجلسان مع « إصلاح »
في الردهة الكبرى التي تتوسط حجرات الطابق الأعلى .

وكان (محسن) خارج المنزل وقت حضورهما .
ولاتسل عن مقدار القلق والوجوم الذي استولى على (زينب هانم)
حينما عرفت أنه في الخارج بدون زوجها .
على أن هذا الوجوم لم يكن لعدم خروج ابنتها معه فقد كانت تعتقد
بأنها هي التي ترغب ذلك . ولكنها كانت قد ذكرت في تلك اللحظة
(والد محسن) والأوقات التي كان يقضيها معها تاركاً زوجته وحيدة .
وخشيت أن يكون الابن مثل أبيه .
لكن أتي (لإصلاح) أن تعرف ذلك السر أو تفتن إلى قصد
والدتها وقد رأتها على تلك الحال .

وتحكم العقل — خشيت من إرغام أمها إياها على مجاراته . وأشفت
من أن تكون سبباً في تعكير صفوها وانفعالها — وشر ما كانت تخشاه
ازدياد مرض والدها لو علم بشيء عن سوء معيشتها الجديدة .
وكانت لحظة مريرة تلك التي مرت « بإصلاح » قبل أن تجيب على
سؤال من والدتها عنه .

على أنها ما لبثت أن تعمدت إخلق جو من المرح والسرور أمامهما
كي تبعد ما عساه أن يكون في نفسيهما — وراحت تبرر خروجه بما كان
له أكبر الأثر في تهدئة والدتها وإزالة ما بها من شكوك .

أما « سوازن » فلم يكن يبدو على وجهها أثر لتصاديقها . ويظهر
أنها كانت هي الأخرى تخشى تعكير صفو والدتها — فتصنع الاقتناع وغيرت
الحديث عن « محسن » وشمل مجلسهن السرور .

وبينا كن في الحديث والضحك إذا بجرس « التليفون » ينبعث من

حجرة النوم المجاورة . وإذا بالخادم تستدعى « زينات هانم » (للكمالة)
وما انفردت (سوزان) بأختها . حتى تعمدت إعادة السؤال عن
(محسن) وعن سبب خروجه بدونها كعادته - ولما لم تظفر منها بما يقنعها
راحت تنحى باللائمة عليها وتعيب تصرفاتها - وما لبثت أن قالت :
— إسمعى يا إصلاح — ألم أحذرك بعد زواجك من الاستمرار فى
ذلك الشذوذ الذى أصبحت عليه ؟ وقلت لك أن أكثر رجال هذا العصر
لا يقدرّون أمثالك ؟ وزوجك واحد منهم .

— فنظرت إليها إصلاح فى شيء من عدم الاكتراث وقالت :
— ولكننى سعيدة بهذا الذى أصبحت عليه . وحسبى تقدير ربى الذى
أعمل من أجله .

فأسرعت « سوزان » قائلة فى شبه نصيحة !

— سعيدة ؟ يالك من بلهاء — إنك بهذه السعادة متخبرين زوجك
وسوف لا تلومين إلا نفسك . فكم من زوجة يخونها زوجها فى الخارج
بسبب تركها إياه ينعم وحده بالمسرات والملاهى . وكم مثلك أهملن
أزواجهن مع ما كان فى قلوبهم لهن من حب ، وما هن عليه من جمال
لا شيء . إلا لأنهن كن متمسكات بالعادات الرجعية ، والآراء المخالفة
ليولهم العصرية .

فأثرت هذه الكلمات فى نفس « إصلاح » واضطرب منها فؤادها
ولكنها استطاعت إخفاء ما بها وتمتعت فى آهة خافته .

— إن الله وحده يا أختاه هو الكفيل بهؤلاء وهؤلاء .
ثم ساد الصمت بينهما فقد قطع حديثهما رجوع والدتهما تستأذن

في سرعة العودة - بسبب انتظار بعض أكابر المهتمين بشئون جمعيتها في القصر .
ولم تمض فترة وجيزة بعد خروجهما . حتى دخلت إصلاح حجرتها
وألقت بجسمها على الأريكة الكبيرة « الديفان » الموضوعة بالقرب من
سريها . وراحت تعيد ما سمعته من أقوال أختها . في شأن زوجها .
وتردد نصيحها لها بالخروج معه متسائلة في حيرة :

— لم هذه النصائح؟ أتكون صادرة عن أساس ؟ لابد أن تكون قد
رأت منه في الحفل الماضية . مادعاها إلى ذلك النصيح والتلميح .
ووسوس الشيطان . . فتملكتها الهواجس وأحاطتها الأوهام .
ثم تمادت في تصوراتها . فتمثلت لها صورة عكرت عليها ليلتها .
صورة رأت فيها زوجها وكأنه يعاشر امرأة غيرها . وحدثها قلبها
بأنه يفضلها عليها . وأنها السبب فيما وصل إليه من السهر في الخارج .
وهنا بكت عينا تلك الزهرة الندية . وتساقطت عبراتها على وجنتيها
وأخذ بكاءها يزداد كلما زاد تفكيرها في الماضي السعيد . والشقاء المقبل .
— فيالها من ليلة ليلاء ! !

الليل سكون . والنجوم ساطعة . وكم في الليل من عجائب ومصائب
وأفراح وأتراح . وكم فيه من عيون ساهدة وعيون حاملة .

وهذه « إسماعيل » بين السهاد ، لما تزل قلقة تستعيد ما سمعته من
نصائح أختها . ويزيد الشيطان في آلائها . ثم تستعرض أطياف حياتها طوال
الأشهر الست التي مضت على زواجها وما كانت تنعم به من حب زوجها
ووفائه — ثم تسبح في أفكارها وتغوص في همومها وظلام مستقبلها .
ولو أنها المؤمنة النقية التي ترضى بكل شيء ؛ إلا أنها لم تكن حتى
منتصف هذه الليلة تشعر بشيء يرضيها .

وأخيراً مالت في فتور إلى ظهر « الديفان » وانصرفت إلى خواطرها
تفكر فيما أحدثته الأقدار في حياتها العجيبة — منذ كانت طالبة في مدرسة
(اليردى ديه) وهي تحس نفسها تنفتح للحياة . وترى الدنيا كأنها حلم
جميل — فأخذت صور الماضي تتابع أمام عينها سراعاً .

— لقد كانت حتى السنة النهائية منها تحبب في ظلمات الضلال بعيدة
عن نور الهداية . ولم ذاق الحب والغيرة . واندججت مع أمها وإخوتها
وسط الملاهى والملاذ — وتمتعت بكل ما يمكن أن يتمتع به كل محب للحياة
ولذاتها ... فماذا وجدت بعد ذلك كله ؟

— إنها لم تجد في الحب إلا ألماً وانشغالا . وفي اللهو إلا خداعاً؛ وفي
الذات إلا سراباً وحلماً . ولم تحس طعم السعادة وهدوء الضمير إلا بعد
أن انقشع ذلك الحلم — واستيقظ عقليها — وهداها إلى طريق الخير —
وتغلب على هواها .

تذكر هذا فتشعر بالهدوء ويفلبها الايمان — إذ ترى عظم الفرق بين ما كانت فيه وما آلت إليه .

— إنها لتفضل الآن الحرمان من هذه الملاذ الزائلة ، في سبيل ما تأمله من النعيم الدائم في الآخرة — وتستمدب شقاء الحياة الزوجية . عن مر العذاب الذي تسببه المعاصي . لو اقتادت لأهواء زوجها ونفذت رغباته .

لكنها ما تسكاد تذكر زوجها حتى يهاودها الشيطان — يوسوس في صدرها عنه . ويصور لها أعماله في أبشع صورة . فتجس بشعور غامض يسرى في جسدها — وبالغيط يستحوذ على مشاعرها — ثم تنفجر عيناها بالدمع ويعتريها الهم والجزع .

— ألا لعنة الله على إبليس وجنوده « إنه لا يعرف اليأس مع أبناء آدم » أجمعين .

— لقد عرف هذا العدو الماكر . أن معصية الله كما تأتي من اتباع الشهوات في السراء — تكون كذلك من السخط وعدم الصبر على الضراء . لذا حام حولها تلك الليلة وأخذ يوسوس إليها بعد خروج أمها وأختها — حتى جعلها تسخط على حظها الذي أوقعها في هذا الزواج الذي كانت لا توده — وتبكي سوء حظها ، وخيبة آمالها .

لكن رحمة الله اقتضت أن يكون سلطان ذلك اللعين قوياً في حربه ضعيفاً أمام قوة إيمان المؤمنين وعقولهم .

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .

فلم يرض كثير على هذا السخط؛ وذلك البكاء؛ حتى (استيقظ عقلها) وسمعت
صوته يرشدها . كما سبق أن أرشدها أول تدينها إلى الانتباه لأعمال والدها
الدينية ووجوب العمل بها ..

— ترى ماذا قال هذه المرة ؟

— لقد سمعته الليلة يعرفها بأن الله لا يترك عباده المؤمنين دون ابتلاء
بأنواع المصائب . ودون اختبار لقوة إيمانهم وتوكلهم . وينبها إلى أغراض
الشیطان وكيد . ويذكرها بقوله تعالى .

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا
الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

ثم دعاها لأن تكون تلك المؤمنة الصابرة الناجحة في اختبار ربها
وسرعان ما لبث النداء وكفت عن البكاء — ثم دبّت في قلبها حرارة إيمان
قوى . محت ما كان يقلقها من الظنون والأفكار — وأمست مستغفرة تائبة .
وما لبثت أن قامت وأدت (صلاة العشاء) ثم تناولت عشاءها وذهبت
إلى سريرها راضية بما يأتى به القدر .

ولقد حدث قبل أن يداعب الكرى أجفانها أن عاودها ذكرى العهد
الذى كانت قد قطعتة في بدء حياتها الزوجية — بأن تكون (لربها .
وزوجها . والناس) .

وحينئذ خطر ببالها أن تزيد في أعمال البر بالناس ونفعهم .

وسرعان ما عزمّت على أن تفتح منزلها كل أسبوع للسيدات كي
يستمعن إلى إرشادات دينية من (أستاذها الكبير) .

وهكذا رسمت لنفسها تلك الليلة نوعاً من الحياة يلهمها عن التفكير
في مساوى زوجها، ويزيدها تقرباً إلى الله .

وما كادت تنهى من عزمها حتى عاد زوجها بأعداره الكاذبة
وخداعه . وقد انتصف الليل أو كاد .

ثم أخذت الأيام تمر وتتابع حتى مضى أكثر الشتاء . و (محسن)
كما هو سهر . وخداع . وأكاذيب .

أما زوجه فكانت طوال تلك الأشهر تبدو سعيدة أمام أسرتها وجميع
الناس . ولا يعلم سوى الله وحده ما هي فيه من شقاء ، وما تتحمله من
صبر وألم .

وكانت كلما همت بالشكوى إلى والديها ، أو برفع أمره إلى من يدهم
ردعه — كما تفعل غيرها في مثل هذه الظروف — عدلت وأبعدت ذلك .
إذ كانت لا ترى أمامها سوى الله في السراء والضراء . وكانت لا تريد أن
تشرك بربها أحداً في ردعه وعقابه .

يبد أن هذا التوكل ما كان ليمنعها من الوقوف بمفردها أمام
زوجها المستهتر — أو ليجعلها تصمت تجاه أعماله المنكرة . بل كانت لا تفتر
عن تقويم ما أعوج منه . ولا تفعل عن محاولة إصلاحه بشئ الوسائل .
فحيناً كانت تردده بالنصح والارشاد . وحيناً باللوم والعتاب . وأحياناً
بتنبيهه إلى عاقبة الاندفاع في المعاصي .

لكنها ما كانت تجد من وراء ذلك فائدة في إصلاحه أو إرجاعه
عن غيه . . بل كثيراً ما كان ينقلب الموقف بينهما — فيعيب فيها تمسكها
بما كان يعتقد عيباً في هذا العصر .

وهكذا أصبحت (إصلاح) ترى من زوجها مثل ما كانت تراه من أمها وأختها ومعارفهن .

— فإذا تعمل تلك المجاهدة التقية أمام هذه القوة الشيطانية ؟ وماذا تستطيع ؟

— لا شيء إلا العزم على التمسك بأهداب الصبر ، والاعتماد على الله وحده .

(وكفى بالله ولياً . وكفى بالله نصيراً)

مضت عدة شهور على علاقة (محسن بسهام) كثرت فيها هدايا المجوهرات والملابس الفاخرة . وتعددت رحلات البذخ . وحفلات اللهو حتى باد (محسن) جميع ما كان يحصل عليه من إيرادات أملاكه . ورهن ما ورثه عن أمه . وما كان قد أخذه من جده - كل ذلك في سبيل أطباع (خليلته) التي لا ينقطع لها مطلب ، ولا يكفها الكثير .

واستمر في تلبية طلباتها والإنفاق على ملذاتها . إلى أن شعر يوماً بعاقبة ذاك الإسراف - وما هو مقبل عليه من الأفلاس . وهذا يوم أن جاء إليه إعلان بالحجز على أملاكه المرتبته . إذا لم يسدد ديونه في مدى معين .

ولاشك أن زوجه لم تكن تعلم شيئاً عن أمر هذه الديون - أو تخطر لها على بال . فقد كان لها مرتبه الشهري - وعليها تدبير المنزل ؛ في حين كان (محسن) خمس ذلك المرتب (لنفقاته الشهرية) أما أموال أملاكه فتدخر ويعمل حسابها نهاية كل عام .

هكذا اتفقا في بدء حياتهما الزوجية .

وهكذا استمر (محسن) لا ينقص شيئاً من راتب المنزل ، حتى بعد الاختلاف الذي وقع بينه وبين زوجه . مخافة أن ينكشف أمره . وكان من عادة (محسن) مع (سهام) ألا يؤخر لها طلباً مهما عظم ثمنه . وبلغت قيمته - وظل هذا حاله . حتى جاء اليوم الذي اضطرف فيه إلى ذلك . كان هذا في ليلة من لياليهما السعيدة . وكان يقضى السهرة في منزلها (إذ أصبح لا يجد ما يكفي لسهراته معها في الخارج) .

وفي تلك الليلة نوهت (سهام) برغبتها في معطف من الفراء الثمين
كانت قد رأته في إحدى (محال الأزياء الكبرى) يقدر ثمنه بأكثر من
مائة جنيه .

ولم يكن هذا الطلب منها عن احتياج لهذا (المعطف) فلديها غيره ،
ولكنها كانت قد شعرت بإمساكه عن البدخ في الأيام الأخيرة وبقلاؤه
من الهدايا - ورحلات اللهو .

ولعلها ظنته قد مل عشرتها - أو أراد التخلص منها - فنوهت بذلك
لتعرف حقيقة أمره . .

وطبعا كان هذا الطلب هينا ميسورا لو لم يكن قد وصل إلى ذلك الإفلاس
الذي وقع فيه .

أما الآن فمن أين له إجابة هذا الطلب ؟
وتكالت عليه الهموم ، فاكفهر وجهه ؛ واضطربت حواسه ؛ وطار
في أمره - وشد ما آلمه أن يرفض لها طلباً .

ومضت لحظة مريرة حاول فيها إخفاء ما في نفسه . ثم وعدها بتنفيذ
هذا الطلب قريبا .

ولاحظت سهام كل ما بدا على وجهه من حيرة ؛ وما حاول إخفائه من
اضطراب - فظنت هذا عن تبرم بمطلبها . وخالت ذاك الوعد مرواغة
منه وتملصا .

وعندئذ زادت شكوكها فيه ؛ وانمحت ثقته بها . لكنها أفلحت في
إخفاء ما في نفسها . وأظهرت تصديقه . وانتظرت تنفيذ وعده .

ومضى يوم بعد تلك الليلة قضاء (محسن) بين مواعيد اليسر دون
جدوى . وأقبل يوم - وهو كما هو - لا يملك ثمن المعطف ؛ ولا يطاوعه قلبه

على عدم الذهاب إليها . . ثم كان يوم أسود من الليل ، ذلك الذى ذهب فيه إليها معتذراً بعدم إمكانه شراء (المعطف) شارحاً لها ما وقع فيه من الحجز والإفلاس .

ويالها من لحظة رهيبية تلك التى مرت (بسهام) وهى تستمع إلى أقواله التى خالها تخفى وراءها كذبا وتضليلا .

فما انتهى من اعتذاره وأسفه - حتى انقبضت نفسها ؛ واضطرب فؤادها وتخيلت ما تخيلت من أوهام المرأة (العاتية)
ثم دبّت فى نفسها عوامل الظنون - فخيل إليها أنه يكذب عليها ، وأنه قد ملّ عشرتها - ويزعم ذلك للتخلص منها .

لكن من هو « محسن » هذا الذى يمكنه أن يتخلص من « سهام » بهذه السهولة ؟ أو يخدعها ويغرر بها . وهى التى طالما كشفت كثيراً من أكاذيب الرجال وخيانتهم - ولم يفلت من انتقامها كاذب أو مخادع .
وهنا يخطر ببالها خاطر لم تستطع دفعه . ولم تقو على عدم تنفيذه . إذ ترى نفسها مدفوعة إلى عمل تجربة قاسية - تكشف بها عن مقدار كذبه وخداعه . . . والويل له إذا كان يبطن غير ما يظهر .

وسرعان ما تخفى ما استولى عليها من شعور الغدر ؛ وتلبس ثوب الخداع ، وتتصنع الرثاء لحاله - والشفقة به . فاذا ما أفلحت فى ذلك راحت تهون عليه أمر الحجز - وتدعوه إلى عدم التفكير فيه . وتعلمه بالآمال فى عدم دوام هذا الحال .

فما يكاد يسمع ذلك منها حتى يشوب إلى نفسه ، ويهدأ قلبه ويداخله شعور بأن (خليلته) تقصد من وراء هذه الأقوال . رفع الحجز

عنه بما لها من نفوذ عند أولى الشأن « بمصرف الرهونات » من معارفها وأصدقائها .

وعلى هذا الزعم الباطل - يقضى السهرة أكثر ما يكون إعجاباً بها وتقديراً لعواطفها ؛ دون أن يفتن إلى أنها تضممر له أمراً . وتعد له فخا . ولم تمض السهرة حتى كانت قد استطاعت بدهائها أن تتفق معه على زهرة خارج المنزل . على أن يوافيها غداً عند الأصيل - في مكان معين (بحديقة الأندلس) .

ثم يودعها وهو ممتلىء أملاً وسروراً - وهي ساهمة شاردة - قد امتلأ قلبها بسوء الظن - وأوحى إليها بالانتقام .

ولو أنه عاد بعد خروجه . لرأى تلك المرأة التي ظن أنها سترفع الحجز عنه - تدبر له مع فتاة جميلة من اتباعها أمراً . لو لم ينبج منه . لوقع في حجز مرير ، ودين لا سداد له ... « لكنه لم يعد » .

وما انتهت « سهام » من اطلاع فئاتها على خفايا نفسها نحو (محسن) حتى كلفتها بالذهاب غداً بدلا عنها . إلى ذلك المكان المعين . لتطلعها على ما سيكون من أمره معها . ثم زودتها بكافة ما تريد .

أصبح صباح اليوم الموعود . ثم أمسى ليله - وهامى (سهام) في منزلها ترقب وتنتظر عودة الخادم بفارغ الصبر .

فما وافت التاسعة مساء - حتى أقبلت صنيعتها . وكانت كاملة زينة الوجه والشعر .. ترتدى ثوبا أنيقاً ، وعلى كتفها نوع من الفراء الثمين بدت فيه كسنا «ارستقراطية» . تغرى الناظر . وتخدع المفتون .

وما رأت سيدتها حتى صاحت في تعلق :

— سيدتى . . . لقد وقع ما كنت تظنين — وحق عتاب ذلك الخائن المخادع .

نخفق قلب (سهام) وهى وإن كانت تتوقع الغدر — منه إلا أنها كانت ترى فى حصوله — جرحاً لكرامتها ، واذلالاً لكبريائها . ثم أخفت ما بها وتساءلت .

— أجباء فى اليعاد المحدد ؟

— لقد كان فى الحديقة قبل الميعاد . وكان يبدو عليه أنه على موعد من كثرة ما كان ينظر إلى ساعة يده . لكنه ما كان يرى أن يجلس فى نفس المكان — حتى راح يوجه إلى لفتات الإعجاب — ويختلس النظرات . وما كدت أدعوه للجأوس . حتى لبي فى سرور ظاهر من حركاته ، وعبارات الشكر الرقيقة . . . ولم يمض كثير على جلوسه بجانبى — حتى كان قد نسى من كان ينتظرها — وشغل بمسامرتى — ثم مرت بنا فترة طويلة عبر فيها عن إعجابه بى ، ودعائى فى أثنائها إلى قضاء سهرة فى أحد المساهر . . دون أن يفكر فى سيدتى أو يذكرها أسمى .

فعز على « سهام » أن تسمع هذا — وظننت أن الفتاة تبالغ فيما تقول ولا حظت الفتاة ما يحتاج نفس سيدتها — فراحت تثبت صدق أقوالها بما أوتيت من براهين وأدلة .

وما لبثت أن فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها « زهرة خرفية » ثمينة بنفسجية اللون . على أنها هدية منه ورمز لحبه .

فما كادت تقع عينها « سهام » على تلك الزهرة — حتى اضطربت واستحوذ

عليها شعور الخنق - والرغبة في الانتقام - فقد كانت تلك (زهر البانسية)
التي أهدتها إليه أول يوم تلاقيهما في (الحفلة الخيرية) ...
ثم استبد بها الفيظ فهتفت في نفسها بنبرات الحقد والأسى .

- آه ... لم أكن مخدوعة - إنه يدعو الفتاة إلى سهرة في الخارج
وقد كان يدعى الإفلاس لى - والفقر أمامى - ثم هاهو يهديها زهرتى !!
لاشك أنه كان يدعى الفقر ليتخلص منى - ويحطم كبريائى ... الويل له
من « سهرام » ... الويل له منى .

ثم التفتت إلى الفتاة وقالت متسائلة :

- والآن ... علام اتفقنا ؟ ؟

- كأمر مولاتى سيكون منزلى الخاص مسرحاً لتمثيل دور الانتقام
فبعد أن لمست حياته لسيدتى ، وتكشف لى أنه يظهر لها غير ما يظن ،
رفضت السهرة التي كان يرجوها الليلة في الخارج - ودعوته غداً لقضاء
السهرة في منزلى ... فلا تخشى ياسيدتى شيئاً ، فلم أزل خادمته المخلصه
الأمينة - ودعى هذا الأمر لى - فأنا أعرف ماذا تريدن - وأنا الكفيلة
غدا بالانتقام من ذلك الكاذب المخادع .

ثم رسمت مع سيدتها خطة الانتقام وأحكمتا التدبير ...

هذه شمس الغد قد أشرقت .

وتصادف أن أشرقت مع أول الشهر - فكان سرور محسن لا يعادله
سرور ... وكيف لا يضحى سروراً وقد دخل جيبه اليوم مبلغ لا يستهان
به . مبلغ لا يقل عن عشرين جنيهاً . وهو مقدار الجزء المخصص له وحده

كل شهر من راتبه. وسوف يظهر اليوم بمظهر الثراء والبذخ، أمام (خليلته الجديدة) — فيا لها من طالع سعد، وفأل حسن — لقد انزعج عنه غراب الشؤم التي سببت أفلاسه، وأقبل الطائر الميخون بالخير والرخاء — وهما هي (فتاة الحديقة) مطلع يمن وتيسير.

وخرج من تأملاته — ودخل في الموازنة بينها وبين سهام. فصاح في نفسه :

— لا ... إنه ليس هناك ثمة وجه شبه. بين تلك الأنانية التي أفلستني بكثرة مطالبها، وبين هذه الحسنة التي رفضت السهرة في الخارج. ودعني إلى منزلها الليلة — حتى لا أتكلف الكثير من النفقات .. (ورب صدقة خير من ميعاد)

وما كاد ينتهي من تلك الخواطر — حتى راح يهياً للذهاب إلى موعد (خليلته الجديدة) — فارتدى حلة أنيقة، وطي معطفه ووضع على يده اليسرى، وأمسك بيده اليمنى قفازين من الجلد الفاخر، وغادر المنزل مترجلاً إذ كان يخشى صعوبة الوصول بالسيارة إلى منزل (تلك الخليفة) الذي يقع في منعطف ضيق ... (وعين الحب عمياء)

وعلى ظلام هذا العمى — أخذ يتحسس طريقه، وراح يتخبط في مشيه حتى وقع في الفخ المعد له.

والآن دعنا نترك محسنا، في خفه .. وننتظر حتى تعود الخادم إلى سيدتها حسب الخطة المرسومة بينهما.

لا تعلق ... فنحن الآن عند منتصف نفس الليلة. وقد أطفئت كل

الأنوار في منزل سهام ؛ الا في حجرة واحدة كانت فيها (سهام وخادمتها)
تسرد على مسامعها ما كان من شأنها مع محسن هذه الليلة وما جرى له
على يديها . . .

قالت الخادم . في فرح وتملق . . .

— لقد انتهى كل شيء - ونجحت خطة سيدتي وأفلح تدبيرها .

— ومحسن ذلك الكاذب المخادع ؟ أين هو الآن ؟

— انه سجين الليلة

— لله أنت يا فتاة ، وهل أتممت بقية الخطة ؟

— لقد قت بجميع ارشاداتك بكل دقة ، فبعد أن جاء محسن ،

إلى منزلي ، وأرسلت الخادم إليك . . . لم يطل بنا السمر حتى دأبنا

البوليس ولسوء حظه . . . كان يحوطني بين ذراعيه ، بقصد حمايتي . . .

أُصرخة فزع وبكاء . اضططعتما عند ما شعرت بهجوم البوليس - ولما كان

في حالة ذهول من أثر تلك المفاجأة - فانه لم يشعر بسواري الذهبي الذي

دسسته في جيبه ؛ ولم يتمكن من تبرئة نفسه . أمام الجنود الذين رأوا بأنفسهم

ما أثبت شهادة الخادم . وأقنعهم بصدق ما نسبته إليه من تهم . . . ثم

توجهنا الى البوليس .

وكانت سهام تصغي إليها في اهتمام وقد علا وجهها سرور الإعجاب

بجسارة الفتاة - وما لبثت أن قالت في تشف وحقد :

— يالك من داهية رشيدة . . . ويا له من غر أحق . . . ثم ماذا

بعد ذلك ؟ ألم يظهر عليك أي اضطراب هناك ؟

— كلا . . . بل كنت أملاً مركز البريئة الصادقة . . . في حين

كان (محسن) فى موقف المجرم المرتبك . . . وبالأخص عند ما أخرج
الحقق من جيب سترته السوار الذهبى ، وسأله إلى . . . وهذا ما ساعدنى
على أن أطلب بمحاكمته أمام ساحة العدل .

وأخيراً أفرج عنى ، وبقي هو فى السجن إلى يوم المحاكمة
ثم مالت عليها وأخبرتها بأن محسناً قد ترك فى بيتها (مطلقه وقضائه)
وبأنها أنكرتهما حين نوه عنهما .

فما كادت سهام تسمع ذلك حتى أحست شعور النصر ، وتملكها غرور
المرأة الغادرة وسلطانها ، وراحت تضحك هى وفتاتها فى تشف واستهزاء
وكان قد مضى أكثر الليل فاستلقت على سريرها وقالت فى حق .

— لقد ذهب مع الشيطان إلى حيث . . . فلم أعد اهتم بشأنه بعد
أن انتقم من خداعه إياى . . . أما أنت فتلك المخلقات لك وحدك . . .
وسأزيد أجرك . . . وسوف يتضاعف لك الاجر بعد محاكمته .

فبلغ الفرح بالفتاة أقصاه ؛ وهممت بدعاء طويل لسيدتها — وبالنصر
على محسن يوم الجلسة القادمة
وخرجت من الحجرة .

حينما تنفس صباح اليوم التالى لتلك الليلة التى بات « محسن » فيها داخل السجن - استيقظت « اصلاح » من نومها قبل طلوع الشمس بقليل فلما لم تجد زوجها قد أتى من الخارج . ظنت أن الوقت مبكر .

ولكنها ما كادت تتأكد من ميته خارج المنزل - حتى هبت جالسة فى فراشها - وقد شرد لها - ودب فى نفسها الهم والقلق - وتزاحمت عليها الأوهام والظنون .

ثم يضيق صدرها وترهقها الوحدة . فتصمم على الاتصال بأسرتها لتخبرهم بهذا النبأ .

ولكنها ماتكاد تمسك (بسماعة التليفون) حتى يغلبها الاعتماد على الله فتعيدها مكانها . مخافة أن تقضى على والدها الذى ساءت صحته . وزاد مرضه ثم تعود وتجلس فى سريرها مطرقة - تستعيد بالذكري الحال التى كان عليها زوجها أمس قبل خروجه . لعلها تهتدى إلى سبب لهذا المبيت .

— انها لتذكر ملامح وجهه حينما كانت نازلة الى حجرة الاستقبال ومعها « يسرية » ليستقبلا السيدات اللاتى جئن لسماع درس الدين الاسبوعى — إنه لم يكن يبدو على قسبات وجهه شيء غير عادى .

— ثم إن صوته الهادىء وهو يسامنى راتب المنزل الشهرى — لا يبعث الا على الاطمئنان والسلام — وإن كان قد أخذ فى جيبه جميع مبلغه الخاص به طوال الشهر — فكثيراً ما يفعل ذلك .

وأخيراً رفعت رأسها - وقد هدأت نفسها هدوء العاجز المستسلم للقضاء .

وأسرعت لتسابق بصلاتها طلوع الشمس .

وكان من عاداتها أخذ حمام كل صباح
فما انتهت منه حتى عادت إلى سريرها - وجلست تقرأ ما اعتادت أن
تقرأه كل يوم من أحكام الدين والقرآن .

وقبل أن تنتهى من القراءة - أقبلت « دادة حليمه » - كبيرة الخدم -
وقد كانت مربيته منذ طفولتها ثم لازمتها بعد زواجها . فكانت لها بمثابة
أم حنون وحيثما قالت :

— طاب صباح سيدتى .

— طاب صباحك يا أماء .

وجلست لتؤنسها وتزيل وحشتها

وكانت مثلها فى الإيمان والتقوى - فاشتركت معها فى سماع القرآن -
وكانت قد حضرت درس أمس الدينى ، وفهمت من « الاستاذ » معنى
الآية الكريمة .

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم
ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه
ميتاً فكرهتموه » .

فلم تشر إليها عن زوجها بما يزيد فى آلامها من الريبة والظنون - ولم
تسكلم بما يعد غيبة ونميمة فى حقه . بل صرفت عنها كثيراً من الأفكار
ولم تتركها حتى تناولت شيئاً من طعام الإفطار .

وفى تلك الفترة كان المهرج قد بدأ بين باقى الخادmates . بخصوص
مبيت سيدهن خارج البيت .

ثم اجتمعت « فاطمة الطاهية بنعسه وسبروكه وأم على » والتفغن

بعضهن حول بعض - وفي أيديهن المسكans وأدوات التنظيف . وراحت كل منهن تتكلم بما توجيه إليها نفسها - فمن قائلة - لا شك أنه تزوج - ومن مشفقة - لهف نفسي على سيدتي الصابرة - ومن متشفية - لا بدله من يوم فالله لا يترك ظالماً ولا مظلوماً - ومن موافقة - ومن مخالفة .

وأخيراً واللجاج بينهن قد بلغ منتهاه - أقبلت خادمة خمرية اللون مثلثة الجسم - من خدم « أسرة سيدتهن » تستأذن في مقابلة « سيدتها إصلاح » ... فصمتن عند رؤيتها - وانقرط عقدهن .

دخلت الخادمة الحجرة التي بها « إصلاح » في حال يرثى لها - وجه صفر ، وشفاه باهتة ، وعينان حميرتان .

وما كادت ترى « إصلاح » حتى انحنت عليها . تقبل يدها وقدمها . ثم صاحت بين البكاء والنحيب .

— سيدتي ليس لي غيرك في الوجود ينقذني مما أنا فيه .

ف نظرت إليها « إصلاح » في دهشة قائلة :

— ما ورائك يا « خضره » إهدئي أولاً - ثم قولي ما تشائين .

— بارك الله فيك يا سيدتي . فأنت ملجأ الضعفاء وناصره المظلومين .

فزادت دهشةً ونظرت إليها متسائلة في قلق - واستطردت الفتاة قائلة :

— إغفري لي يا سيدتي تلك الجرأة فإن مصيبتى كبيرة ، وعارى عظيم

وأقسم أنه ليس لي ذنب في ذلك - فهو الذي اغتصبني . واعتدى على شرفي .

والآن جئت إليك محتمية بك . بعد أن طردتني سيدتي « زينات هنام »

مجردة من النقود والملابس .

— ثم جعلت تهذي وتتمتم .

— آه ياربى - الموت ولا الفضيحة . . كيف أعيش يا إلهى .

وَأَيْنَ أَذْهَبَ - وَلَيْسَ لِي أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ - وَإِلَى مَنْ أَلْجَأْتُ إِذَا طَرَدْتَنِي سَيِّدِي
« إِصْلَاحُ هَانِمِ »

وَأَجْهَشْتُ بِالْبَكَاءِ ثَانِيَةً .

وَكَانَتْ « إِصْلَاحُ » فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الْفَتَاةِ الْغَامِضَةِ ... فَلَمَّا رَأَتْ
بَكَاءَهَا - زَادَتْ حَيْرَتَهَا وَبَدَأَ عَلَيْهَا الْقَلَقُ وَالذُّهُولُ - ثُمَّ أَخَذَتْهَا
الْشَّفَقَةُ بِهَا وَالرَّثَاءُ لِحَالِهَا فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا مَهْدِئَةً وَقَالَتْ :

- لَكِنَّكَ « يَا خَضِرَةَ » لَمْ تَخْبِرِيَنِي . مَنْ هُوَ ذَلِكَ الْمَجْرَمُ الَّذِي
اعْتَدَى عَلَيْكَ ؟

- آه يَا سَيِّدَتِي . . . إِنَّهُ سَيِّدِي . . . سَيِّدِي « سَامِي بَك »
هُوَ وَالِدُ ذَلِكَ الْوَلَدِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِي أَحْشَائِي .

فَمَا كَادَتْ « إِصْلَاحُ » تَسْمَعُ ذَلِكَ حَتَّى دَارَتْ الدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهَا . وَاطْبَقَتْ
عَلَيْهَا الْمَسُومُ وَالْمَأْسَى - ثُمَّ صَاحَتْ فِي اسْتِنْكَارٍ :

- أَخِي ؟ . . . أَخِي « سَامِي » ؟ هَذَا قُطِيعٌ . . . وَهَلْ أَنْتِ وَاثِقَةٌ
مِنْ ذَلِكَ « يَا خَضِرَةَ » ؟ . . . إِيَّاكَ أَنْ تَقُولِي زُورًا وَبُهْتَانًا .

- أَقْسَمُ لَكَ يَا سَيِّدَتِي أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ . لَكِنَّهُ أَنْكَرَ عِنْدَمَا
طَلَبْتُ مِنْهُ سَيِّدَتِي « زَيْنَاتُ هَانِمِ » ذَلِكَ ثُمَّ طَرَدْتَنِي - وَحَذَرْتَنِي مِنْ أَنْ
تَرَانِي فِي أَيِّ مَكَانٍ - فَجِئْتُ لَكَ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ .
وَتَمَتَّعْتُ فِي بَكَاءٍ .

- بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا سَيِّدِي « حَسِينُ بَك » فَوَاللَّهِ يَا سَيِّدَتِي قَبْلَ زَوَاجِهِ
مَا دَخَلَ حِجْرَتِي يَوْمًا . وَمَا كَلَنِي بِرَبِيبَةٍ قَطْ

وَكَانَتْ إِصْلَاحُ تَسْتَمِعُ إِلَيْهَا فِي تَأَثُّرٍ وَقَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهَا شُعُورُ الشَّفَقَةِ

ونداء الإغاثة - ماذا تفعل لتلك البائسة؟ وأين تأويها لتستر عارها - وأطرقت
مفكرة - وساد الصمت بينهما - ثم رفعت رأسها وهبت واقفة كمن اهتدت
إلى ضالتها .

وما هي إلا فترة وجيزة حتى كانت قد أمرت السائق بإعداد السيارة
وأخذت الخادمة ، وتوجهت بها إلى مدينه « السعادة »
أذكر هذه المدينة ؟

— لعلك لم تنس تلك الضيعة القريبة من القاهرة . التي كان « شاكر
باشا » قد تبرع بها للجمعية (المسلمات المجاهدات) بناء على رغبة ابنته « إصلاح »
لتؤسس عليها هذه المدينة ... وأظنك في شوق لمعرفة ما كان من أمرها بعد
أن قامت سيدات الجمعية المؤسرات - بتأسيسها من مالهن وحدهن .
— لقد أصبحت تلك المدينة ملجأ المحتاجين وبيت من لا بيت لهم
ولا معين .



أنظر هذه هي « مدينة السعادة »
وها هي سيارة « إصلاح » قد أقبلت .
فما أن وقفت ببابها حتى دخلت « خضرة » قسم اللاجئات مطرقة صامته .
فما رأيها حتى أقبلن عليها يسألنها عن حالتها وسبب مجيئها .
فتملكتها الحيرة وغمرها الحجل .
وفي بكاء ونحيب أخبرتهن بأنها فقيرة مات زوجها - وليس لها أحد
في الوجود .
فرق لها قلب إحداهن وانتحت بها ناحية . وراحت تطيب خاطرها
وتعنيها العيش الرغيد في هذه المدينة .

وسرت بهما فترة - جلجل في أثنائها صوت المؤذن لصلاة الظهر
فأسرعت الفتيات إلى المسجد .

وعند ما همت « خضره » بالذهاب معهن استوقفتها الفتاة قائلة :

— إن المستجدة لا تشترك في شيء . حتى تقضى مدة داخل مكان منعزل

تتطهر فيه من الآثام - وتتوب من الذنوب - فصلى هنا .

فما سمعت « خضره » ذلك حتى اضطربت وتحيلت السجن في ذلك

المكان - وظنت أن سيدتها قد أتت بها لتسجنها بإيعاز من والدتها
وأخيها . ثم تمت خافتة :

— آه ياربى . . هل جئت لأسجن . ويفتضح أمرى داخل هذا

السجن ؟ وبكت عيناها

ولاحظت الفتاة اضطرابها - وسمعت بعض هذيانها فقالت مشدوهة :

— « خضره » !! لا تنزعجى . وعلام البكاء ؟ أظنين أنه كالسجن

الذى تعرفينه ؟ ذلك الذى يدخله المجرم وقد ارتكب جرماً واحداً
حتى إذا خرج منه . كان أشد جرماً - وأكثر خطراً ؟

فعاودها الهدوء . ونظرت إليها مستفهمة - وتابعت الفتاة قائلة :

— لا تظنى ذلك يا أختاه - فإن هذا المكان لم يكن سوى « معهد

دينى » مكتوب على بابه « الدين إصلاح وتهذيب » يتلقى فيه اللائجون .

وكل من يرتكب إثماً من المقيمين هنا . جميع الأحكام الدينية . والشرائع

الإسلامية . فهو وإن كان يشبه السجن في الغاية - إلا أن تعليم الدين فيه

يحل محل الحبس - والعمل بشرائعه . يقوم بدل العقاب والشغل الشاق -

لذلك لا يلبث المجرم أن يخرج منه مستغفراً تائباً - وقد عرف أمراً طاملاً

كان غافلاً عنه — إذ يعرف أن بعد هذه الحياة الفانية . حياة دائمة —
سعادتها العمل « بكتاب الله وسنة رسوله »

وأنا نفسي قد قضيت فية أياماً — عرفت فيها طريق الخير من طريق الشر
ثم أصبحت أراقب الله وحده في جميع أقوالى وأفعالى . فلا تخافى منه —
فإن فيه الهدى والفلاح — ثم تركتها قائلة :
— انتظرى هنا فساألى . وأعود إليك .

ووقع بصر « خضره » وهى واقفة على مدرسة ودار للتمثيل وأخرى
للسينما ومصانع وحوانيت كثيرة ، ومراعى تعج بالماشية والأغنام —
فلبثت حيناً ذاهلة — يشردها الخيال . وكأنها فى مدينة كبيرة صالحة
لرفاهية السكان .

وبغثة شعرت بيد الفتاة تربت على كتفها . وقد عادت بعد الصلاة .
وفى تلك الفترة كانت « إصلاح » تتفقد أحوال المدينة . وقد سرت
من قلة عدد الجرائم . ولمست فضل التهذيب والإصلاح بتعاليم الدين .
وما عادت إلى بيتها حتى أخبرتها « حلیمه » بأن « محسنا » قد
اتصل تلفونيا بالمنزل من مكتبه . وأنه سيأتى فى ميعاده بعد الظهر .

عاد « محسن » إلى داره مشغلا بالهموم والأفكار بعد مبعده أمس داخل السجن . وقد أفرج عنه بكفالة مالية حتى يحين موعد الجلسة . وكان شبح السجن لا يزال يتراقص أمام مخيلته ... فجعل يتطلع إلى جنته بعينين حالمتين ... وعاوده الحنين إلى حوريته الجميلة .

وما كاد يراها عند دخوله حتى أقبل عليها في شوق وتلقاها كما كان يفعل في أيامهما السعيدة . ثم تهالك على سريريه تعباً .

أما هي فقد ألقت عليه نظرة فتنتها حزينته وتلقته بدشمة تخفيها هدوء وريانة - فقد رأت على وجهه أثر الهم والأسى . وكان كناهض من مرض أو كمن أرقى الليل كله . تغلب الصفرة على وجهه ، ويظهر شيء من الحمرة في بياض عينيه .

ومرت بهما فترة صمت شامل - ثم بدأ يعتذر عن مبعده في الخارج بصوت خافت متقطع الكلمات - وكان قد عزم على إخفاء ماجرى له أمس - فاختلق لها عنراً يدور حول وفاة أحد أصدقائه الأعزاء .

ولما كان في حال من الأعياء والجوع ، فإنها لم تعلق على ما سمعته - واكتفت بهذا القدر ريثما يتناول غداءه وتعود إليه حيويته .

ثم أخذتها الشفقة به - والرافة بحالته فأعانتته على تبديل ملابس الخارج بملابس البيت .

ولاشك أن قيام هذه الزوجة النادرة بهذا العمل المشالي والظهور بذلك الشعور النبيل بعد الذي كان من أعمال زوجها - لما يثير عجبك ويدعو إلى دهشتك - ولكنك لو سألتها حينئذ عن السبب في هذا التسامح :

ولماذا لا تعامله بما يناسب أعماله ؟ أو من جنس أفعاله ؟ —
لأجابتك — بأنها تفعل ذلك لأنها تعرف أن عليها واجبات ومسئوليات لا بد
أن تحرص على أدائها ، «ولو قصر زوجها في واجباته» طاعة لربها الذي قال :
« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » .
ولهذا لا تقصر إلا فيما تراه منافيا لتعاليم الدين ويغضب الله .

وما كاد (محسن) ينتهي من ارتداء (ثوبه المنزلي) حتى ذهب مع
زوجته يحرق قدميه إلى حجرة الطعام .

وعلى المائدة — أعادت (إصلاح) الحديث حول الحادث الذي سبب مبيته
في الخارج .

وكان قد بدأ يشعر ببعض النشاط — فجعل ينسج لها قصة مشيرة عن
وفاة صديقه الرومى وأنه كان ملازما له طوال الليل ، إلى أن دُفن في
الصباح ، لعدم وجود أقارب له . حتى جاء على ذكر المعطف ، والقفاز ،
والنقود التي كانت داخل المعطف ، فأخبرها أن خادم هذا الصديق قد سرق
كل هذه الأشياء . أثناء اهتمامه بالمختصر . ولم يعثر له على أثر .

وكان أسلوب قصته غاية في الحكمة . ومثيراً للأحزان . فلم تأخذها
الريبة في أقواله بل تقدمت إليه معزية مواسية .

وهنا تراه وقد تخفف من بعض همومه بتصديق زوجته ، واستعاض
بعض نشاطه بتناول الطعام — يقبل عليها على غير عادته في الأشهر الأخيرة
يحدثها في شئون الخاصة ويبدى إرتياحه لزيارتها « مدينة السعادة » .

ومن المدهش أنه لم يكتف بذلك بل راح يسألها في اهتمام عن هذه
المدينة وعن أعمالها فيها .

وما لبث أن قال مستفهما :

— لقد سمعت من قبل أن سيدات الجمعية هن اللائي هن بتأسيس تلك « المدينة » من الملمن وحدهن . ولكن الذي يهتني الآن ، هو معرفة المصدر الذي تحصلن منه على المال اللازم لمعيشة اللاجئين مادمتن لا تسلمن حفلات خيرية ولا تجمعن تبرعات مالية .

وكانت (إصلاح) تستمع إليه في دهشة ممزوجة بفرح خلعه اهتمام زوجها بشؤونها الدينية على غير عادته — فلما صمت حتى أجابت قائلة :

— يسعدني أن أرى منك اليوم هذا الاهتمام . ويسرني أن أخبرك عما تريد — أجل يسرني ذلك إذ أن مشروع هذه المدينة في الواقع يعد جديداً في نظمه ، وكفالة اللاجئين تعتبر غريبة في اتجاهها — وذلك لأنها تنتهي ناحية دينية قلما تخطر ببال أحد .

وتوقفت لحظة — فلما رأت اهتمامه قد أخذ عليه مشاعره تابعت :
— فالإسلام ولو أنه فرض الإحسان وأوجبه على الغنى الموسر — إلا أنه لم يأمر الفقير بأن يستجديه — أو يتقاعد عن العمل في انتظار ما تجود به أكف المحسنين ، والتحليل على المتبرعين بأنواع الحفلات . ومختلف المغريات — وفي ذلك قال ﷺ :

(لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهيرة فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

هذا هو الإرشاد الحكيم . والهدى النبوي الكريم . الذي رأت سيدات (الجمعية) أن يجعلن منه دستوراً يسرن عليه في محاربة (الفقر) واستئصال رذيلتي (الطمع والتواكل) من نفوس اللاجئين — أقول رذيلتي الطمع والتواكل دون غيرهما . لأن المرء إذا حفت بنفسه الأطماع . واستساع

الكسل — دب في قلبه الحقد والحسد . وجميعها تربة خصبة لنمو بذور كثير من المبادئ الخطيرة ، والبدع الهدامة التي تنافي تعاليم الدين وخلق الإسلام . . . لهذا أنشأنا بالمؤسسة الحقول والمراعى — بعد أن أسسنا المباني التي تضم بين جدرانها الوسائل اللازمة لمختلف الحرف والمهن الصناعية والتجارية والزراعية .

وكان محسن من أقوالها مدهوشا ، فمضى يرنوا إليها في إعجاب وإصغاء على حين استطردت قائلة :

— ولما كان العمل وحده . لا يكفي دون توجيه حكيم وإرشاد قويم — وهذا لا يتأتى إلا إذا اقترن العمل باتباع (كتاب الله وسنة رسوله) كان اتباعهما هو دستور تلك المؤسسة ، وهدفها الأول في الإصلاح . ولهذا لم يمتص العام حتى أثمر المجهود . وكان السكسب الحلال . ثم كان أن شعر كل فرد بأنه مسئول عن نفسه . غير معتمد إلا على ربه وعمله . ثم ختمت حديثها بقولها :

— ولعلك فهمت الآن السبب الذي من أجله لا نحتاج في كفالة اللاجئين إلى إعانات مالية . أو إقامة حفلات بإسم الخير . وما كادت تنتهى من حديثها حتى بدت على وجهه دلائل الإقناع — وأظهر إعجابه بمبادئهن . وأثنى على مجهودهن .

وكانا قد فرغا من الطعام فصعدا إلى حجرتهما . ومن العجيب أنه أمضى بقية هذا اليوم مقبلا على زوجته كما كان يفعل في أشهرها الأولى . حتى إنه لم يخرج من المنزل . ولم يفكر في الخروج .

مشت حياة الزوجين بعد ذلك هادئة رتيبة متشابهة ، فكان من مكتبه إلى منزله - لا يخرج بعده إلا مع زوجته لقيادة والسيارة التي أصبح في أيامه الأخيرة .

وتناب العقل - فأهمل أمر سهام - وعاد إلى الإهتمام بزوجته المحبوبة . واستمر على هذا الحال حوالي أسبوع شعرت (إصلاح) خلاله بالسعادة الزوجية تعاودها شيئاً فشيئاً . واستعاد (محسن) فيه نحته وزايله الضمف والشحوب .

وفي نهاية هذا الأسبوع جلس الزوجان بعد العشاء في شرفة الفيلا النائية عن الجيران وكان الجو معتدلاً - ونسيم الليل يهب رقيقاً معطراً - فامتد بهما السر ، وغمرتاهما نشوة من المرور - فشعرا بسعادة : تسرحها الجلسة الهادئة . ويعبر عنها الثغر الباسم .

والحق أنها كانت جلسة ممتعة رأت (إصلاح) فيها من اهتمام زوجها بها وإظهار حبه لها ، ما أعاد إليها ذكريات الأشهر السعيدة . وجعلها ترسل إليه من عينيها الساحرتين نظرة تفيض بالحب والأمل كأنها تقول - أرجو أن تدوم علينا هذه السعادة - لكنها أحست بهاتف يهتف في نفسها - هيات أن تدوم - فاضطربت وأخفت اضطرابها .

وفي تلك الجلسة الجميلة أفضى (محسن) إلى زوجته بعزمه على إقامة (حفلة شاي) في الأسبوع المقبل تكريماً لأحد أصدقائه الممتازين بسبب تعيينه (سفيراً في الخارج) وأخبرها بأنه سيحضر هذه الحفلة كثير من الوجهاء وعقيلاتهم ، وطلب إليها القيام بإعدادها وتنسيقها بما يعهده فيها من الذوق والمهارة في مثل هذه المناسبات .

وكعادة (إصلاح) التي أصبحت ديدنها ؛ لم تنشأ أن تجيئه قبل التثبيت
من أن هذا الطالب لا ينافي تعاليم الدين .
وسرعان ما جعلت من نفسها مثالة ، ومن عقلها مسئولا ، وراحت
تسأله ويحييها :

— حفلة خاصة بتكريم صديق زوجي . فماذا في ذلك ؟
— لا شيء ، فتكريم الأصدقاء واجب لزيادة الصلة ورابطة الأخوة ،
وبهذا يأمر الدين .
— وماذا في إعداد الموائد الخاصة بتلك الحفلة ؟
— لا بأس بهذا أيضاً إذا كان يقصد منها إكرام الضيف فالرسول
يقول : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) .
— إذا فلا إثم ولا معصية في إطاعة زوجي فيما طلب الآن .
وما لبثت أن أومأت إليه بالقبول وتم الاتفاق .
وكان القمر قد بعد بنوره ، وأظلمت الشرفة — فقاما ودخلا حجرتيهما
وناما في سرور .

وتلاحقت الأيام — وكلما مر يوم اقترب ميعاد الحفلة — حتى إذا لم يبق
على ميعادها سوى يومين — ذكر (محسن) زوجته بها . ولم تكن قد نسيت —
فتركته لحظة — ثم عادت وقدمت إليه برنامجاً خاصاً بموائد الشاي —
وبالنظام الذي وضعته .
• وعلى أريكة حجرة النوم الكبيرة — جلس محسن بجوار زوجته
شاكراً مسروراً .
ويالها من لحظة سارة تلك التي مرت به وهو يقرأ البرنامج .
— إنه معجب بكل ما أعدته فيه من تنسيق وإبداع .

وما أوقفها من فرصة يغتصبها - إنه سوف يقدم زوجته إلى أصدقائه
كما يقدمون له زوجاتهم .

واطمأنت نفسه ورقص قلبه واستمر في قراءته .

لكنه ما كاد يقرأ آخره - حتى عبس وجهه . وقطب حاجبيه .

وما لبث أن مزقه ورمى به إلى الأرض وجعل يكلم نفسه - إذا فهي
تقصد بهذا الإعداد الرائع والحفل البديع الذي رسمته - أن يكون بالطابق
الأول للرجال بإشرافي ! ! على أن يعمل مثله بالطابق الثاني للسيدات
بإشرافها ! ! . كيف يكون ذلك ؟ - إنه ليتصور الآن نظرات
أصدقائه العصريين وعقيلاتهم - إنها نظرات تشع بالسخرية والتبرم من
ذلك الجو الرجعي البغيض - هذا مستحيل - ولا يمكن أن يكون .

ومرت بهما فترة صمت فهمت (إصلاح) فيها سبب تمزيقه البرنامج :
وانتهى (محسن) فيها من تصوراته ؛ ثم أقبل عليها يحملها على ضرورة
ظهورها أمام أصدقائه ومخالطتهم ولو في هذه الحفلة فقط .

وهنا عادا إلى سابق اختلافهما - إذ راحت (إصلاح) تخته على وجوب
الابتعاد عن محارم الله ؛ وراح هو يسخر منها ويرغمها على ما يريد ويهواه .
وأخيراً وبعد محاضرات لا فائدة منها تذكرت (إصلاح) الحديث
الذي تلوذ به كلما عجزت عن إصلاح الغير :

(ائتمروا بالمعروف . وتناهوا عن المنكر . حتى إذا رأيت شحا مطاعا
وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نسيك) .
فصمت واكتفت بإصرارها على مخالفته .

رأى محسن هذا الرفض . فاستحوذ عليه الغيظ - وسمع إصرارها على
مخالفته ، فعاوده الضيق .

وما لبث أن عزم على إقامة الحفلة بأحد (الفنادق الكبرى) .
وكانت الساعة قد أشرفت على السادسة مساءً فأسرع بارتداء ملابس الخارج .
لكنه ما كاد يهرم بالخروج حتى تذكر تكاليف الحفلة وما تحتاج إليه
من نقود . فعاد إلى مجلسه ثانياً ولبث فترة مفكراً .

— فرت بخاطره أملاكه المرتبهة وديونه — ثم نقوده التي سرقت
منه في تلك الليلة المشئومة ، وأطرق حائراً .

ثم بدت الحيرة أكثر وضوحاً — لقد كان قيام زوجه بإعداد الحفلة
معناه أنها ستقوم بجميع تكاليفها من مرتب المنزل . ولو لم يتكلم في ذلك —
أما الآن . فمن أين له نقود إقامتها ؟ — واستمر حائراً . يقلب الأمر على
جميع الوجوه . فلا يجد له حلاً — فيالها من لحظة صريخة — ماذا يعمل ؟
وكيف يتصرف ؟ لقد ضاقت به الدنيا ، وسدت عليه السبل ، واستبد
به اليأس .

وأخيراً وقد تخلى عنه الأمل . . . وقع بصره على أصبع يده اليسرى
فرأى (خاتمه الماسي) الثمين — فجعل يحلق فيه لحظة — ثم هب واقفاً —
لا حل إلا في رهنه — وغادر المنزل .

وما لبث أن نفذ عزمه وأرسل الدعوة إلى مدعويه على فندق (شبرد)
كما أرسل إلى (سهام) خطاب اعتذار عن تقصيره وبداخله بطاقة دعوة .
أما (إصلاح) فقد وقع هذا التهديد والوعيد في نفسها بعد خروج
زوجها وقعاً شديداً .

وما لبثت أن أطرقت واجهة تستعيد بالذكري أيامها النعسة ، وقد استبد
بها الضيق واستحوذت عليها الهموم والأفكار .

ومن غريب أمر إصلاح هذه الليلة أن إطراقها لم يدم طويلاً ووجومها لم

يلازمها أكثر من لحظات خاطفة — بدأت بعد ما تشعر بإحساس عجيب وشعور مخالف .

إذ أخذ ينقلب غضبها من زوجها إلى لوم نفسها من أجله .
وتفكيرها في أعماله وأقواله — إلى ندم على ما فرط منها نحوه .
— ترى أى شعور ذلك الذى سبب لها هذا التغير ؟

— لقد هبط عليها الشيطان فى تلك اللحظة محاولاً إيقاعها فى المعاصى .
بأسلوب جديد ومن طريق غريب — ذلك هو طريق العاطفة — « وإذا
تحكمت العاطفة وقع المخطور » — فراح يصور لها مخالفتها لزوجها
بحجوداً منها بمعاملته الطيبة — ورفضها لمطالبه غاظة وجفاء — فلو أنها
واقفته على عمل هذه الحفلة — كما يريد ، لاستمر أسير هواها — ولو اتبعت
ما يرضيه ، ما تركها لحظة — وأنها بهذه الأعمال سوف تفقده وتفقد حبه —
وأنه لن يعدم أن يجد أخرى توافقه فيما يريد — فلماذا لا توافقه فترضيه
وتسعد معه ؟

وهكذا ظل يجعلها تتحامل على نفسها — حتى هب عقالها مستيقظةً
(وعقل المؤمن لا تدوم غفلته) .

وفى الحال هتف فى نفسها مذكراً بالحديث الشريف :
(من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله شراً مؤنة الناس ،
ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكفه الله إلى الناس) .
فما لبثت أن استجابت إليه . واختارت رضا ربها — وليفعل
زوجها ما يشاء .

ثم تذكرت أن يوم هذه (الحفل) سيوافق أول أيام شهر (رمضان) .
فحمدت الله على أنها لم توافقه ؛ وتنفست الصعداء — وعادت إلى
ما كانت عليه قبل أسبوعين من الصبر والتوكل .

ظل (محسن) أثناء (حفلة الشاي) التي أقامها (بفندق شبرد) قلقاً لتأخر حضور (سهام) مشغولاً بأمورها .

فلما انتهت الحفلة ولم تحضر ، ولم تعتذر . أيقن من إصابتها بمكروه . أقعدها عن الوفاء بوعدهما في الحديقة . ومنعها من الحضور إلى هذه الحفلة . ووعندئذ شعر بنبضات تفيض باللهفة إلى رؤيتها . ثم صمم على زيارتها غداً بالمنزل .

فلما كان عصر اليوم الثاني . استعد للذهاب إلى منزلها . وكان من عادته ألا يأخذ سيارته في مثل هذه الزيارات فاستقل أول سيارة صادفته — وهناك استقل (المصعد) وما أن صعد إلى الطابق الذي به مسكنها . حتى أخرج من جيبه مفتاحاً اعتاد أن يفتح به الباب كلما كان يحضر إليها وما لبث أن دخل تَوّاً إلى حجرتها .

لكنه ما كاد يفتح بابها حتى حمد في مكانه مصعوقاً ، ثم تراجع مبهوتاً دون أن يتكلم ، فقد رأى أمامه (سهام) تلك التي ضحى من أجلها بكل شيء : (زوجه . وماله . وشرفه) تجلس مع رجل طويل القامة . أسمر اللون . حليق الشارب وأمامهما زجاجات الخمر . وكؤوس الشراب . فما رآياه حتى ذعرا واضطربا — ثم هبت (سهام) واقفة — وسرعان ما جمعت قواها ، ودفعت به بعيداً عن الحجرة .

وهناك صاحت في غضب :

— بأي حق تدخل بيتي . وتفتحم حجرتي — دون استئذان أيها

الوغد الخائن !!

فكاد يقع على الأرض - لكنه تمالك نفسه وصاح في حلق :

— إخرسى أيتها الفاجرة . أنت الخائنة . وقد رأيتك بعيني .

فضحكت ضحكة عالية مبتدلة ثم نظرت إليه ساخرة وقالت :

— أنا الخائنة أم من يدهمه البوليس مع فتاة ساقطة في منزل حقير ؟

فدارت به الأرض ، وعلى دمه في عروقه - ثم جمع أطراف شجاعته

واقترب منها والشرر يتطاير من عينيه وقال مهدداً :

— لا تلفظي بقول وإلا حطمتك بيدي .

فزاد رنين ضحكها المبتدل وقالت في جرأة :

— إذا لم تخرج حالا فسأرشد عنك البوليس مرة ثانية حتى تعرف

قدر (سهام) التي حاولت خداعها .. أخرج أيها الوغد . وإلا فسأنادي

صديقي ، وخدمى ، ليحمواوك على الخروج .

سمع (محسن) هذا فكاد يخن - ثم سمع وقع أقدام صديقها تقترب

فلم يجد بداً من الانصراف .

وما هى إلا برهة حتى كان هائماً على وجهه . يذرع الشارع جيئة

وذهاباً . وهو لا يعي شيئاً مما أمامه - وسار مهموماً يفكر فيما يفعله تجاه

هذه الغادرة بعد أن عسرف السبب الذى دفع (بفتاة الخديعة) إلى

اتهامه بالباطل .

وقد كان حتى هذه اللحظة لا يعرف سبباً لتلك التهم التى وجهتها إليه

أما وقد أدرك أنه كان ضحية فح دنىء نصيبته تلك المرأة الفاجرة فلا بد من

التبليغ عنها : انتقاماً لشرفه ؛ ولتبرئة نفسه .

إنه ليفكر في هذا كله — ولكنه لا يلبث أن يعدل عنه . مخافة
وقوعه في جريمة أخرى — حيث لا شهود معه ولا دليل .
ثم تذهب به الأفكار وهو سائر إلى التفكير في زوجته — فينحى
بالآثمة عليها .

أليست هي التي أُلجأت إلى البحث عن امرأة . تتفق مع ميوله . وتماشى
رغباته — لاشك أنها هي الآثمة — لو كانت زوجة وفية لضحت برغباتها في
سبيل رغباته — ولو كانت مخلصه ؛ لما خالفته وسببت نكد عيشه — أترأه
غافلاً عن قصدها يوم أن استأذنته في تأدية فريضة الحج هذا العام ؟ — لو أنها
كانت تحبه ما فكرت لحظة في فراقه — لكنها لم تزد عن كونها امرأة
(والنساء كلهن نفاق) .

ثم ينتبه . فيجد نفسه سائراً في الطريق الذي عاد منه .
وهكذا حتى ينتهي به المطاف إلى أول حانة تصادفه . فيتهالك على أحد
مقاعدھا أمام مائدة صغيرة — وكان محتفظاً في جيبه بباقي نقود « الخاتم
المرتھن » فأخذ في احتساء الكأس تلو الكأس لينسى همومه وأفكاره .
ومتد تلك الليلة هام (محسن) على وجهه ؛ وأسرف في الشراب .
وارتياد أما كن اليسر — ودفعه سوء ظنه في اخلاص زوجه إلى إهمالها —
فطال سهره في الخارج ، وكثر احتجاجه عن المنزل — ثم جره التمادى في
الغفلة عن ذكر الله . إلى قضاء شهر رمضان في معاقرة بنت الحان .
ومصاحبة إخوان الشيطان .

وهكذا بعد « محسن » عن طريق الخير — فتلقفه الشيطان وأضله .
« ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين »

وكذلك ينتقم الله بأنواع المعاصي . من الذين يحيدون عن طاعته .
ويتبعون (هوى) نفوسهم « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .
والآن هيا تترك « محسناً » يخبط مع شيطانه - ونعود إلى زوجه لئرى
ما كان من شأنها بعد هذا الانقلاب الجديد .

كانت « إصلاح » تعرف أن لاسمل الخير في « رمضان » أجراً
مضاعفاً عن غيره من الشهور — وتعلم أن له حرماً من الحتم مراعاتها
وإلا نقص من أجر « الصوم » وضاع ثوابه — من أجل ذلك كانت
تراعى أن تصوم نهاره صوماً منزهاً عما يبطله من المنكرات والمحظورات
ثم تقوم ليله تطوعاً واحتساباً — وكان لها في إطعام الفقراء طوال أيامه
طريقة مثلى — فكانت ترى يومياً وقت ميعة الإفطار عدداً من المساكين
في ضيافتها يأكلون — وقد اجتمعوا في حجرة « بالبدروم » حول مائدة
كبيرة بإشراف كبيرة الخدم — حتى إذا قرب ذلك الشهر من الانتهاء لم
يفتها إخراج زكاته عنها وعمن تعول من خدم المنزل

ولقد استطاعت طوال هذا الشهر أن تسيطر على نفسها — فلم
تدع لهم وإهمال زوجها سلطاناً على عقلها — وكانت قد اتخذت من
وحدتها مجالاً لبث روح الإيمان بين خدم المنزل جميعاً — فلم يفته هذا
الشهر حتى كان الإيمان رائدهم والتقوى تغمر قلوبهم .

ثم أقبل شهر عيد الفطر ، وكان قد اقترب ميعة الحج — فاستعاضت
خلاله عن سعادتها الزوجية المسلوقة . بأمانيتها في حجها المنتظر —
وبإعداد معداته ولوازمه .

وكانت السيدات قد انتظمن في الحضور إلى منزلها لسماع درس الدين الأسبوعي — فكان لها من ذلك كله — عون على تخفيف هجر زوجها لها وإهماله إياها .

.. وانتصف هذا الشهر — ففتحت «إصلاح» منزلها لآخر « درس ديني » إذ لم يبق على سفرها إلى الحجاز — سوي ميعاد قيام الباخرة التي ستقلها هي ومن معها من السيدات (أعضاء جمعيتها) .

وبينما كانت تستعد لاستقبال السيدات إذا بجرس التليفون يصل إلى سمعها ، فما أن رفعت « السماعه » إلى أذنها حتي سمعت صوتاً نسائياً مألوفاً لسيها . ومحجباً إليها . عرفت فيه صوت صديقتها الأستاذة « سنيه المحامية » فلم تتمالك نفسها أن قالت :

— (سنيه) ؟ يالها من فرصة سعيدة !!

وتدفق الشوق . وتبودلت التحيات .. ثم بدأت الأستاذة الحديث قائلة :

— (محسن بك) موجود الآن ؟

— كلا (ياسنية) — هل من داع ؟

— كنت أريد أن أسأله بعض أسئلة بخصوص القضية .

— القضية ؟ أى قضية تعنين ؟

— يا للذاكرة يا (إصلاح) ... القضية التي بات زوجك بسببها ليلة

في (السجن) منذ أكثر من شهرين .

وطبعاً لم تكن (إصلاح) تعلم شيئاً .. فصمتت لحظة تفكر (سجن) ؟

— سجن ؟ — متي ؟) وسرعان ما عادت بداكراتها على ضوء تلك المدة
فوجدتها تتفق مع أول ليلة بات فيها زوجها في الخارج بحجة موت صديقه
وما لبثت أن صاحت دون شعور :
— آه . . تذكرت .

وسمعت الأستاذة صيحتها فواصلت حديثها قائلة :

— يؤسفني أن أخبرك بأنني منتدبة من قبل المرأة ضده . كما يؤسفني
إخبارك بأن التهم ثابتة عليه — ومن أجل هذا وذاك . كنت أرغب في
التحدث معه . لعل أجد منه ما أستطيع أن أعمله لصالحه — فهل لديك
ما يفيد في هذه القضية ؟ .

فزاد دهش « إصلاح » من ذلك الذي لم تستطع أن تفهم منه شيئاً
وأردفت قائلة :

— إنني آسفة يا صديقتي لأنني لا أعلم شيئاً عما تقولين .

— ماذا ؟ ألم تقولي تذكرت ؟

— أقصد تذكرت ليلة مبيتته خارج المنزل فقط .

فأسقط في يد « سنية » . وندمت على تسرعها وقد كانت تعتقد أن
(إصلاح) تعلم بظروف هذه القضية — لكنها ما كادت تسمع منها ذلك
حتى داخلها شعور بأن (محسناً) يخون زوجه في الخارج . وأنه لهذا يخفي
عنها أسرارها .

وسرعان ما وجدت في نفسها ميلاً إلى الانتقام منه — ورغبة ملحة
في إيذائه — انتقاماً لصديقتها العزيزة . ثم قالت معتدرة :

— (إصلاح) . . إني آسفة يا عزيزتي لإزعاجك . وقد كنت أظنك

مطاعة على أسباب تلك القضية - ولكن هذه إرادة الله الذي لا يخفى عليه شيء . وقد أراد أن تعلمي . ولا يسعى تجاه ذلك إلا أن أخبرك بجميع التفاصيل .

ثم راحت تسرد على مسامعها تفاصيل حوادث القضية كما هي مدونة بالحضر . وكما سمعتها من موكلتها .

وما انتهت من القصة حتى راحت تتابع قائلة :

— فما كدت أتأكد من أن المتهم هو (زوجك) حتى تأملت - وزاد تألمي . كوني موكلة عن المرأة ضده . ولهذا أسرعرت بالتحدث معك قبل أن أعد « مرافعتي » . لعلني أقف على ما يمكنني أن أعمله نحوه إكراماً لصداقتي لك - أما الآن فإني أحمد الله على أن جعل في يدي القصاص منه . وسأعرف كيف ينال جزاءه . وأنا تحت أمرك في كل ما تريد .
ويا لها من لحظة مريرة . تلك التي سمعت فيها « إصلاح » بذلك النبأ .

وما أقسى هذه الأخبار على أي زوجة مهما أوتيت من شجاعة وصبر - وأي شعور يستحوذ عليها أكثر من شعور الانتقام . والرغبة في الإيذاء - وهما الفرصة سانحة لإصلاح ؛ وفي يديها القصاص - وهما هي صديقتها تزين لها ذلك - وتنتظر موافقتها .

لكن الإسلام دين العدل - ودين قول الحق وعدم الظلم - وإصلاح « ذات دين » عظيم . وخلق كريم ، وضمير حي - وقد فهمت من القصة التي سمعتها من صديقتها . ما أقنعها بأن فيها كثيراً من أقوال الزور ، والتلفيق ضمن التهم الموجهة إلى زوجها - فماذا فعلت ؟ وبماذا أجابت ؟

— لقد تناست كل شيء — إهمال زوجها لها — وسوء معاملته إياها —
وخيانته وكذبه عليها — ولم تذكر إلا قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم^(١)
شئان^(٢) قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى » .

وسرعان ما تابعت الحديث قائلة :

— لقد فهمت من أقوالك يا أختاه — أن المرأة تهمه بما يمكن أن
يكون بريئاً منه . وخصوصاً اتهامها إياه بالسرقة . ويؤيد براءته ما عرّفه عنه
في ذلك اليوم . فقد سرقت نقوده ومعطفه وقفازه — وإذاً : فهو المسروق
لا السارق — لهذا أرجو أن تهتمى بإظهار الحق — لا من أجل — ولا من
أجل « محسن » . ولكن من أجل تحقيق العدالة . وإزهاق الباطل — فإذا
تحققت أديك براءته — فلا تراعي أمري ، ولا أمر موكلتك . بل التزمي طريق
الحق والعدل ، ابتغاء وجه الله وحده — وإني لأشكر لك شعورك بخوي
ونبل عواطفك .

وكانت « الأستاذة » تستمع إليها في إعجاب وإكبار فما صمتت
حتى راحت ثني عليها قائلة :

— لله درك يا « إصلاح » — فما أنت إلا ملك كريم . وقد نهيتني إلى
كثير مما يكشف الستار عن التلفيق في هذه القضية وإلى وجوب تحقيق
العدل والحق .

ولم تكد تنتهي هذه المحادثة حتى كان « أستاذ الدين » قد حضر
وبدأت السيدات يفدن ترى — فأسرعت « إصلاح » نازلة إلى حجرة
الاستقبال لاستقبالهن .

ولقد حدث الأستاذ يشرح درسه أن أقبلت « سيدة عجوز » ترتدي
مطفأ وخماراً أسودين وكان برققتها « سيدة كراهة » يظهر عليها « الثراء
والصلاح » من هيئتها الظاهرة ، والسبحة التي كانت في يدها .

فصمت الأستاذ حتى جلست ثم راح يواصل درسه .

وكان من عادة الأستاذ أن ينادى « إصلاح » « بذات الدين » .

فما كادت « السيدة الصالحة » تسمع منه هذا « النداء » حتى انتبهت
وجعلت تنظر إلى « إصلاح » وتطيل إليها النظر . وقد أخذها العجب
من رؤية ذلك الشاب على هذه الحشمة في هذا العصر .

وسرعان ما التفتت إلى جارتها العجوز ومالت على أذنها هامسة :

— من تكون تلك الشابة « ذات الروب الطويل والخمار الأبيض » ؟

فمالت العجوز بدورها على أذنها . وأجابت في همس :

— إنها « إصلاح هانم » ربة هذا المنزل . وهي حرم « محسن بك

المستكاوي » .

فاهتز قلب (السيدة الصالحة) وبدا عليها الإهتمام بشأن (إصلاح)
حتى لكأنها تعرفت عليها . أو كشفت عن بعض صلتها بها . لكن جارتها
لم تلاحظ شيئاً من ذلك . واستمرت تتابع سرد ما لديها من
معلومات قائمة :

— ووالدها (شاكر باشا) رجل عظيم وثرى كبير - لكن وا أسفاه

ليست موفقة في معيشتها الزوجية - (ولا أطيل عليك) فزوجها يريد

إرغامها على شرب الخمر ، والخروج عارية ومقابلة أصدقائه - وهي كما

نرين - أدب . وكمال . وحسمة . ودين - ثم تنهدت متممة :

إيه . . دنيا . . رحم الله زمنا . كان فيه الرجل يندوب غيره إذا رأى
واحداً من الرجال ينظر إلى زوجه ، أو يسمع صوتها - نهايته - (استمعى
إلى الدرس) وقانا الله شر فساد هذا الزمن . وهدانا فيه إلى طاعته .
وفي تلك اللحظة نظر إليهما (الأستاذ) مستنكراً صامتاً . فابتعدت
المعجوز عن جارتهما . وتابع (الأستاذ) الدرس .

وفي نهاية هذا الدرس أعلن (الأستاذ) توقف الدروس إلى ما بعد
عودة ربة المنزل من أداء فريضة الحج - ثم خرجت السيدات بعد أن أدين
صلاة العشاء شاكرات مودعات - وقد اطمأنت قلوبهن ، بما سمعنه من
العظات الدينية . إلا قلباً واحداً ظل مشغولاً (بإصلاح) - ذلك هو قلب
السيدة الصالحة :

— فياترى من تكون ؟ — وما صلتها بها ؟

نامت (إصلاح) تلك الليلة مستسلمة لقضاء الله ، راضية بكل ما يأتي .
به . بعد الذي عرفته من صديقتها ، عن خفايا أعمال زوجها وكذبه -
مكتفية بعذل الله وانتقامه .

وكان من عاداتها أن تسترجع قبل نومها كل ما عمله طوال يومها
من خير وشر - فتحمد الله على الخير ، وتستغفره وتتوب إليه من الشر .
والليلة ما كان أكثر حمدها لله الذي أعانها على تأدية الشهادة في قضية
زوجها ، منزهة عن الباطل ، مجردة من الأهواء .

ولئن كان قد أساء إليها زوجها فحسبها الله الذي اقتص منه .
(وكفى بالله حسيبا) على ظلم العباد .

وانصرم الليل وأقبل النهار ؛ فاستيقظت (إصلاح) من نومها .
وبعد أن أدت صلاة الفجر ، وقرأت ما تيسر من القرآن . عادت
تواصل نومها هادئة راضية - واستمرت نائمة حتى إذا أضحى النهار -
وتهادت شمس - هبت من نومها فزعة .

وما فتحت عينيها حتى صاحت في شيء من الراحة .

- حمداً لله لم يكن هذا الوحش الضاري سوى حلم مزعج .

لكن ما بال قلبها يداخله شعور غريب ؟ ويحدثها بوقوع أحداث
جسام ؟ - لا شك أنها أوهام من أثر ذلك الحلم . لا تلبث أن تنقشع بعد
حمام الصباح وصلاة الضحى .

وفيما هي تهم بالقيام من سريرها ، إذ بإحدى الخادومات تقبل عليها

ويدها بعض أوراق من النوع الخفيف .

فلما رأت (إصلاح) هذه الأوراق في يدها صاحت في دهشة :
ماذا بيدك يا ناعسة ؟

— إعلان يا سيدتى — أتى به رجل كان يسأل عن سيدى .

— ماذا ؟ إعلان ؟ هاته — وما الذى قاله الرجل ؟

— يقول إنه ذهب به إلى مكتب سيدى — فما لم يجده هناك أتى
به إلى هنا .

وتناولت (إصلاح) الإعلان بيد مرتعشة وقلب مضطرب .

ولما كان زوجها متغيبا عن المنزل منذ ثلاثة أيام فقد رأت لزاما
عليها استلامه .

— ترى ماذا به ؟ . .

واهتزت الأوراق في يدها أثناء قراءته وشملتها موجة من الدهول ثم
راحت تنظر فيه قائلة في اضطراب :

— وامصيتاه ! أملاك مرتبهة ؟ وربما مركوم ؟ ثم حجز على الأملاك
لبيعها في مدة لا تتجاوز اليومين ؟

يا للدهاية الدهياء — ما هذا الذى أقرأ ؟ ومتى حصل كل هذا ؟

وفيم صرف ؟ وما الداعى إلى إخفاء أمر ذلك الدين عنى ؟

أسئلة أخذت تتدفق على نفسها كتدفق السيل الجارف — حتى
إذا لم تستطع من نفسها جوابا أطرقت واجهه ورأسها فوق راحيتها وقد
سقط الإعلان من يدها على أرض الحجر .

ومرت بها لحظة رهية كانت فيها نهبا لصراع عنيف بين اغواء
(الشيطان) وسلطان (العقل) فجعلت تقلب وتعيد فى الماضى والحاضر حتى
عادت إلى ذكرى الاعلان فتساءلت :

— والآن ماذا أفعل — وكيف أتصرف ؟

ثم أين (محسن) ليعلم بهذا الإعلان ؟ وأين الوقت حتى يراه ويتصرف فيه ؟ وأكثر من هذا وذلك أين له ذلك المبلغ الجسيم المطلوب لرفع الحجر ؟ ودعت الحوادث شبيهاً لها . فتذكرت ما سمعته أمس من « الأستاذة » فأنثت على نفسها المموم وتداعت الأفكار .

— ما أشبه اليوم بالأمس وإن اختلفت الحوادث ، وتباينت الأسباب — دين يصل به إلى الحجر ، ومعاص تدفع به إلى السجن ، لقد تجاوز الحد وخرج عن الرشد .

واستحوذ عليها اليأس فطادت تتساءل :

— لكن ... أليس لهذا العيش من آخر ؟ — أليس لكل شيء نهاية كما له بداية ؟ — هذه أعماله — وتلك صفاته — لا يصلحه نصيح — ولا ينفع معه صبر — ماذا يفيد في إصلاحه ؟ ماذا ينفع في هديه ؟

— لا شيء .. لا شيء .. إنها جناية الوالدة — فلولاها ما تم الزواج . وجلجلت دقائق الساعة تنبيه بقرب زوال وقت الضحى فتذكرت الصلاة . وعند ما فرغت من (صلاة الضحى) راحت تدعو بين يدي الله أن يعينها على تحمل هذه السكارثة ويوققها لما فيه رضاه .

وما هي إلا فترة وجيزة حتى خمدت ثورة ذلك الصراع العنيف ولم تعد تسمع إلا صوت عقليها ينبعث في نفسها منها .

— حذار من إيهاء الشيطان — إنه يمتلئ ليضمك إلى حزبه كما كنت قبلاً — الزواج من بواعث القدر وإن ظهر لك أن والدتك هي السبب — أنسيت قوله تعالى :

(يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً) .

فسكنت نفسها قليلاً ، وأصغت إليه ملياً - واستترد مذكراً في قوة :

لا تزعمى إيمانك بوساونه - أنسيت الآية الكريمة .

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) . - لا تقنطى

من رحمة الله - أنسيت الوعد الحق (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

وكأنما ذكرى هذه الآيات قد بعث في قلبها الهدوء والاستقرار .

فما لبثت أن قالت نادمة :

— آه — أستغفر الله — إننى لأذكر كل هذا ولا أنساه .

وغلبها الإيمان - فاستعازت من الشيطان . ثم دب في قلبها الرضاء بعظيم

الأجر - فعادت إلى سريرها وقد عزمّت على الإصلاح بعد العفو والعبر .

وفي حزم واستسلام أخذت تفكر في الحالة التي سيصبح عليها زوجها

بعدها الحجز والبيع وجعلت تتخيل كربه . وما سيجلبه عليه ذلك الحادث

من العار والفضيحة .

ثم استولت عليها غريزة حب إصلاح الغير فراحت تسائل نفسها .

— أليس من الممكن أن يدفع به هذا الدمار إلى التماهى في المعاصى ؟

ألم يزين الشيطان لكثير من أمثاله الانغماس في اللذات - بحجة التسلى عن

الهموم والمآسى ؟ فلماذا لا تجرب في هديه وإصلاحه نوعاً آخر غير النصيح

إليه . والصبر عليه ؟ ما أعظم التضحية بالنفس والنال في سبيل الله -

وما أكثر ثوابهما إذا كانا بقصد تفريج الكرب وإغاثة المحتاج .

— ألم يقل الرسول الكريم (من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة)

— حقاً ما أحوجنى إلى تفريج تلك الكربة فى ذلك اليوم الموعود .

— فماذا لو ساهمت بسداد هذا الدين ، وسارعت فى آدائه قبل فوات الأوان .

شعور كمين يدفعها إلى هذه التضحية - ووحى من إيمان يحفزها إلى التنفيذ ابتغاء وجه الله . فإذا لم يصلح زوجها فحسبها الله الذى تعمل من أجله .

وعاودها ذكرى العهد الذى كانت قد قطعتة على نفسها بأن تكون عوناً للمحتاجين من الناس - فما لبثت أن صرت الجرس بجانب سريرها فأقبلت كبيرة الخدم - ومارأتهما حتى صاحت :

— دادة حليلة ؟ ... إلى بدقتر حسابات البنك .

وجاءت به - فتناولته منها وراحت تقول :

— عشرة آلاف جنيه أودعتها باسمى عقب زفانى . أرجو الله أن يكفى مابقى منها لسداد الدين .

ثم أخذت تقلب صحائفه متممة : — هذا المبلغ سحب فى سبيل الله — وذلك سحب لزكاة المال المدخر والحلى — وهذا فى شأن نفقات الحج وجعلت تجمع وتستقطع ثم صاحت : — حمداً لله — الباقى يكفى لسداد المطلوب .

ولم يمض الميعاد المحدد حتى تم سداد الدين ؛ ورفع الحجز عن الأملاك . على أنها ما كادت تطمئن من هذه الوجهة . حتى روعت بوفاة والدها التقي البار — فيا لتجمع المصائب — وبالحكمة الأقدار .

فتح قصر (زينات) هانم أبوابه لأول حادث محزن لم يسبق أن حدث فيه مثله .

فقد كان كما تعلم لا يرى فيه سوى حفلات الطرب ومحافل الأُنس والشراب .

ولقد استمر ثلاثة أيام يعج بوفود طوائف المعزين والمعزيات (زينات هانم وأولادها) حتى ضاقت بهم غرفه على كثرتها وسعتها — وبالرغم من موت (الباشا) فقد ظل هذا القصر كهده السابق من العظمة والبهاء . وكأن لم ينقص منه أحد .

وفي خلال هذه الأيام كانت (زينات هانم) تتقبل العزاء وهي كما هي لاتغادرها روح الغطرسه « الاستقرائية » ؛ ولا تفارقها مظاهر الأناقة « العصرية » وإن كان يخالطهما بعض مظاهر الحزن والتأثر .

وكانت إلى حالتها العادية أقرب منها إلى حالة الحزن « والترمل » — وكانت بملابس الحداد الأنيقة والخمار الأسود الشفاف — أكثر فتنة وإغراء وكانت ممتلئة صحة ونشاطا .

أما إصلاح فقد كانت بادية الصمت ينطق وجهها بما في فؤادها من صبر واستسلام — على حين امتزج حزن (سوزان) بآمال المستقبل والزفاف السعيد . إذ كانت هي وخطيبها قد عقدا الآمال على ماسترته من تركة والدها لسداد ديونه التي كانت حجتة في تأخير العقد والزفاف .

ولهذا كان تقسيم الميراث هو شغلها الشاغل طوال أيام المأتم الأولى .

وفي أمسية . وقد خلا القصر من وفود المعزين . إجتمع الأخوة الأربعة للبحث في مسألة تقسيم ميراث أبيهم وما سيخص كلا منهم من تركته - ثم رأوا أن يشركوا والديهم باعتبارها شريكة معهم في هذا الميراث لكن ما بال « زينات هانم » تبدوا صامتة في شروء ووجوم ؟ وما لها قد انصرفت عن مجلسهم بما يظهر عليها من الأفكار والهموم ؟ عجباً ! ! - لماذا لم تشترك مع أولادها في هذا الحديث ؟ - لماذا لم تجب عن سؤال واحد منهم ؟ - ترى ما الذي خالط نفسها وسبب وجومها ؟ يا لله . . . لقد شحب وجهها . وإرتخت عضلات جسمها ، واختل توازنها ووقفت على الأرض .

وانكفأ الابناء على أمهم صائحين في فزع .

— أماه ؟ ماذا جرى ؟ ويح أنفسنا — الطبيب محالا .

لقد شلت حركة أرجلها ومرضت « بالفالج » .

وانتشر خبر مرض « زينات هانم » بين الأصدقاء والصديقات — فامتلاً القصر بزوارها وعوادها . وانقلب العزاء في موت « شاكر باشا » إلى الاستفسار عن صحة « زينات هانم » .

ولسك سهر في أول المرض بجانب سريرها محبون — وتتطوع وقتئذ لتعريضها معجبون — وكم فاضت عبرات متملقات ومتملقين . والكل آمل في الخطوة لديها بعد الشفاء — لكن المرض أخذ يزداد يوماً بعد يوم ، وساءت حالتها ، وأصبح الوجه النضر شاحبا باهتا . والجسم الممتلئ في خفة ورشاقة . هزيلانخيلاً . وبقي ساكناً لا يتحرك منه سوى النصف الأعلى ويديها . وعز الشفاء وانقطع الأمل .

عند ذلك أخذ يتناقص عدد زوارها ويقل عوادها . وكلما زادت وطأة

المرض . قل العواد . وأهلها من كانوا أصدقاء وكن صديقات — وشغل
السكر بحفلات جهياتهم ومسرات حفلاتهم . حتى خلا القصر منهم أو كاد
ولم يعد يكتر من هذه الزيارات سوى الطبيب وشوقي (خطيب سوزان)
ولعلك لا تغفل عن سر إخلاصه وزياراته — وسبحان المبدل المغير
لكل حال .

واها منك أيتها الدنيا الفادرة — يامن لا تدومين على حال .
حتى (زينات هانم) أصبحت تشعر بغدرك وخيانتك — إنها لتشعر الآن .
بأن كل ما في نفسها قد أدركه التغير بسبب عدم استقرارك على حال —
فكبريائها وغطرسها قد محقتا وتحطمتا . وأفكارها وآراؤها تبدلت
واختلفت — حتى عقلمها استيقظ وراح يحتقر ملاحيك وملاذاتك — إنها
أصبحت تحس بشعور يصلها بعالم غير عالمك المزيف ، ويعدها عن محيطك
الفانى — ويدفعها إلى أعمال قد تبدو غريبة بالنسبة إليها — فتراها وقد
عجز الطب عن شفائها تلجأ إلى منزل الداء ومن ييده الشفاء . تضرع إليه
بالليل والنهار . تسأله العون وتخفيف الآلام — ثم تراها وقد استيقظ
عقلها تكثر من التوبة والندم على ما كان منها من السخرية بالدين وأهله
ثم يدفعها هذا كله إلى استدعاء ابنتها (إصلاح) قبل سفرها إلى الحجاز
للندم أمامها على ما كان منها تجاه دينها وتقواها .

فأما حلت ساعة السفر — دخلت (إصلاح) حجرة أمها وكانت مضطجعة
في سريرها نصف اضطجاع وظهرها مسندا إلى وسائد مرتفعة وقد أخذتها
غفوة التفكير .

وإذ شعرت بمقدم ابنتها . انتبهت وأخذت تنظر إليها . وكانت نظرات

كل منهما تعبر عما يفيض في قلبيهما من لوعة الفراق الذي ما من بده بد .
وقبل أن تتكلم (إصلاح) بدأت الأم الحديث بصوت خافت مضطرب :
— إصلاح !! ابنتي ؟ لقد استدعيتك كي أهبي لك وداعاً لا تشوبه
السخرية التي ودعتك بهما عندما سافرت مع زوجك من مصيف
الأسكندرية إلى مصر الجديدة .

— لا تندم يا ابنتي — فقد أصبحت آسفة على زهرة العمر التي
قضيتها ضالة مضلة — أسوء إلى غيرى بعد أن أسأت إلى نفسي — وإن كنت
قد أسأت إليك في الماضي . فهل لي أن أرى منك الآن صفحاً وغفراناً ؟
فترقرقت عينا إصلاح بالدمع . وانحنت على أمها تقبل يدها . وتغمرها
بدموعها — ثم رفعت رأسها وقالت :

— سامحك الله يا أماء — وهل تظنيني إلا صاخفة ؟
فأمالأت الأم رأس ابنتها نحو صدرها — وراحت تربت على كتفها في حنان
فانكفأت (إصلاح) فوقها وامتزجت قبالاتهما بالعبرات .
وفي بكاء ونحيب تمتت الأم قائلة :
— الآن سافري يا بنتي على بركة الله — والزحى الطريق الذي هداك
الله إليه . ولا تنسى الدعاء لي بالمغفرة — أستودعك الله (يا إصلاح)
أستودعك الله يا أماء .

وسافرت (إصلاح) بعد أن ودعت أمها وإخوتها . دون أن ترى
زوجها أو تسمع كلمة وداع منه .
وسارت الباخرة بها وبمن معها تاركة أرض الوطن — وفي العين دمعته
وفي القلب شغف إلى حج (بيت الله) والصلاة في (مسجد رسوله) وزيارته

(لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك - لا شريك لك) .

هذا هو الدعاء الذي تردد عالياً من أفواه ركاب الباخرة التي كانت بها (إصلاح) عندما وصلت بهم إلى مدينة (رابغ)

كان ذلك في مساء يوم الجمعة . وكان البحر هادئاً جميلاً - والقمر يسطع بنوره السحري . فوق مياهه الصافية وقد أحرم الركاب جميعاً (بالعمرة) - بعد أن تجرد الرجال من ملابسهم العادية . ولبسوا ملابس الإحرام التي لا تزيد عن (إزار) لف حول وسطهم (ورداء) فوق أكتافهم (ونعلين) في أرجاءهم - وكانت النساء قد لبسن الملابس الطويلة الفضفاضة . وضربن بخمرهن على جيوبهن . وأصبحن على الهيئة التي شرعها الاسلام لخروجهن في الحج وغير أيام الحج .

ولقد استمر الجميع يرددون هذه التلبية ويكررونها كلما هموا بعمل أو دخلوا بمكان حتى وصلت بهم الباخرة إلى ثغر جدة مع غروب يوم السبت .

وارتفعت في سماء جدة شمس الأحد المشرقة وكان الحجاج قد بانوا ليلتهم في جده - فاستقلت (إصلاح) وصديقاتها (سيدات الجمعية) السيارة قاصدات الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة .



هذا هو الحرم المكي الشريف .

ياله من مسجد عظيم ، يشغل هذا الحرم فراغاً كبيراً من أرض مكة المكرمة . وهو فناء واسع يسمح لآلاف الحجاج بالصلاة فيه في وقت

واحد — تملؤه أعمدة قائمة — وله أكثر من عشرين باباً يدخل منها
الوافدون من أية جهة يريدون — ويقصد هذا الحرم عدا الحجاج جميع
أهل مكة للصلاة والتبرك . وقل أن تجد هذا الحرم خلواً من الناس — فهو
دائماً مأوى الأتقياء وملجأ الغرباء ؛ وبمجرد الدخول فيه تكتحل عينك برؤية
الكعبة الشريفة . قبلة الصلاة — وأول بيت وضع للناس من بيوت الله —
وهي مكعب مرتفع الأركان . شامخ البنيان . مغطاة بستائر من الحرير
الأسود — قد نقشت بأحرف الذهب أستارها ، وزين الحجر الأسود
أحد أركانها .

يشعر الناظر إليها بنور الربوبية يتلأأ فوقها . فيخفق القلب إجلالا
وتزداد النفس إيماناً . وهي بعد مقصد طوائف الحجاج والأمل في
تطهير ذنوب العباد .

وفي هذا الحرم — فيما يجاور الكعبة — مقام إبراهيم ، وحجر اسماعيل ،
وبئر زمزم — وكلها قريبة من أرض المطاف الذي يحيط بالكعبة كما
يحيط . الهالة بالقمر .

في هذا المكان الطاهر . وقفت (إصلاح) ومن معها بين آلاف
الحجاج تائبة مستغفرة . تؤدي طواف القدوم . وهو أول مناسك العمرة
وقد دعت الله أن يتقبل عمرتها ، ويهيئ لها حجاً مبروراً .

ولم ينته هذا اليوم حتى كانت إصلاح وصديقاتها قد فرغن من تأدية
هذه العمرة — وكان المطوف قد أعد لهن سكناً قريباً من أحد أبواب
الحرم ، ليقمن فيه مدة وجودهن بمكة . « وكن قد أودعن أمتعتن فيه
عند قدومهن في الصباح » ، فما لبثن أن عدن إليه .

وما استقرت (إصلاح) في البيت حتى كتبت إلى أسرته مستفهمة عن صحة والديها .

وامتدت إقامة إصلاح بمكة - عشرة أيام متشابهة الصباح والمساء . قضتها جميعها في (إقامة) الشعائر الدينية . وكل ما تتطلبه أعمال الحج .

كانت إذا ما سمعت صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة تسارع بالذهاب إلى الحرم - فإذا ما انتهت من الطواف حول البيت راحت تجلس بين السيدات ، في المكان المخصص لهن بعيداً عن الرجال حيث تحضر صلاة الجماعة . وكانت حريصة على هذه الجماعة حتى في صلاة الفجر . هذا ما كانت تفعله داخل الحرم .

أما خارجه فكثيراً ما كانت تذهب إلى منازل الفقراء . ومعها الكثير من أنواع الصدقات ، تكسو عاريهم ، وتطعم جائعهم ، وتعد بالمال مساكينهم ومحتاجيهم ؛ حتى إذا فرغت من ذلك كله . كانت تجلس مع صديقاتها بالمنزل يقرأن القرآن ، ويتدارسن الأعمال الخاصة بمناسك الحج .

وقد حدث خلال تلك المدة أن جاء إلى إصلاح رسالة من صديقتها «يسرية» وفيها أرجوها أن تصف لها مكة وما عملته فيها .

كان ذلك بعد مرور أسبوع من إقامتها . وكانت تتأهب للخروج مع صديقاتها إلى الحرم - فأكادت تقرأ الرسالة حتى استأذنتهن في التخلف . ثم جلست على أحد المقاعد ، أمام منضدة صغيرة ، كانت تتوسط الحجرة وراحت تكتب رد الخطاب .

عزيزتي يسرية :

نحن لا نزال في مكة ، وسنستمر بها إلى ما قبل وقفة عيد الأضحى
يوم واحد ثم نرحلها بإذن الله إلى « منى » ومنها إلى « جبل عرفات »
يوم الوقفة ، على أن نعود إليها ثانية قبل نهاية العيد إن شاء الله .

ولقد استأجرنا منزلاً قريباً من أحد أبواب الحرم الشريف —
والمنزل أثرى جميل فرشت حجراته بالسجاجيد العجمية ، والأثاث النظيف
والعرب أهل كرم ومودة — فما كادوا يروننا حتى راحوا يهثون لنا أسباب
الراحة ويمدوننا بما نحتاج .

تسأليني في خطابك أن أصف لك مكة ، وما عملته فيها كما كنت
أصف لك « باريس وسويسرا وفينا » أيام كنت أصيف مع أسرتي بها .
وإنه ليسرني أن أجيبك إلى ما تطلبين .

لكن ما بالي لا أجد من نفسى القدرة على التعبير عما يحال شعورى
نحو هذه الأرض المقدسة . والبلدة العظيمة — إنه لشعور يقف خالى عن
تصوره ويعجز قلمى عن الكتابة فيه ! ومع هذا فقد يمكننى أن أعرفك
بأنها « مدينة » تمتاز بجلال وروعة يشعر بهما كل من يهل عليها وتطأ قدمه
ترايبها الطاهر — وتشم أنفه عيرها المطهر — ومن هنا لا أرى وجه شبه ما بين
هذه البقعة الطاهرة ، وبين غيرها من البلاد ، فى مشارق الأرض ومغاربها .
ويكنى أنها كانت مهبط الوحي — ولم تزل أرض الحرم وقبلة العباد .

وإنى لأستطيع بعد ذلك أن أفاخر بها مدن العالم على أنها الوحيدة
التي لم تجرؤ التقاليد الغربية أن تعبث بتقاليدها — ولم تستطع المدنية

الفاصلة أن تمحو طابعها الإسلامى الخالد — بل ولم تسمح قداستها لأى نوع من أنواع المغريات والملاهى الفسدة — أن تدنس حرمتها ، أو تلغى الحجاج عن العبادة والصلاة .

أما عن أعمالى هنا فأهم ماقت به إلى الآن هو تأدية العمرة ، (وهى فريضة على كل داخل مكة) .

كان ذلك أول يوم وصولنا إلى مكة ، وقد كنا محرمين فى الباخرة بقصد هذا الاعتار .

(والإحرام معناه ترك التأنق ولبس مايستر الجسم وتجنب بعض أعمال وخصال كانت مباحة فى غير أيامه) .

فلما وصلنا الحرم المكى — وقفنا بساحة الطاف للطواف حول البيت . وهنا أقف قليلا ، كي أتخيل تلك الروعة ، التى استولت على مشاعرى وأنا واقفة أشاهد أول موقف عظيم وقفته فى حياتى .

ياله من موقف رائع ، تجلت فيه العظمة الإلهية . وذل العباد كما تجلت فيه المساواة بين الغنى والفقير — لقد خفق قلبى إجلالا وخشية ، وفاضت عيناى بالدمع ، خوفاً ورجاء . قبل أن ينطق لسانى بالاستغفار والدعاء — وعند ما رحت أطوف بالبيت ، مع الطائفين والطائفات . كنت لا أعى شيئاً مما حولى ، وإن كنت لا أجد موضعاً لقدمى من كثرة الناس — لكن هكذا كان شعورى . بل وشعور كل واقف بهذا الموقف العظيم .

تصورى رجالا كثيرين يهرولون حول البيت . ونساء كثيرات يطفن معهم وقد تلاصقت الأجسام ، واختلط الرجال بالنساء . ومع ذلك

فلا لفتة . ولا نظرة . ولا شعور نحو أى مخلوق . بل عنت الوجوه للحي
القيوم . وتحولت القلوب للرب المعبود .

وكما طفنا بالبيت مرة اتجهنا بأعيننا إلى الحجر الأسود مكبرين ، ثم
نعود إلى الطواف ثانية .

وهكذا سبعة أشواط — ما شعر كبيرنا فيها بتعب ، ولا أحس
ضعفنا منها بنصب — إذ الكل كانوا قد تجردوا من العالم الحسى ، إلى
العالم الروحى — وانشغلوا عن شفاء الأجسام ، بشفاء الأرواح ، من
الآثام . . . وما انتهى الطواف حتى صلينا ركعتين فى مقام إبراهيم .
ثم سارعنا مهرولين ساعين داعين بين الصفا والمروة . وبهذا السعى لم يعد
أمامنا سوى قص جزء من الشعر — وذبح ما تيسر من الهدى . للتحلل من
الإحرام — ثم كان القص فى نفس الليلة . وكان الذبح فى اليوم الثانى .
وبذلك انتهت العمرة .

ولا يفوتنى أن أخبرك بأننا سنعود إلى الإحرام بقصد الحج ابتداء
من الغد إن شاء الله .

وإنى لأكتفى الآن بهذا القدر وإلى اللقاء .

« إصلاح »

وما انتهت حتى أغلقت الرسالة وأعطتها أحد غلمان الطوف لإرسالها
بالبريد الجوى .

وكانت قد سمعت صوت المؤذن . يؤذن لصلاة الظهر فأسرعت لاحقة
بزميلاتها إلى الحرم لتشارك فى صلاة الجماعة .

مضى شهران على مرض « زينات هانم » كانت خلالها تهيأ لأفكار مظلمة وليس دفين أخذ يقلق مضجعها ويزيد في مرضها .

على أنها لم تبسج بهذا السر إلى أحد ولم تحاول إفشاءه لأى مخلوق . واستمر هذا حالها ، حتى كان صباح يوم جاء فيه الطبيب لعيادتها وبالرغم مما كان يبدو عليها من مظاهر التحسن . فقد سمعته يهس في أذن المريضة بما فهمت منه أنه لم يبق أمل في حياتها .

ومن الغريب أن هذا الخبر على ما كان فيه من إزعاج ، فإنه لم يترك في نفسها أى قلق أو يشغلها أكثر من فترة وجود الطبيب .

وبعد خروجه دق جرس (التليفون) بجانب سرير المريضة . فأقبلت المريضة كالاعتاد — لكنها ما لبثت أن رجعت إلى حجرتها ، فقد سمعت (زينات هانم) تحجب بصوت خافت :

— أشكرك (يا صفوت بك) ولا لزوم لحضورك فقد حضر الطبيب وأمر لى بالراحة التامة .

وأعقبت ذلك بوضع سماعة (التليفون) مكانها ثم راحت تتمتم . (صفوت بك) هو الوحيد الباقي على وفائه من الأصدقاء والأحباء — ما أبغضه الآن إلى نفسى .

ومرت أمام عينيها صور الماضى معه فأطرقت فى أسف وندم . ولم تكتمف بهذا ولكن شريطاً متتابع الصور أخذ يستعرضه خاطرها . فجعلت تذكر . أصدقاء عديدين كانوا يحبونها ، ويساهمون فى الخير من أجلها . وصديقات عديدات كن يتملقنها ويظهرن الود لها — ثم صحفين كانوا

وسرعان ما أعادته مكانه تحت الوسائد . واستسلمت للنوم هادئة .

ومضى النهار . . . وفي المساء جاء حسين وزوجه لعيادتها كالمعتاد .
وما دخلا حجرة نهار حتى دخلت بهما (سوزان) ثم جاء (سامي) .
والتف الجميع جلوساً حول سرير « والديهم » وراحوا يتلطفون في
الحديث معها ؛ ويحتشدون في إدخال السرور عليها ؛ وكانت الأم مستندة
على الوسائد تستمع إلى أحاديثهم المزوجة بالحب والحنان — وكانت قد
تناست تلك الذكرى المؤلمة — فأخذت في التبسط معهم ؛ ثم في الحديث
عن رسالة أتت من « إصلاح » اليوم ، وعن فرحها بشرب عودتها .
ومرت فترة شعر الأبناء فيها بالتحسن الطارىء على « والديهم » فسروا
سروراً عظيماً .

وكان مرضها المفاجيء قد حال بينهم وبين تقسيم ميراث أبيهم فأروا
أن ينتهزوا هذه الفرصة السارة لإعادة التكلم معها في هذا الموضوع .
ولكنهم ما كادوا ينوهون بهذه المسألة أمامها حتى لاحظوا على وجهها
نفس الشرود والوجوم اللذين شاهدهما يوم ذاك .

عند ذلك بهت الجميع . وظنوا أن ذكرى « الراحل » عزيزة عليها .
ولا يليق بهم الخوض فيها حتى يتم لها الشفاء .

لكن أنى لها ذلك الشفاء وقد تبدلت حالتها فجأة . وغشى عينيها ظلام
لم تعد تراه . ولم تعد تسمع من أقوالهم شيئاً . ثم انعقد لسانها . وضعف
نبضها وسكنت حركتها في صمت رهيب .

رأى الأبناء هذا الذي طرأ على « والديهم » فشمل الأسى نفوسهم ،
وسرى الحزن العميق بينهم .

وسرعان ما انقلب مجلسهم وشغل كل منهم بهذه الحالة الفجائية .
وكانت سوزان بالقرب منها ، فأمسكت بها تمنع وقوع جسمها —
وأسرعت « يسرية » تصر الجرس للمرضة — في حين أخذ « حسين »
يرفع الوسائد كي يهيء « لأمه » مرقدًا مريحاً ترقد عليه حتى تفيق .
وفي تلك اللحظة لاحت من الجميع التفتاة تحت الوسائد المرفوعة . .
فأروا المظروف المتعلق .

وسرعان ما مد « سامي » يده واختطفه قبل أن تقع عينه المرضة عليه
ثم أودعه حجرتة وكر راجعاً .

وجاءت المرضة . علي عجل وتذكرت أقوال الطبيب في الصباح . .
فأسرعت تستدعيه .

رأى الطبيب « المريضة » فتأكد لديه ما كان قد توقعه . ثم رأى
جزع أبنائها فقال مهدئاً :

— لا تهزعوا يا أبنائي فهي بخير — ولكنني أرى حرصاً على مصلحة
المريضة أن تتركوها بمفردها مع المرضة حتى تفيق .
وانصرف .

وعقب انصرافه دلف الأبناء إلى حجرة « سامي » القريبة من حجرة
المريضة وأخذوا في الدعاء والابتهال .

واستمروا بين الابتهال والبكاء ، حتى تذكر سامي المظروف شد يده
وأخذه من فوق مكتبه .

ورآه الباقون . . فالتفوا حوله . ثم شغلوا معه بأمر هذا المظروف .
— ماذا به ؟ ولماذا وضعته والآنهم تحت وسادتها ؟ أيفتحونه
أم ينتظرون حتى تفيق ؟ .

وأخيراً دفعهم حب الاستطلاع إلى فتحه .
فتح سامى الظروف فوجد به أوراقاً بعضها تحوى كتابة قديمة وبعضها
حديثة الكتابة وجميعها عليها بعض آثار الدموع . . . فتملكه العجب . .
وجعل يتطلع إليها فى دهشة ثم أمسك بالأوراق الحديثة — وطفق ينظر
إليها والجميع حوله صرهبوا السمع فى شوق ولهفة .
على أنه ما كاد يلح بعض الكلمات الأولى حتى عرف أنها خاصة بأخيه
حسين — فصمت لحظة . . . وبدأ عليه التردد هل يسلمها إليه؟ أم يقرأها قبله؟
وغلبه الفضول ، واستولى عليه حب الاستطلاع فصمم على ألا يسلم
الظروف إليه إلا بعد اطلاعهم عليه .
وسرعان ما راح يقرأ والجميع فى إصغاء إليه .

« اعترافات »

ولدى حسين :

لقد شئت نفسى الأمانة بالسوء ، أن تنطوى على سر ما كنت أظن
له كشفاً . أو يطلع عليه أحد يوماً من الأيام .
ولقد غرتنى الحياة الدنيا وزينتها فأودعته طي الكتمان وقذفت به فى
عالم النسيان . وما كنت أحسب أنه مهما نبطن تظهره الأيام .
آه . . . يا بنى . . . لقد أراد الله للأيام أن تتداول ليظهر الحق ويزهق
الباطل — وعندئذ ينقلب نعيم الحياة الكاذب إلى عذاب الضمير القاتل .
على أنى أرى لزماً على قبل الاعتراف بهذا السر الأليم ، أن أخبرك
بنبأ مضى عليه أكثر من عام ، كنت أخفيه عنكم لا شئ إلا لأنى رأيت
أن أسدل الستار على كل ما عساه أن يلامس هذا السر ويوقظه .

أتذكر يا ولدى يوم كنا جالوساً حول مائدة الطعام ، ودخل علينا
« سامى » مسروراً وأخبرنا بكسبه « مائتى جنيه » فى « الميسر » من شاب
يدعى « محسن المستكاوى » .

— لا شك أنك تذكر ذلك — ولعلك تذكر أيضاً غفلتى عنكم
وقت ذاك وهو يمثل حركات الرجل الذى خسر نقوده فى « الميسر » .
ثم تذكر بعد ذلك أنى فاجأتكم بإقامة « حفل » باسم الخير ، بنادى
« السيدات العصريات » وشددت على « سامى » فى ضرورة إحضار هذا
الشاب إليها . . وفهمتم يومئذ أن غرضى من هذا ، هو جمع مال الخير
من الأغنياء الكرماء أمثاله .

لا يا ولدى فما شئ من الخير كنت أعنى وقتذاك . ولكنى فقط
كنت قد ابتدعت ذلك لكي أتحقق من شخصية هذا الشاب لمشابهة اسمه
ولقبه أحد أفراد أسرتى .

ثم تمت خطتى وبان لى بعد محادثته أنه نفس الشخص الذى توقعته .
ولكنى ما كدت أقدم إليه نفسى حتى ظهر لى أثناء حديثه — شبح ذلك (السر
الأليم) عند ما علمت منه أن مربيته « عسرانه » لما تزل فى خدمة أسرته
(وهى الوحيدة التى تعرفه) منذ كانت فى خدمتى — فأمسكت ثم أخفيت .
نعم ، يا ولدى — لم أخف عنه وعنكم هذا النبأ ، وتلك القرابة
إلا حفظاً لذلك السر « الخطير » الذى سيكشف لك عن خفايا مصائب
انقيادى وراء التقاليد التى أباحت اختلاط النساء بالرجال . وسهات مخالطة
الزوجات بأصدقاء أزواجهن .

ولدى . . كم يؤلمنى أن أبوح لك باعتراف يكدر لكشفه ، وتزعجك
معرفته . . ولكنى مرغمة على أن أطلعك عليه حتى لا أضعف جريمى

السابقة بالكذب والسرقة . . أو بمباراة أوضح . بإدخال أبناء غير شرعيين ، في ميراث من ليس بأبائهم .

ولقد بكيت مراراً . وترددت كثيراً قبل البدء في كتابتي إشفاعاً على ولدي « سامي » وابنتي « سوزان » ، من أن يكون اعترافي سبباً في حرمانهما من الميراث ، في تركة (شاكر باشا) التي هي حق شرعي لك ولأختك « اصلاح » دون صواكما .

. . آه يا إلهي . . !

تشجع يا ولدي ، واستمع لهذا السر المشؤم الذي كان السبب فيما أصابني تلك الليلة التي اجتمعت فيها لتقسيم الميراث بينكم .

وإنه ليحز علي أن أطلعك مع هذا الإعراف ، على مذكرات طال الزمان بها ما كنت لأطلعك عليها ، لولا أنها تحتوي على ماض يؤيد اعترافي ويثبت أقوالي .

كما يمز على أن أكشف عن تلك الحقيقة المرة التي ستؤلم شعورك وتكدر صفوك .

ولكني أرجو أن تحسن الظن بي ، فما أردت بهذا الإعراف إلا رضا الله والبعد عن الآثام وعدم السكوت على توزيع المال الحرام .

وإني أعيذك يا ولدي من شر ما هو مكتوب في « مذكراتي » فقد كنت فريسة « سلطان الهوى والشيطان » .

واعلم أنني ما أقدمت على هذا الإعراف إلا بدافع الندم والتوبة وبوحي من نقطة الضمير الذي تنبه فأمرضني وحطم جسمي وأدمى عيني وقرب منيتي . وكلما زاد مرضي واشتدت آلامي تذكرت أن هذا جزاء ما قدمت من معاصي وندمت على غروري بالحياة واستهتاري بأوامر الدين .

أواه من عذاب الضمير . . إنه ليؤنبني من أجل تلك الحطرات المأجنة
التي كنت أقيمها باسم الخير . وانقباضني فيها — ومن أجل أستاذ الدين
واستهزائي به . وظلم الخادم التي اعتدى عليها « سامي » وطردي لها —
آه . . كم يعذبني الآن من أجل ابنتي « إيسالاح » ومحاولتي حملها على اتباع
التقاليد الزائفة وحياة الضلال التي كنت أحييها — وفوق ذلك يذكرني
بزوجي — فهو وإن كانت تقف عليه مسؤولية أخطائي لتساهلة أمام تصرفاتي
الضالة المضلة ؛ إلا أنني نادمة الآن على ما كان مني نحوه من خيانة وجحود
فاللهم رحمتك بي ومغفرتك .

وإني لأرجو يا ولدي أن تعينني على تخفيف وزري وتساعدني على نيل
رحمة ربى — فاغفر لي ما تقدم من ذنبي ، واطلب لي عفواً عن ذنوبي
من غافر ثواب .

وها هي المذكرات كما دوتها في حينها .

استمع الأبناء إلى هذا الاعتراف ، وهم مأخوذون لا يشعرون أهم في
يقظة أم هم ينامون . وكانوا في حال يعجز اللسان عن وصفها والقلم عن
الكتابة فيها .

وما انتهى سامي من القراءة حتى وجد نفسه قد انقضت مسكاً بالأوراق
التي بها المذكرات دون أن يشعر أو يتكلم . وبالرغم من جماعة حسين
الشديدة له — فإنه راح يقرأها عليهم ، بقلب مضطرب ويد مرتعشة .
وحال يرثى لها .



٩ يناير سنة ١٩١٩

حضر اليوم أحد أقاربي وهو (على بك المستكاوى) وطلب يدى من عمى فلم يوافق لأنه سبق أن طلق زوجه كان له منها طفل فى الشهر الأول يدعى « محسن » فكدرنى ذلك لما كان بيننا من الحب .

٤ يناير سنة ١٩٢٠

مضى عام فيه تزوج « على بك » بفتاة تدعى « عنايات » وخطبت أنا لشخص يدعى « شاكر بك التركى » وافق عليه عمى لما كان يتصف به من دين و ثراء .

واليوم تم زفافنا وانتقلت معه إلى « فيلا » يملكها بالعباسية .

٣ ابريل

اجتهد « على بك » من يوم زواجى فى مصادقة زوجى ، وقد أخفى اهتمامه بى أمامه ثم أخذ يظهر له من الوفاء والإخلاص ما أشعره بأنه ألزم له من أخ شقيق ..

وعلى أن زوجى من المحافظين على الحجاب إلا أنه ما كان يحجبنى عن « على بك » مخافة اغضابى — ولاعتقاده بحسن أخلاقه واستقامته .

٥ مايو

سافر زوجى اليوم إلى أوروبا فى مهام وظيفته ، وتركنى مع خادمتى « عسرانة » فى حراسة « على بك » لثقتة فى وفائه .

٩ يونيه

قام « على بك » بحراستى خير قيام فكان لا يدع مكاناً من أماكن اللهو دون أن يصحبنى إليها — غير أنه اليوم لم يشأ أن تنزه فى الخارج

وآثر أن نلعب « الكنكان » في البيت — وكنا اثنين والشیطان ثالثا .
فكانت الخطیئة وكان أسف وندم .

٣١ أغسطس

مضت ثلاثة أشهر على سفر زوجى ، بدأت فى نهايتها تظهر علامات
الخطیئة — والیوم جاء زوجى من الخارج وقد أنعم علیه برتبة (باشا) وجاء
إلینا محملا بالهدایا فقابلناه مثقلين بالخطایا .

٥ مارس سنة ١٩٢١

تم أمس الوضع وكان توأمين سمى أحدهما (سامى) والثانية (سوزان)
دون أن يتطرق الشك إلى زوجى .
وفى نفس الیوم زارنا (على بك) ورأى ولديه ، فاستيقظ ضميره
وظهر علیه الأسى والارتباك .

٦ مارس

مات (على بك) مساء أمس بالسكتة القلبية تاركا زوجته (عنايات
هانم) وطفله الرضیعة (یسریة) فحزن علیه زوجى .
أما أنا فلم أتاثر لموته فقد دفن سرى معه — ولم یبق من یعرف ذلك
« السر » سوى « عسرانه » تلك الخادمة الخائنة الیى تركتنى والتحققت
بخدمة زوجة « على بك » الأولى .

٢ مايو

ما أسعدنى الیوم بانثقالنا إلى قصر جمیل بالزمالك سبق أن اشتراه
زوجى لإعجابى به وأطلق علیه اسمى .
ومن هذا الیوم، أرى أنه لاداعى لتدوین مذكراتى فقد تبدل كل شىء .
وما فرغ سامى من القراءة حتى رمى بالورق فوق مكتبه وتهالك على

المقعد - شاحب الوجه محطّم الأعصاب ، في خين نظر الباقون بعضهم إلى بعض في حيرة وقد انعقدت الألسن وساد بينهم صمت موحش وبالأخص (سوزان) فقد عمها الدهول وخيم عليها الكرب والبلاء .

غير أن الاقدار قد اقتضت أن يكون مع كل عسير - نوع من التيسير . فلم يمحض كثير على تلك الحالة المؤثرة ، حتى لكأن الله الرحيم أراد أن يرحم هؤلاء الأبناء من شر ما هم فيه وينقذهم مما هم عليه إذ دخلت عليهم الممرضة فرعة تنبئهم بما بدل الحال وغير الأحوال فقد أخبرتهم بموت والنتهم وانتهاء حياتها .

وحينئذ انقلب موقفهم . وتناسوا ما أصابهم . وشغلوا بهذا الخبر . وكان الليل قد ولى ؛ وانبتق الفجر ، فراحوا يستعدون لعمل اللازم ، في مثل هذه المناسبات .

ولو كنت واقفاً عصر ذلك اليوم جهة حي (الزمالك) لرأيت سيارة دفن الموتى تخترق شارع العظم ، وليس بها سوى جثمان الفقيدة يرافقه ولداها (سامى وحسين) .

مضى اليوم ووريت (زينات هانم) التراب دون نعي في الجرائد أو إعلان للعزاء ؛ ثم عاد الاخوان إلى أختيهما مطرقى الرأس . ولا يزال القلب مجروحاً ، واللسان صامتاً ، والاعتراف يشغل عقول الجميع .

وفي تلك الليلة بات القصر في ظلام دامس وقضى الجميع ليلاء . ليلة لم يكن همهم فيها مصيبة الموت . ولكن كان لكل منهم هم يشغله وشغور قد استحوذ عليه .

كان هم (حسين) موزعاً بين قلقه على مصير أخويه (سامى وسوزان

بعد حرمانهم) من الميراث - وبين إشفاقه على مستقبل أخته (إصلاح) فيما لو عرف (محسن) بهذا الاعتراف المشؤم . وكانت (يسرية) تفكر في (محسن) أيضاً باعتباره أخاً لها ظهر فجأة . وبظهوره يتحتم عليها أن تطلعه على وصية والده الخاصة باشتراكها معها في ميراثها .

أما (سوزان) فقد ظل معها منحصراً في الخطوة التي يجب أن تتبعها لقطع علاقتها بخطيئها - حتى لا ينكشف أمرها أمامه .

في حين كان (سامي) قلقاً من أجل الحال التي سيصبح عليها ، والفقر الذي ينتظره حيث لا وظيفة لديه ولا شهادة معه .

وهكذا مضت تلك الليلة بسوادها وعظم بلائها .

وما انبلج صباح اليوم الثاني حتى روعت (يسرية) بريقة تنفيء بوفاة خالتها في إحدى مدن الوجه القبلي .

ولما كان هذا الخبر يحتم عليها السفر ، لحضور المأتم والعزاء فقد سافرت هي وحسين في نفس اليوم تاركين (سوزان وسامياً) مع بعض الخدم الذين ظلوا باقين في القصر إبقاء على ذكرى الباشا الراحل بعد أن خرج أكثرهم أثر وفاته مباشرة .

سجى الليل وأظلم الكون وخيم على القصر السكون والوحشة . وقد مضت بضع ساعات على سفر حسين وزوجه .

فى تلك الليلة دخلت (سوزان) حجرتها باكية . إذ كانت قد أوصدت دون خطيبها الباب بعد أن تمكنت من الحصول على فسخ خطبتها التى دامت بينهما ثلاث سنوات .

ولم تكد تفكر بوحدتها وحرمانها ، حتى ارتمت منكفئة على سريرها بنحمارها الأسود ، وثوب الحداد الذى لا أثر للتأنق فيه — واستسلمت لبكاء تجاوزت له أركان الحجرة .

ثم أخذتها غفوة استيقظت بعدها فزعة ، وقد تمثلت لها صورة (خطيبها) عند ما دخل عليها الليلة مواسياً — فراحت تسترجع الكلمات المؤلمة التى اصطنعتها وألقها على مسامعه لإيثارته وإغضابه .

ومضت لحظة رهيبة . تذكرت فيها ألفاظ الطمع والأنانية التى نسبتها إليه وحصلت بسببها على قطع كل أمل فى زواجهما — فانهاالت عبراتها وتراكت عليها المصائب والأحزان .

وما أشد الوحدة وما أمر الفراق ؛ وما أقسى هذه البلايا على مثل تلك التى نشأت بين حياة الترف والنعيم .

ثم ألقت نظرة حولها بعد هذا التأمل والبكاء . كمن تبحت عن مواس أو معين .

فلما لم تجد غير سكون موحش ، وأشباح تتراقص أمام عينيها —

تملكتها رهبة الوحدة وروعة الأحران - فأضاءت نور الحجرة ولبثت
حيناً ساهمة الوجه ، شاردة النظرات . تفكر في حاضرها ومستقبلها .

— لقد ماتت أمها وأعز أحبابها . وبموتها ظهر عدم بنوتها لمن كانت
تسمح بجأحه وتعز بأبوتها وثرأته .
يا لهول الذكرى !

— إنها لم تعد إلا ابنة لرجل زان خائن للبasha . مجرم في نظرها .
وبذلك فقدت خطيبها وخاب أملها .

ثم زفرت زفرة حارة وعادت تتابع الذكريات :
— ما أسوأ الفرق بين ما كانت فيه وما آلت إليه - فقر بعد غنى
وذلل بعد عز - وحرمان بعد تمتع ونعيم - أين الجأ - وكيف أعيش ؟
وعلى من أعتمد ؟

وفاضت عيناها بالدمع وأنفاسها بالتأوهات الحارة .
وفيما هي بين المواجس والبكاء . إذا بأخيها سامى - يدخل عليها
مطرق الرأس تخنقه العبرات . وقد روعته الحال التي كانت أخته عليها
فتقابلت نظراتهما الباكية . ثم جلس على مقعد بالقرب منها وأطرقا في
صمت باك - وخيم الهم عليهما - وساد الحجرة صمت رهيب - لم يسمع
خلاله سوى زفرات حارة ، وتنهدات تقطع نياط القلوب .

ومرت بهما فترة قطع (سامى) بعدها الصمت بسؤالها عن
شوقى (خطيبها) فقد علم من البستاني بخروجه منذ قليل .
فلم يكده يسمع منها نبأ فسخ خطبتها حتى اختلج جسمه اختلاجة مفاجئة .
وقتم في ذهول كمن يكلم نفسه :

— فسخت خطبتك ؟ يالنجمع المصائب ! !

وأطرق باكياً .

فزاد بلاء سوزان — واشتد كربها ثم أخذت تهذي في بكاء خافت .

— آه ياسامى . . لقد انتهالت على المصائب . وليس لى قدرة على

تحملها . فكيف الخلاص ؟ وكيف الاحتمال . إن حملى ثقیل ومصیبى

كبيرة وعقلى يكاد يجن كما تصور — فتاة وحيدة يتيمة الوالدين فقدت

المال والحام وعطف الأم — خطيبة تهدمت آمالها . وضاع مستقبلها —

قصر منيف انقضت أركانه فوق رأسها وخلا من جميع مباهجه وعماقريب

ستصبح غريبة عنه .

وتطلعت إلى أخيها بعينها اللامعتين وقالت في شبه عتاب :

— وأنت . . أنت يا سامى — ليتك كنت من أرباب الأعمال فأعيش

في كنفك وأنسى بعض ما أنا فيه من المصائب والبلايا .

واختنق صوتها بالعبرات وتوقفت عن الكلام وانفجرت باكياً .

وكان (سامى) يستمع إليها في تحسر . وكأن صاعقة قد انقضت على

رأسه فأطرق خجلاً .

ثم قال في توسل :

— رفقاً بحالى يا أخاه . ولا تذكرنى بجنايتى على نفسى فإن مصيبتى

كبيرة وبلائى عظيم .

فأدركت سوزان أنها زادت في آلامه وهوميه فقالت معذرة .

— عفواً يا أخى ولا تؤاخذنى بما أهذى به فما ذلك إلا بسبب ما فى

نفسى من الحسرة . وما أصطلى بناره من مرارة الحرمان . وظلام المستقبل .

فماد سألني إلى إطرأقه ثم رفع رأسه ونظر إليها قائلاً :
— لو تعلمين يا أختاه ما أعانيه منذ علمي بتلك الكارثة لفضلت
لأخيك الخلاص من هذه الحياة المرة — والعيشة البائسة .
إنني أحتقر نفسي كلما تذكرت أنني أصبحت فقيراً وليس لدى ما يؤهلني
للعمل في وظيفة . أو ما يساعدني على إنقاذك وإسعادك .
وكانت (سوزان) قد انصرفت إلى همومها فماد — إلى إطرأقه وأخذ
يكلم نفسه نادماً .

— ليتني أتممت تعليمي ولم أتعتمد على ثراء أو جاه — ليتني اتخذت
سبيل أخي (حسين) ولم ألتزم مع الشيطان سبيلاً — أين كان عقلي الذي
تنبه الآن بعد فوات الأوان ؟ أين كان ذلك الضمير الذي استيقظ في هذه
الليالي الحالكه السواد — إنه ليذكرني بتلك الخادمة التي اعتديت
على شرفها وكنت سبب طردها ظالماً وعدواناً — إنه يعذبني الآن من أجل
ذلك المخلوق البريء الذي كنت السبب في وجوده — من يريه ؟ — ومن
يراعيه ؟ — إنني لأتخيله أمام عيني في سجاهل الحياة المستقبلية . سفاكاً للدماء
سراقاً — شريداً في الأرض — طريد العدالة — وهذه جنايتي وتلك آثامي .
واستبد به الهم فاستترد يائساً :

— أيتها الدنيا الغرور ؛ ماذا بقي لي فيك ؟ بل ماذا بقي لي
في الحياة جميعها ؟ — لا شيء إلا أن أموت بجرعة سم أو طلقة مسدس —
لقد فاض بي كأس الهم . ولا أمل لي في الحياة .

ثم هب واقفاً كمن يريد التخلص من الحياة وآلامها بالانتحار .
وكانت سوزان قد تنبهت وسمعت عزمه الأخير . فوقفت قبالة وأمسكت
بتلابيه وجعلت تتوسل إليه في بكاء :

— بربك لا تفعل يا سامى — ورققاً بنفسك — إن لم يكن من أجلك
فليكن من أجل أختك البائسة التى ليس لها من عائل سواك .

وفى تلك اللحظة عاودتها ذكرى لم تكن تأبه لها من قبل — ذكرى
« أستاذ الدين » الذى طالما كانت تهزأ به فما لبثت أن تابعت قائلة :

— أما سمعت من أستاذنا كثيراً من الآيات والأحاديث فى وجوب
الصبر على المصائب والرضا بكل ما يأتى الله به ؟

وما زالت به حتى عدل عن عزمه ورضخ لنصائحها .
وأخيراً تم الاتفاق بينهما على أن يبحث سامى عن عمل بسيط يعيشان
سنة — وشقة صغيرة يسكنان فيها .

وكان قد انتصف الليل فقام سامى إلى حجرته لينام .

دخل سامى حجرته . وماهى إلى اللحظة حتى أغلق بابها عليه واستغرق فى نومه .
أما (سوزان) فلم يطرق الكرى جفونها . بل ظلت ساهدة مستسلمة
لهواجسها وأحزانها .

وما لبثت أن سكنت إلى نفسها تستعيد بالذكرى بعض ما كانت عليه
فى الماضى السعيد .

— لقد كنت أعيش فى بحبوحة من العيش بين ملاحى الحياة ولذاتها .
فظننت ألا حياة غير هذه الحياة السعيدة — ولا شقاء بعد ذلك النعيم —
ثم اعتمدت على ثراء من كنت أظنه أبى وعلى منزلة أمى — وأهملت ما كنت
أسمعه من « إصلاح » فى وجوب الاعتماد على الله وحده .

وحضرتها بعض أقوال أختها ونصائحها الماضية فاستطردت في أسف :
— آه . ما كان أشد غفلى حينذاك — إننى لأذكر الآن أننى سمعت منها
مراراً تلك الآية الكريمة (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .
نعم — أذكر ذلك الآن نادمة على حياة اللهو والضلال التى كان
جزاؤها الشقاء والحerman .

وظلت فترة تفكر فى معنى تلك الآية الكريمة . وفى عاقبة سخرتها
واستهتارها بأوامر الدين ثم عادت تكلم نفسها فى ندم :

— حقاً لقد كانت « أختى » تعمل الصالحات فحفظها الله من أهوال
ماجرى فى غيابها . أما أنا فكنت أسلك طريقاً دامساً . فكان جزاى أن
تكشف لى هذا البلاء كى أعيش فى شقاء — لذلك آمنت الآن بكل ما كنت قد
سمعت من تعاليم الدين — آمنت بأن لابقاء فى نعيم الدنيا . ولا سعادة إلا
فى العمل للآخرة — نعم آمنت يا إصلاح بثاقب رأيك وبعد نظرك بعد أن
رأيت آخرة أمى وما آل إليه مصيرها — حقاً يجب أن أسلك طريقك
كى أحصل على رضا الله وسعادة الدارين .

— لا بد أن أقتدى بك طائعة مختارة بعد أن عرفت أن الله عزيز
ذو انتقام — وأن (حزبه هم المفلحون) فاللهم امنحنى الهداية إذ لا سعادة
إلا لمن هديته إلى طاعتك .

وهكذا رسمت سوزان لنفسها تلك الليلة نوعاً جديداً من الحياة معبراً
عن تغلب سلطان العقل — خالياً من الأهواء والشهوات .
ثم أخذتها سنة من النوم فنامت مستسلمة .

ما أقى غدرات الزمان ؛ وأشد تقلباته .

لقد ظهر على القصر الخراب ، وأظلم نوره . وأغلقت أبوابه ونوافذه .
وأصبح حديث المتحدثين . وعظة السافلين . كما أصبح (ماضي
وسوزان) يشهران بأنهما غريبان فيه . . وقد أحاط بهما النمل . وحل
بهما الشقاء . وأخذا يستعدان لمقاومة الفقر والحرمان فى صمت وخفاء .
وقاما يشعر الغنى أو من هم فى بحبوحة من العيش بآلام ذوى
الحاجة والفقر .

بيد أن (حسينا) التى تشبع قلبه بالإيمان ورققت عواطفه تعاليم الدين
لم يغفل عن التفكير فى مصير هذين البائسين طوال أسبوع سفره مع زوجته .
فما إن رجعا حتى أسرعا تواء إلى القصر . دون أن يفكرا فى
الذهاب إلى منزلهما .

ولا تسال عن شعور الأسى الذى استولى عليه حينما دخل على
« البائسين » ولاحظ عليهما آثار هزال الجسم واصفراره وقد كسا
وجهيهما ذل الحرمان وبؤس الكارثة .

واستولى عليه الموقف — فتذكر القول المأثور — (ارحموا عزيزا
ذل . وغنيا افتقر) .

عند ذلك أخذ فى مواساتهما والترفيه عنهما فى عطف وحنان .

وما لبث أن تناول معهما طعام الغداء — ثم ذهب بهما مع زوجته إلى
« الشرفة » المطلة على الحديقة — وكانت الشمس تعلو فوق الأفق والهواء

يهب هادئاً منعشاً ، ومع ذلك فقد ظلت على وجه (سامى وسوزان) آيات
الملل والتبرم بالحياة .

وفيما كان (حسين وزوجه) يواسيانهما إذ أتى البريد برسالة عليها
طابع « المدينة المنورة » .. لاشك أنها من (إصلاح) .

ولما كانت (يسرية) قد أرسلت إليها تعمي والدتها حين وفاتها . كانت
في رسالتها مواساة لاختوتها وفيها عزاء . لكن مع الأسف . زادت
هذه الرسالة في حزن (البائسين) ومصابهما . فطنقنا بيكيان في لوحة
زادت في عطف (حسين) وحركت كوا من بره وشقيقته .

— لهف نفسه . . ماذا يفعل لتخفيف بلائهما ؟ ماذا يعمل لانتازهما ؟
وصرت به فترة تفكير صامت تعتمد بعدها فتح الحديث عن تركه والده .
فأطرق (سامى) . وصمتت (سوزان) وشجب وجهها في ذل
وانكسار .

عند ذلك اقترب بمقعده منهما . . وكانت (سوزان) تجلس على مقعد
بجانبه (وسامى) أمامه . فما لبث أن أمسك يديهما وزاح يشعرهما بأنهما
لادخل لهما فيما كان من أعمال والدتهما - وأنه واثق من بر (إصلاح) بهما
وأنه سيظل وإياها أخوين لهما كما كانا قبل دون أن يجعل لاعتراف والدتهما
دخلا بينهم .

ويالها من لحظة سعيدة تلك التي أخذ (حسين) فيها يؤكد لهما عزمه
وإصراره على أن يكون تقسيم ما تركه الوالد بينهم جميعاً وكأنهم
أخوة أشقاء .

فقد شعر هذان (المحرومان) في تلك اللحظة كأنهما في حلم

جميل - وما استيقظا منه حتى راحا يتسلمان للمستقبل ، ويمطران منقذهما بالشكر والدعاء . .

ومضت ساعة رفرق فيها السرور. إذ تعمدوا جميعاً خلق أحاديث بعيدة عن آلام الكرى ومصيبة الكارثة .

ثم أخذ الحديث يتدرج معهم حتى وصل بهم إلى ذكر (محسن) وما يحب اتخاذه نحوه بخصوص (اعتراف والدتهم) .

— أخبرونه بذلك الاعتراف الذي يسقط أختهم (إصلاح) في نظره ؟
أم يكتُمونه عنه ويجعلونه سرّاً دفيناً ؟

ولقد كانوا يفضلون عدم أخباره ويسدل الستار على ذلك السر الأليم بينهم . لولا أن يسرية انفردت برأى رأى الجميع وجوب الأخذ به .

كان هذا الرأى متعلقاً بمسألة (وصية) تركها والدها وهي صغيرة ولم تنفذها والدتها لجهلها بمقرر (محسن) وعدم معرفتها بأخباره .

ولما كان خوف (يسرية) من الله ومحافظتها على أوامره يَحْتِمَان عليها تنفيذ تلك الوصية — كان لابد لها من أن تطلع (محسناً) على ذلك الاعتراف الذي يثبت أخوته واستحقاقه .

لهذا تم اتفاقهم على أن يذهب (حسين) إلى «محسن» ويطلعه على ذلك الاعتراف قبل عودة أختهم من الحجاز .

— لكن أين «محسن» ؟

— إنهم جميعاً لم يروه منذ الليلة الأولى لموت والدهم .

— فيا ترى ماذا كان من أمره بعد ذلك الغياب الطويل ؟

— — — إننا سنرى .

كانت «إصلاح» جالسة مع صديقاتها بمسجد الرسول (ﷺ) بالمدينة المنورة (بعد أن أدين فريضة الحج) ، في نفس اليوم الذي عقدت فيه «بالقاهرة» جلسة «محسن» التهم فيها من «فتاة الحديقة» بالاغتصاب والسرقه .

في ذلك اليوم ذهب «محسن» إلى المحكمة ، وكان قد حضر من الخارج لحضور هذه الجلسة ، بعد رحلة طويلة قضاها هائماً على وجهه مع بعض رفقاءه وأصحابه .

وماهى إلا فترة وجاءت الأستاذة «سنية» ومحامى «محسن» والفتاة . فلما نودى على القضية الخاصة «بمحسن» — وقف مثل الاتهام فأعلن ثبوت التهم الموجهة إليه ، من الفتاة .

ثم أذن للأستاذة بأن تؤدى مهمتها — فارتعدت فرائص محسن. وغاب لونه وجعل يتطلع إليها وهى واقفة فى خوف واضطراب .

وأمسكت «الأستاذة» بالأوراق وراحت تنظر فيها وقد اتجهت إليها الأنظار فى صمت وإصغاء .

وقبل أن تبدأ فى الترافع طن فى أذنها صوت «إصلاح» فى التليفون. — فإذا تحققت لديك براءته فلا تراعى أمري ولا أمر موكلتك بل التزمى طريق الحق والعدل ابتغاء وجه الله وحده .

وكأنما صدى ذلك الصوت قد بعث فى نفسها قوة فى الحق والعدل

فتوقفت لحظة ثم بدأت تترافع .

ولما كانت تعرف إدانة موكلتها ، وكانت قد وثقت من ذلك كل

الوثوق — كانت مرافقتها أقرب إلى تبرئة المتهم من إدانته . . . وكان ذلك منها في شجاعة ولباقة أثارت إعجاب الحاضرين ودهشة محسن .
وما انتهت حتى قام محامى المتهم ، فأعلن تبرئته من كل ما وجهته إليه الفتاة بالحجج القاطعة والبراهين القوية .

ثم توقفت الجلسة للمداولة وانعقدت ثانية ، واستعد القاضى لينطق بالحكم .

فاختلج فؤاد الفتاة وارتجفت أوصالها كما اضطربت أعصاب محسن وخنق قلبه ، وراح ينظر كل منهما إلى القاضى وهو ممسك بالأوراق التى دون بها الحكم .

وساد الصمت بين الجميع ، ونطق القاضى بالحكم — فإذا هو يقضى ببراءة المتهم .

ولا يمكنك أن تقدر حالة « محسن » التى كان عليها عند ما سمع ذلك الحكم العادل النزيه . إذ كان ذهول الدهشة قد استولى عليه فلم يصدق ما سمع — وكان سرور النصر قد مالئ عليه مشاعره فلم ير غريمته وهى تخرج أمامه تجر أذيال الفشل .

واستمر على هذه الحال حتى ثابت إليه نفسه وعاد الدم يجري فى عروقه وعندئذ تأكد من تبرئته وكاد يطير من الفرح .

على أن سرور « محسن » بتبرئته لم يكن بأعظم من إعجابه بما أبدته تلك « الأستاذة » العادلة التى رأى فيها خروجاً عن المألوف فى إظهار الحق ومراعاة العدل .

« والأستاذة » ولو أنها كانت صديقة « لإصلاح » إلا أنه لم يسبق

« لمحسن » أن رآها أو عرف بأن لزوجته صديقة بهذا الإسم - لهذا رأى
لزماً عليه أن يقدم شكره وتقديره لتلك العادلة التي سهلت للمحكمة مهمتها
في إظهار الحق . وإزهاق الباطل .

وما لبث أن دلف إلى حجرتها مستأذناً في الدخول - ثم راح يعطرها
بمبارات الشكر والتقدير ويثني على دفاعها وزايتها النادرة .

وكان دخول محسن إلى حجرتها قد هياً لما فرصة للتحدث معه
عن صديقتها « إصلاح » .

فما كاد ينتهي حتى اعتدلت في جلستها ونظرت إليه وهي تعبت
بالأوراق التي أمامها على المكتب وأنشأت تقول في شبه نصيحة :

— إذا كان هناك (يا محسن بك) من تستحق الشكر والتقدير فلتكن
هي زوجك الوفية الخلصة .

وكم كانت دهشة محسن حينما سمع ذكر زوجته فقد كان حتى هذه اللحظة
لا يعلم شيئاً مما قامت به من نبل وتضحية حيث لم يتقابلا بعد المحادثة التليفونية
التي كانت بين زوجها والأستاذة . سوى مرة في مأثم والدها ثم سافر إثر علمه
بمرض والدتها لتضية أجازته الصيفية في رحلة من رحلات اللهو والرياضة
مع بعض فريق النادي المشترك فيه . ولم يخضر سوى اليوم لحضور جلسته .
لذلك ظل صامتاً مبهوتاً يسائل نفسه في اضطراب :

— ما شأن زوجة ؟ وماصلها بهذه القضية ؟ ومن أين علمت بها ؟

ثم جمع أطراف شجاعته وقال متسائلاً :

— هل لسيدتي أن تفصح لي عن قصدها ؟

وخفق قلبه وغاب لونه .

— نعم يا « محسن بك » - وإنه لمن يحسن حظك أن تكون زوجاً

لإصلاح هانم تلك لزوجته النادرة الوجود .

فزادت دهشته ونظر إليها صامتاً .

واستطردت الأستاذة فقصت عليه كل ما كان بينها وبين إصلاح من
حديث تليفوني ثم أعقبت ذلك بمدحها والإعجاب بها .

وكان «محسن» مصغياً إليها في تأثر واهتمام عظيمين - أيقظا فيه كوامن
الندم وعظيم التقدير. ومالبت أن قال موافقاً على ما سمعه منها من مدح وإعجاب :
— الحق ما قلت يا أستاذة وإني لسعيد الحظ بهذا الملاك الطاهر
وما عرفت قدرها إلا الآن . ولا يسعني أمام ذلك سوى شكرك المزدوج على
هذه العواطف النبيلة نحو زوجي - ودفاعك النزيه الذي أنار الحقيقة
ثم ودعها وانصرف .



ظل محسن طوال الطريق يفكر فيما قالته الأستاذة عن زوجه التي كان
يسئ الظن بإخلاصها ويرميها بالنفاق .

ومالبت أن استيقظ حبه الدفين الذي كان يحاول إخماده كلما
بدأ له منها مخالفة لميوله وأهوائه . وحينئذ شعر بالحنين واللاهفة إلى رؤيتها
وبدافع يدفعه إلى الإعتراف لها بخطئه والركوع تحت أقدامها شاكراً
معتذراً عما كان من إهماله وأعماله - ثم جعل يسرع الخطا حتى وصل
إلى البيت .

لسكن ما باله لا يجد عطرها الشذى يفوح عبيره في المنزل ؟ ولا يسمع
صوتها الجميل يغرد فيه - ويحه إنه ليشعر في بيته بوحشة كئيبة - إنها
وحشة تحمل إليه ذكريات أيامهما السعيدة حينما كان يعود إلى المنزل فيجد

زوجه فى زياره إحدى صديقاتها فى الخارج — لطف نفسه لابدائها سافرت إلى الحجاز دون أن يودعها .

ودخل حجرة نومه بخطا متثاقلة وكانت متفلة النواغد وقد خيم على المنزل الصمت إلا بعض أصوات كانت تنبعث من حجرة الخدم .
وهناك ارتمى على (الأريكة) وقد تعلق بنحيط من الأمل — ربما منعها من « الحج » مرض والستها .

وكأنما أقنعه هذا الأمل — فشرع يفكر فى الذهاب إليها عند أسرتها لكن كيف يذهب بعد هذا الغياب الطويل . قبل أن يفرد بزوجه ويطلب عفوها عن تقصيره وإساءاته ؟ — ألم يكن لازماً عليه ألا يتركها فى محنتها ؟ وأن يشاركها حزنها ويواسيها فى مصابها ؟ — ثم يسبح فى هذه الأفكار ويغيب عن نفسه .

ومضت فترة سمع بعدها وقع أقدام (دادة حليمه) وهى تفتح (شرفة الحجرة) فانتبه ونظر إليها مستفهماً فى لفظة كما ينظر الغريق إلى قارب النجاة .

ويا لها من لحظة تلك التى سمع منها فيها نبأ سفر إصلاح — لقد أحس بعد خروجها كأن سهماً قد أصاب قلبه — وأنه أفقد وعيه .

وقبل أن يفيق هبت من الشرفة نسمة معطرة بعبير (ياسمين الحديقة) فخل إليه أن زوجه لا تزال فى المنزل وأنها فى حجرة الزينة المجاورة . وأنها ستشرق عليه بعطرها الشذى وزيتها المعهودة التى تلازمها مادامت فى البيت ؛ فجعلت عيناه تدور فى الحجرة وكأنه ينتظر قدومها .

وفى تلك الحركة وقع بصره على رزمة خطابات كانت موضوعة فوق

« المذيع » بالحجرة ، فقام من مقعده وأخذ يفرزها قائلاً : خطابات
باسمى ؟ ولكن . . ما هذه الأوراق التي تجاورها ؟

وألقى إليها نظرة عابرة . فشمركأن الدنيا تدور أمام عينيه — وكأن
صاعقة من السماء قد انقضت فوق رأسه .

— أتعرف لماذا ؟

— لقد رأى الإعلان الذى به أمر الحجز ويبيع الأملاك .
ولاشك أن إحدى الخادمت كانت قد التقتطه من أرض الحجرة يوم أن
وقع من يد (إصلاح) ودسته بين هذه الخطابات .

ولا يمكن أن تتصور ما عراه فى تلك اللحظة لأن تاريخ الإعلان كان
قد ألقده صوابه — فراح يضرب كفاً بكف فى حيرة وارتياب — وأخيراً
وبلا تفكير — رأى نفسه يقفز (الدرج) قاصداً (بنك الرهونات) .
وهناك وجد ما لم يكن فى حسابه . فقد عرف بسداد الدين فى حينه كما
عرف اسم منقذته ومبعث أمله .

وكأنما أجهزت توضحيات زوجه المسترة وأفضالها المتتابة . على ما فيه
من شجاعة . فكادت عيناه تدمعان لولا أن تمالك نفسه وخرج مسرعاً .

عاد محسن إلى منزله وهو أشد تقديساً لزوجه وتقديراً لأعمالها الجليلة
فدخل حجراته وأوصد بابها عليه فى صمت وتأثر .

وما هى إلا لحظة استبدل فيها بملابس الخارج ثياب البيت ، حتى أدار
مفتاح المذيع (لعله يجد فيه الساوى) واستلقى على سريره .

غير أنه لم يسمع شيئاً مما كان يذاع — فقد كان مشغولاً بما في نفسه
عن كل ما حوله — كان مشغولاً بزوجه فترك لحباله العنان يسبح في
ماضيه من يوم زواجه إلى الآن .

وسرعان ما بدت له زوجه بحسنها وثقاقتها ، ثم بحليل أعمالها وعظم
تضحياتها ؛ فكفكف دموع حارة وغاص في بحر من الندم والتأسف .

وفيما هو في آلامه إذا به يفيق على صوت المقرئ في المذيع يردد تلك
الآية الكريمة . (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

فانتبه مساورباً حتى لسكان قوة خفية كانت تدفعه إلى تدبر هذه الآية
وتفهم معانيها — وما لبث أن صاح في نفسه :

— عجباً ! ! ألم يخلق الله الإنسان في هذه الدنيا إلا لعبادته ؟

يا لغفلى . . ألم يوجدنا فيها إلا لطاعته ؟

وأيقن أنه كان جاهلاً بحقيقة الحياة فاستطرد .

— ما دامت العبادة هي الغرض الحقيقي من وجودنا في هذه الدنيا
فلا شك أنني كنت مخطئاً في تصرفاتي ، وكانت زوجي أبعد مني نظراً
وأكثر فهماً — لك الله يا زوجي الرشيدة من مسخرياتي وجهلي —
فلقد غررتني مباهج الدنيا وملاهيها فحسبت الحياة لذائذاً ولهوياً .

وتغلب عقله بعد طول غفلته — فراح ينحى باللائمة على نفسه .

لماذا كان يهمل تلك التي فهمت الغرض من وجود الإنسان في الحياة ؟
لماذا كان يتركها تعاني آلام الوحدة ومر الحُرمان ؟ أية إساءة أسلفها إليه ؟

— ألكونها كانت لا تريد أن تشترك في حفل يعمل باسم الخير والشر

ينبع منه ؟ أم لكونها كانت تريد إكرام الضيف لأنه ضيف لا لاختلاط

الرجال بالنساء ومخالطة الأزواج بزوجات الأصدقاء ؟

— حقاً . ما أعجب تصرفاته السابقة .

— أيعقل أن يظفر زوج بمثل تلك الدرة النادرة ثم يستنكر أعمالها

ويسىء إليها .

كيف يكون مساماً ثم يبيع لزوجهِ الظهور عارية ومكالمة أصدقائه ؟

— أيعقل أن يكون مساماً ثم يسخر ممن تقيم حدود الإسلام وتتبع أوامره ؟

— لا شك أن مثل هذا الزوج شيطان ، وإن كان يبدو في

صورة الإنسان .

كيف يكون إنساناً يعقل ، وقد كان يستنكر المعروف ويبسح المنكر ؟

كيف يكون إنساناً يعقل وقد كان يتخبط وراء شهواته ولذاته ؟

الآن فقط يحس أنه إنسان يعقل ويفكر — الآن فقط يشعر بأنه

مخلوق جديد غير ذلك العريد المستهتر — إحساس غريب يدعوهُ إلى الندم

على ما فرط منه طوال حياته — شعور مفاجيء يدفعه إلى تقدير جميع أعمال

زوجهِ والافتداء بها . إنه يشعر الآن بأن كل شيء في نفسه قد لحقه

التغيير إلا حبه لزوجهِ الوفية — إنه ليدكر أعمالها الدينية فيرى السعادة

تحيط به وتملأ قلبه ، ثم يطوح بهذا كرتهِ في آفاق عهده الغابر فيتذكر

خليلاتهِ الخليعات وصديقاتهِ المستهترات فتسود الدنيا في عينيه ويحتقر نفسه .

ياله من تلك الذكريات المتناقضة — إنها ذكريات يختلط فيها الوفاء

بالعذر والصدق بالنفاق ، وتتلاقى فيها تضحية الزوجة المخلصة بأنانية

الخليلات — وتقواها باستهتارهن وفسقهن .

ثم يفيق من تأملاته على صدى صوت زوجته في أول شجار بينهما يردد :

(إني وأنت يا زوجي من دين واحد والذي فرض على طاعته قد فرضها وأوجبها عليك أيضاً . فلم لا تتحد سويّاً على طاعته ويكون حبنا في الله أدوم وأقوى) .

— يا لله ! صوت ينبعث الآن إلى نفسي وكأن كل كلمة منه معبّاح يضيء حياتي — نصائح ثمينة صادرة من قلب مخلص عامر بالإيمان .

— لك يا زوجي الوفية ما تريد من الرأي ونعم العمل به .
وكان قد تأخر عن ميعاد الغداء فقام على الحمة . مطمئن النفس إلى حجرة الطعام .

وما انتهى من تناول غدائه حتى ذهب لتوه إلى مكتبة زوجته .
وهناك أخذ يستخرج بعض كنوزها الدينية وما فيها من كتب نفيسة ليسترشد بها ويعمل بما فيها .

واستمر بقية يومه يقرأ كتب الدين في شغف ويدرسها في إعجاب فوجد فيها حلاوة ولذة ما كان يجدها في غيرها من الكتب والروايات التي كان يهواها .

ولما أوى إلى فراشه كان قد لاح له من هدى الدين ما شعر معه بكثير من الندم على مفاته من عدم الاطلاع على هذه النفائس من قبل .
ومنذ تلك الليلة استقر (محسن) في منزله يقرأ القرآن ويطلع كتب الحديث والأحكام .

وكان لا يزال أمامه بعض أيام من أجازته . فظل أسبوعاً ملازماً بيته لا يرحه إلا من أجل الصلاة في المسجد ؛ ثم لا يلبث أن يعود إلى مواصلة دراساته الدينية .

وفي نهاية هذا الأسبوع وصل إليه خطاب من صديق عزيز عليه .

— أتدرى من هذا الخطاب ؟

إنه من صديقه (ممدوح) وفيه يعتب عليه إهماله إياه وعدم سؤاله عنه

من يوم زواجه .

عند ذلك رأى (محسن) من البر بصديقه أن يسارع بالسفر إلى

الزقازيق (البلدة التي بها ممدوح) ليقضى عنده عدة أيام في غياب زوجته

وحينما عزم على السفر تذكر خاتمة الماسي المرتهن « هدية ممدوح إليه »

فما لبث أن سدد — دينه — واستلم خاتمه ثم سافر إليه .

كان الوقت أصيلاً عندما وصل محسن إلى منزل « ممدوح » ، فلما
صعد السلم وانتهى به إلى السطح وجد لافتة نحاسية باسم صديقه على
باب شقة صغيرة لا تزيد عن حجرتين صغيرتين .

وطرق الباب ففتحه (ممدوح) بنفسه .

وما كاد يراه حتى صاح مهللاً في ترحيب :

— محسن ؟ ... يا لها من مفاجأة سارة ...

وتعانق الصديقان — ثم جلسا على السرير متجاورين وجعل ممدوح
ينظر إليه في دهشة ممزوجة بالفرح .

ومالبت أن صاح مازحاً :

— وأخيراً جئت يا سيد محسن — ألم تزل تذكر صديقك ممدوحاً ؟
خلتلك نسيته بزواجك العصرية وحفلات والدتها اللانهاية —

ألم تعدني بزيارة منك بصحبتهما وأنت تودعني على المحطة ؟ فأين تلك
الزوجة المصونة والجوهرة المكنونة ؟

فأجاب محسن معتذراً :

— إنني آسف يا صديقي إذ جئت وحدي — أما زوجي فقد سافرت
إلى الحجاز .

فتطلع إليه ملياً ثم صاح ساخراً :

— حجاز ؟ ها ، ها ، هاى . . حجاز أم باريس ؟ يا صديقي العزيز
ماذا تقول ؟ لعالك خلتي جدك فجئت تخدعني — والله أوحشتنا يا محسن ..

لكن خبرني ؟ أنسيت أنني الذي أوحيت إليك بخداع جدك وإخفاء صفات زوجك العصرية عنه ؟ فلماذا تحاول اللف والدوران .

— لا تظن يا صاحبي أنني أ كذبك — وما قلت إلا الحق وسوف أخبرك بكل شيء بعد أن استبدل ملابسى وأصلى العصر .
فزادت سخرية (ممدوح) وراح يقهقه ثم قال :

— تصلى العصر ؟ إنك تنقلنى من عجب إلى عجب يا صديقى وإننى أخشى ألا أكون أمام (محسن المستكاوى) ! أمتاً كد من أنك (محسن) صديق ممدوح ؟ أكاد لا أصدق ذلك .

فتبسم (محسن) ضاحكاً ثم قال :
— ستعرف كل شيء بعد يا صديقى فلا تتعجل .

قال هذا ثم شرع فى استبدال ملابسه . وما فرغ من الصلاة حتى راح يقص على صديقه قصة حياته مع زوجته وما جرى له من يوم زواجه إلى أن استقام حاله وصلحت نفسه . ثم اغرورقت عيناه بالدمع لذكرى إساءاته لزوجته .

وكان ممدوح فى أول الأمر يستمع إليه فى سخرية ولا يكاد يصدق سماعه . لكنه ما كاد يرى على وجه محسن علامات الجد ودلائل الصدق والتأثر حتى اكتست ملامحه أمارات التصديق وراح يصغى إليه فى صمت وتأثر ، وما ختم (محسن) قصته حتى قال (ممدوح) مهيناً :

— حمداً لله يا صديقى على استجابته لدعاء جدك الأكبر ، وهنيئاً لك بتلك الزوجة التى جمعت بين سعادة الدنيا والآخرة . والآن فقط عرفت السر فيما كان يبدو على (إصلاح هانم) ليلة الحفلة التى خطبتها أنت فيها .

غير أن لي رجاء واحداً وهو ألا تدع لذكري ماضيك وإساءاتك لزوجك
أثراً في نفسك . ولك أن تطمئن بعد يا صديقي فمثل تلك الزوجة لا يحمل
قلبها ضعفاً ولا تنتظر منها سوى الصفح والغفران .

وكان قد حان ميعاد العشاء فتركه لحظة .

وما لبث أن أحضر منضدة صغيرة وضعها أمام السرير ثم راح يهيئ
له ما عنده من الأطعمة .

وبالرغم مما فهمه ممدوح عن استقامة (محسن) فإنه قد أحضر بين طعامه
زجاجة خمر وكأسين للشراب .

عند ذلك تطلع محسن إليها مستنكراً ثم صاح قائلاً :

— يا صاحبي . لقد ولي عهد هذه الخمر وانقضى . وما كان أجدري
بتركها من زمن مضى . ولقد صدق الرسول حيث قال : « الخمر مفتاح
كل شر » وحسبي من الشر ما لحقني العار منه والدمار . ولقد تبنت عنها
توبة لارجعة لها ولا عودة بعدها .

وكان يتكلم بعزم وإصرار . فما لبث (ممدوح) أن نزل على إرادته
ورفع الخمر عن المائدة ثم جلس بجواره .

وعندما شرعاً يأكلان لاحظ محسن دلائل الوحدة تحيط بهما على المائدة
من أنواع الطعام وكان قد رأى آثار القوضى مخيمة على نظام البيت .
فأخذته الشفقة بصديقه والثناء لهذه الحياة التي يحياها وتمنى أن يوقفه الله
إلى من تسعده وتبخر ظلمات بيته .

وسرعان ما فاتحه في وجوب زواجه وترك حياة العزوبة . وكان

(مدح) قد بدأ يشعر باستقامة حال صديقه ويحس بأنه أمام رجل كامل الرجولة يعتمد عليه ، وصديق عاقل يعمل بمشورته . فما لبث أن عزم على الأخذ برأيه .

وعندما استلقى على فراش النوم كانت قد اختمرت في رأسه فكرة الزواج الذي كان يأباه .

وفي سكون الليل ظل ساهداً يفكر فيمن يختارها شريكة لحياته المستقبلية وقبل أن يداعب الكرى أجهانه كان قد أجمع رأيه على بعض صاحباته وصديقاته ممن يرسلنه ويرسلهن .

وما كاد يجتمع بصديقه على مائدة الإفطار في الصباح حتى عادا إلى الحديث معه حول هذا الموضوع الذي بات يشغله . ومالبت أن قال في لهجة تحوي معاني الأخوة الصادقة :

— لقد كنت يا محسن مستشارك ومرشدك أيام كنت تجهل حقائق الحياة ولا تعرف فيها سوى اللذات والملاهي . أما وقد أصبحت رجلاً عاقلاً متزناً . فأنى أرجو ألا تبخل على رأيك فيمن تصالح شريكة لحياتي المستقبلية . وقبل أن يجيب «محسن» راح يصف له إحدى الفتيات اللاتي يرسلنه وماهى عليه من مميزات عصرية .

ولم يكتف بتلك الفتاة بل شرع يصف له غيرها من الفتيات العصريات ويقدم له مميزات أسر كل منهن .

وكان محسن مصغياً إليه في صمت وقد بدأ على وجهه اهتمام الصديق الخالص .

فما انتهى مدح حتى أطرق مفكراً ثم رفع رأسه وتطلع إليه متسائلاً :

— أتريد رأيي يا ممدوح ؟

— ومن لي غيرك يا محسن رشيداً مخلصاً .

— وتزوج بمن أشير بها عليك ؟

— من أجل هذا تكلمت الآن يا صديقي .

فاعتدل محسن في جلسته ونظر إليه ملياً وراح يقول :

— ممدوح ... صديقي ... أنت تعرف أنني قلبت كثيراً بين مسرات

الحياة ولذاتها في مشارق الأرض ومغاربها . وتبعاً لذلك عاشرت كثيراً من

أنواع النساء وخبرت أحوالهن على اختلاف طبقاتهن وأديانهم . ومع ذلك

فما وجدت خيراً من المرأة التي تخاف ربها وتحافظ على أواصر دينها .

وكان قد فرغ من تناول الطعام . فوضع يده على كتف صديقه متطامناً

إليه واستمر يتابع في إخلاص :

— الزوجة التقية يا ممدوح كنز الرجل . ومصدر سعادته في دنياه

وآخרתه . فهي التي تمهد له طريق الخير وتعينه على نوائب الدهر . ولقد صدق

الرسول حيث قال :

(الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة) .

واعلم يا صديقي أن مسألة الزواج من المسائل الهامة التي يجب أن تنظر

إليها بعين العقل والحكمة أكثر من النظر فيها بعين العاطفة والانتقاد

وراء الأهواء والشهوات . ثق بي يا صاحبي ، فالسعيد من اعتظ بغيره .

وعمل بمشوره مجرب مخلص .

ونصيحتي إليك ألا تنقاد وراء شهواتك ولا تزوج إلا (بذات الدين) .

وكان قد حان ميعاد خروج ممدوح إلى ديوانه فخرج تاركاً صديقه وقد

ارتاح إلى رأيه وعزم على الأخذ به .

مضى يوم وأعقبه ثان وثالث (وحسين) لم يزل يبحث عن (محسن) بين منزله وبين النوادي التي كان معتاداً الجلوس فيها .

ولما كان محسن لا يزال عند صديقه ولا أحد يعلم بمقره - فقد وجد حسين مشقة كبيرة في البحث عنه دون جدوى .

وفي اليوم الرابع عاد (محسن) إلى القاهرة . يرافقه صديقه (ممدوح) وكان قد قام بأجازة قصيرة رأى أن يقضيها في البحث عن شريكة لحياته بين الأسر المحافظة التي كان يعرفها قبل نقله إلى « الزقازيق » .

ولما كان قد صمم على أن يتم هذا الأمر خلال تلك الأجازة القصيرة فإنه ما كاد يصل إلى « المحطة » حتى استأذن من (محسن) معذراً بذلك الموضوع الهام .

وكان قد حان وقت صلاة الجمعة . فقصده (محسن) عقب انصراف صديقه إلى مسجد قريب من المحطة ليؤدي الصلاة فيه . وعند ما انتهت الصلاة خرج قاصداً منزله .

لكنه ما كاد يجتاز عتبة المسجد حتى سمع صوتاً يهتف باسمه - فالتفت خلفه ، وإذا به أمام (حسين) شقيق زوجته . فصاح مهللاً .

— حسين ؟ مصادفة سعيدة — ماذا جاء بك إلى هذا المسجد ؟

وسلما في شوق .

وكانت رؤية (محسن) يصلي في المسجد قد أدهشت (حسيناً) ولكنه كان مؤدباً رقيقاً . فلم يعلق بكلمة . واكتفى بما رأى ثم

أجاب على سؤاله قائلاً في ارتياح بهذا اللقاء :

— لقد كنت أودع صديقاً لي سافر منذ قليل — (ورب صدفة خير من ألف ميعاد) . . . وتوقفاً للتحدث .

وأراد محسن أن يطيل الحديث ويستمتع إلى أخبار زوجته — فتأبط ذراع « حسين » وسار به إلى أحد المقاهى القريبة وجلسا يتحدثان . وما إن عرف بموت والدته حتى ظهرت عليه دلائل التأثر وقدم له عزاء حاراً وأظهر أسفاً شديداً عن تقصيره معتذراً بأسباب نفسية طارئة سببت ما كان من غيابه الطويل — ثم أخذ يسأله عن أخبار (إصلاح) في لهفة وشوق .

ولم يطل بهما الحديث عنها حتى حول (حسين) الكلام إلى موضوع « الاعتراف » مبتدئاً بالحديث من يوم مرض والدته إلى ليلة وفاتها .

وكان محتفظاً بالمظروف في جيبه . فلما لبث أن قدمه إليه . . . ثم جلس ساهما ينتظر ما عسى أن يقوله بعد قراءة ما به . أخذ (محسن) المظروف . وما كاد يفرغ من قراءته حتى تراجعت في مخيلته الذكريات . فجعل يذكر نظرة الاهتمام التي قابلته بها (زينات هانم) أول مرة وقع بصرها عليه في (حفلة النادي) ثم عبارات الترحيب به . وسؤالها عن أحواله . واضطرابها عند ذكر اسم والده . وتمادى في تصوراتهِ حتى غفل عن (حسين) الذي كان قد أفاقه الانتظار واستولى عليه الاضطراب ،

وفيما كان (حسين) في قلقه واضطرابه ؛ إذا بمحسن ينظر إليه في صمت ثم يطوى الأوراق ويجعلها داخل المظروف .

ويا لها من لحظة تلك التي مرت (بحسين) قبل أن يعرف رأى
(محسن) في هذه الكارثة . فقد شجب لونه وبدأ خجله .

ولاحظ ذلك (محسن) فأشفق وتألم . وكانت قد أساءته جناية والده .
فما لبث أن بدأ الحديث قائلاً :

— عضواً أيها الأخ العزيز . . إذا كان أبي قد ملأ قلوبكم بالأحزان
ونشر في أفقكم المأسى والآلام .

وكان (حسين) من هذا الرد مبهوراً ؟ فلمعت عيناه دهشة مما لم يكن
يتوقعه . وقبل أن يفيق من ذهوله تابع (محسن) قائلاً :

— اصنع إلى يا أخى ولا تحزن لما كان في الماضى . لقد أخطأ والدى
وأخطأت والدتك ؟ فليساعدهما الله — أما نحن فما ينبغي لنا أن نحمل
نتيجة وزريهما .

ثم استولى عليه الموقف فقال كمن يحدث نفسه :

— آه . . . كم يؤلمنى أننى كنت سبباً فى آلام زوجى وهذا والدى
يزيدها آلاماً على آلام . . لكن مهلاً فسوف أجعلها تنسى الماضى بأحزانه
وأحيطها بمستقبل سعيد وعيش رغيد .

وناوله المظروف وعاد يتابع .

— على أننى لسعيد بأخوتكم تلك التى ستزيد فى رابطة المصاهرة
محبة ووثاماً .

ولم يكتف بذلك بل أخذ فى مواساته وتخفيف آلام الذكرى عليه .
وكان يتكلم بنبل وإخلاص أثرا فى نفس (حسين) فعادت إليه
الطمأنينة وفاض لسانه بمدحه والإعجاب به .

وأقبل «خادم المقهى» بالقهوة فطبقاً يشربان ويتكلمان في مودة وأخاء
ثم أعاد «محسن» الحديث عن إصلاح فنذ كر «حسين» رسالتين
كانتا في جيبه - إحداهما من (يسرية) بخصوص وصية والدها - والأخرى
برقية من «الطور» تنبئ بهودة (إصلاح) بعد ظهر الغد .

وكانت رسالة (يسرية) معه من أول يوم بحث فيه عن (محسن) أما برقية
(إصلاح) فقد وصلت إليه وهو خارج صباح اليوم لتوديع صديقه .

أخذ (محسن) الرسالتين وكتلتها عزيزة عليه . ثم راح يقرأ برقية
زوجته في لهفة وسرور . وما انتهى من قراءة الرسالة الثانية حتى اتجه
إلى (حسين) وقال :

— يحسن . أن تترك مسألة وصية والدي وسوف أنظرها فيما بعد .
أما الآن فأرى ضرورة ذهابي معك لعزاء أخوتي ومواساتهم .

قال هذا وناول «خادم المقهى» حسابه ثم قاما قاصدين القصر .
دخل (محسن) القصر - وما كاد يرى التغيير الذي طرأ عليه من نقص
خدمه . والوحشة التي كانت تعم أرجاءه - حتى تفتقر قلبه همّاً وحزنّاً . ولبت
حيناً بالطابق الأول شارد العقل؛ ساعم النظرات . أمام هذا الانقلاب المريع .

ثم أغلق على صوت (سامي) وقد أقبل لتحيته .

وبعد أن قدم إليه العزاء سعد ثلاثتهم إلى الحجرة التي كانت بها
(سوزان ويسرية) - ولم يكن عندهما علم بمجيء (محسن) - فلما رأناه
حتى هبتا لملاقاته في دهشة وبكاء - وكان الموقف مؤثراً فراح يعمرهما
بعطفه ويواسيهما في حنان .

وحان وقت الغداء فقام الجميع إلى حجرة الطعام .

وعلى المائدة قرر الإخوة أن تكون مقابلة (محسن) لزوجته (على)
محطة القاهرة) مفاجأة دون سابق إخبارها - على حين يسافر (حسين
وسامى) إلى ميناء « السويس » لاستقبالها هناك - أما سوزان ويسرية
فتكونان بانتظارها في منزلها بمصر الجديدة .

وما فرغوا من الطعام حتى كان قد خطر (لمحسن) خاطر ارتاح إليه
وصمم على تنفيذه - فقد رأى أن يذهب إلى منزل جده ليزيل ما به نحوه
ونحو زوجته قبل عودتها .

وزالت من الأفق آثار النهار وجنحت الشمس إلى الغروب فاستأذن
إخوته لينذهب إلى جده .

ها قد وصل (محسن) إلى منزل جده بعد غيابه الطويل .
 وها هو واقف بباب المنزل ينظر حوله متردداً فقد تذكر أنه خرج منه
 آخر مرة مطروداً من جده . ثم تردد مرة أخرى لعل جده يراه أو تلمحه
 خالته . لكن يده سبقتة . فقرع الجرس . وانفتح الباب وظهرت به
 (مربيته عسرانه) .

وقبل أن يسلم عليها حملت فيه ملياً . ثم صاحت مهاللة :
 — مرحباً (بسيدى محسن بك) وقبلت يده .
 وما كاد يدخل حجرة جده حتى جعل الجد ينظر إليه في دهشة . وكان
 مستلقياً على سريره بجلباب البيت . فمض جالساً وراح يرحب به
 في حنان .

— هذا أنت (يا محسن) . مرحباً بك يا ولدى .
 فاغرورقت عينا (محسن) بالدمع فرحاً بهذا اللقاء غير المنتظر .
 ومال على جده يعاقله ويقبل يده . والجد مسرور برؤيته . ثم جلس على
 الكرسي تجاه سريره . وتكرر ترحيب الجد . وزادت دهشة (محسن)
 وعجب من تبدل حالة جده وتغير مقابله .

وفي تلك اللحظة جاءت خالته وقد ضربت بخمارها على جبينها . فهب
 (محسن) لتحياتها . فاحتضنته باكية وقبلته في شوق . ثم راحت تعاتبه على
 انقطاعه وتسأله عن زوجته مستفهمة عن موعد عودتها من الحجاز .
 وكان (محسن) من تلك المقابلة مبهوتاً لا يدري سبباً لهذا التحول
 من جده ولا من أين جاءت خالته بنجر سفر زوجته .

ومالبت أن بدأ الحديث معتذراً :

— إني آسف يا خالتي لما كان من انقطاعي عن زيارتكم . وقد جئت
لأعتذر ولأزيل الفكرة السيئة التي لدي جدي عن زوجتي .
ونظر نحو جده وتابع .

— فهل أستمطع ذلك يا جدي ؟

وما أشد الدهشة التي استولت عليه حينما نظر الجدة إليه وقال في هدوء :
— لا تقل شيئاً يا ولدي فقد عرفت عنها كل شيء جزاها الله عن
صبرها خير الجزاء .

فسر (محسن) على مابه من الدهشة والعجب ثم قال مستفهماً :
— جدي يعرف حقيقة زوجتي ؟ .. حمداً لله فقد كفاني ما أردت
إظهاره - وهل علم جدي بتدينها وصفاتها ؟

— أمس فقط . من خالتك . بعد رجوعي من سفرى .

فزاد عجب (محسن) ونظر إلى جده متسائلاً :

— أسافر جدي إلى بلادنا ؟

— نعم يا ولدي بعد شفائي من المرض الذي كان قد اعتراني بسببك .
إذ كنت أظن بزواجك الظنون - وحاشا يا ولدي أن أظن فقد كنت رأيت
بعيني ليلة زفافك ما حملني على ذلك .

فانبسطت أسارير (محسن) وقال ضاحكاً :

— والآن هل سر جدي بتحقيق دعاء جد العائلة الأكبر ؟

— حمداً لله يا بني . . (نغير متاع الدنيا المرأة الصالحة) .

فزاد سرور (محسن) بما سمعه ومالبت أن اتجه إلى خالته متسائلاً :

— بالله يا خالة من أين أتت إليك أخبار زوجتي ؟

وكيف عرفت بسفرها ؟

فتبسمت خالته وقالت في بساطتها المعهودة :

— لقد رأيت زوجتك يا ولدي بعيني وأنا داخل منزلك وسمعت عن

حقيقتها . فما وجدت لها مثيلة في هذا الزمن .

فنظر إليها مبهوراً وعاد يسألها في دهشة :

خالتي رأيت زوجتي وفي منزلي ؟ — إن هذا لعجيب — وهل عرفتك ؟

وماذا قالت لك ؟

— لا يا ولدي . إنها لم تعرفني . ولم تكلمني إلا كما كلمت غيري .

— عجباً وكيف كان ذلك ؟

فاقتربت منه وراحت تخبره بأسلوبها الساذج :

— كان ذلك يا ولدي منذ أكثر من شهرين . وكان جدك قد سافر

إلى « بلادنا » عندما دعيت هذه الجارة — (وأشارت إلى المنزل الذي

أمام النافذة) لأذهب معها لأستمع إلى درس « دين » في منزل « سيدة »

بمصر الجديدة — كثيراً ما كانت تذكرها أُمّاي بالمدح والإعجاب حتى اشتقت

إلى رؤيتها . . وفعلاً ذهبت معها .

وانتابتها نوبة سعال كان (محسن) في أثنائها ينظر إليها متلهفاً لسماع

بقية حديثها . ثم استطردت أثر زوالها فقصت عليه الحديث الذي كان بينها

وبين جارتها في آخر درس ديني بمنزل (إصلاح) قبل سفرها إلى الحجاز .

« ولعلك تذكر ذلك الحديث » .

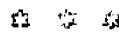
وما فرغت من سرد قصتها حتى قالت :

— الحق يا ولدي إنني فرحت بها بقدر ما تأملت من معاملتك لها .
وعندما رجع جديك أمس من سفره — أخبرته بكل ماممته عنها ، ورأيت
فيها . ففرح وحمد الله وعزم على الذهاب إليها بنفسه بعد عودتها من
الحجاز — ولكن « لا أخفي عنك » فقد ساءت أعمالك ومعاملتك لها .

وكان (محسن) مصغياً إليها في اهتمام فما انتهت حتى أسرع قائلاً في أسف :
— عفا الله عن أعمالي السالفة مع زوجي (يا خالتي) . ولقد ندمت
عليها وعزمت على ألا أعود إليها .

ونظر إلى النتيجة المعلقة على الحائط أمامه وقرأ : (٣ أكتوبر سنة
١٩٤٦) وتابع :

— وليكن تاريخ هذا اليوم شاهداً على قولي وعزمي .



ومر عامان . وأبحرت الباخرة (سودان) بركابها إلى بيت الله الحرام .
ولو كنت أيها القاريء ضمن حجاج عام « ١٩٤٨ » ومن ركاب
تلك الباخرة لرأيت بين نزلاء الدرجة الأولى أسرة ثقية سعيدة مكونة
من زوج وزوجة وطفلتهم ومريرتهما .

ولم تكن تلك الأسرة السعيدة سوى « إصلاح » وزوجها
« محسن » وطفلتهم « زيزى » ودادة « حليلة » .